موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

العقيدة الاسلامية

العقيدة الطحاوية

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (01-20) : لا شيء يعجزه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-02-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل قُدرته مُتَعَلِّقة بكُلّ ممكن فلا شيء يُعْجزه لِكمال قُدْرته :

أيها الأخوة المؤمنون، لا شيء يُعجزه لكمال قدرته، لأنّ صاحب الجوْهرة قال: قُدْرته مُتَعلِّقة بِكُلّ ممكن، فما هو الممكن؟ هو كل ما سوى الله؛ فذات الله واجبة الوجود، وما سواه ممكن الوُجود، فقُدْرته مُتَعَلِّقة بِكُلّ ممكن فلا شيء يُعْجِزُه لِكَمال قدْرته.

أيها الأخوة الأكارم، قد تقول: هذا القاضي عادل، لكِنَّ عَدْل القاضي نِسْبي، وقد تقول: فُلان قوِي، إلا أنّ قوّته نِسْبِيَّة، أما إذا نسَبْتَ إلى الله القوّة والعدْل فهي القوَّة المُطْلقة، أُوَضِّحُ لكم هذه الحقيقة؛ قاضٍ قضى بين الناس أربعين عاماً، فأصْدر في هذه السنوات عشَرات القرارات، فإذا كان بين هذه الأحكام والقرارات والبالغة ـ مثلاً مئة حكم ـ قرار غير صحيح فإنَّهُ يُسَمَّى عند الناس قاضياً عادلاً! لأنَّ الأحكام التي تنْطبق على الإنسان أحْكام من نوع الأعمِّ الأغْلب، ولكن لو قلتَ: إنَّ الله عادل، فهي كلمة مُطْلقة، ولا تسْمح لك أن تعتقد طيلة عمر الأرض كُلِّها، وفي تاريخ البَشَرِيَّة جميعاً أنّ إنساناً هُزِمَ حقّه، فصِفاته وأسماؤه تعالى مُطْلقة، إذا قلنا: لا يُعْجزه شيء، أيْ قُدْرته مُتَعَلِّقة بكُلِّ ممكن، وهذا إلى ماذا ينْقلنا؟ ينقلنا إلى أنَّ المُعْجزات التي وردت في القرآن الكريم يقف منها بعض ضِعاف العُقول موقف المُتَرَدِّد، يقول لك: هل يُعْقل ألاّ تحْرق النار؟! فلو عرفـَ أنَّ قدْرته متعلّقة بكُلِّ ممكن فستَقول: هذا مَعْقول، نحن لم نألَفْ في عاداتنا أنَّ النار لا تُحْرق، إلا أنَّهُ في عُقولنا ما دامت قُدْرة الله مُتَعَلِّقة بكُلّ ممكن: كُنْ فيَكون، فالبحْر أصبح طريقاً يبَساً! والنار؛ يا نار كوني برْداً وسلاماً على إبراهيم! فكلمة (لا يُعْجِزُهُ شيء) أنَّ قُدْرته مُتَعَلِّقَة بكُلّ ممكن، وهذه تجعلنا لا نقف حيارى أمام آيةٍ قُرْآنِيَّة أشارتْ إلى خرْقِ لِقَوانين الكَوْن، وهذا لا يحْملنا على أنْ نرْفض الكرامة بل نُصدِّقُها، لكن لا نرْويها، أما إذا وردَتْ في نَصِّ قرآني أو حديث صحيح فإذا رفَضْناها فقد كَفَرْنا، فأهل الكهْف ليْسوا أنْبياء، بل هم مؤمنون، وكرامتهم أنَّهم لبِثوا في كهْفِهم ثلاثمئة سنين وازْدادوا تِسْعاً، والسيِّدة مريم ليْسَت نَبِيَّة، إنما هي صِدِّيقة، ومع ذلك أنْجَبَتْ مولوداً ذَكَراً من دون زواج؛ فهذا خَرْقٌ للعادات، فكُلّما تَبَحَّرْت في معرفة قدْرة الله عز وجل رأيْت المعجزة أمراً طبيعياً مَحْضاً.

الله عز وجل على كُلّ شيءٍ قدير :

قال: لا شيء يُعْجِزُهُ لِكمال قدْرته، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

أشْمَل كلمة في القرآن الكريم على الإطْلاق هي كلمة (شيء)، كُلُّ شيءٍ، معنوي، أو مادي، أو حيوي، أو جماد، أو ميِّت، أو حيوان، أو إنسان، كبيراً كان أم صغيراً، قريباً أم بعيداً، مرْئيًّا أم غير مَرْئي، كُلُّ هذا شيء، والله على كُلّ شيءٍ قدير، ومثل هذه الآية قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المجادلة: 7]

تَعَلَّقَتْ قدْرته بِكُلّ ممكن، فالآية الأولى، وهذا منْهج الكتاب؛ إنَّ الله على كلّ شيء قدير، وقال تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

[سورة الكهف: 45]

صِفات الله إذا جاءت بعد كان فهذه الصِّفات مُترابطة مع المَوْصوف ترابطاً وُجوديّاً :

أما كلمة (كان) فهي تُفِيدُ علاقة رائِعَة جداً! فقوله: كان الله، هذه الصِّفَة متعلّقة مع وُجود الله عز وجل تلازماً ترابطيًّا وُجودِياً، أي منذ أن كان الله تعالى كان عليماً، وكان حكيماً، فإذا قرَأتَ القرآن الكريم، وقرأتْ قوله تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

[سورة الفتح: 4]

وقال تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

[سورة الكهف: 45]

انْتَبِه إلى هذه العلاقة؛ إذا جاءَتْ صِفات الله بعد كان معنى ذلك أنَّ هذه الصِّفَة مُترابطة مع المَوْصوف ترابطاً وُجوديًّا! قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

[سورة فاطر: 44]

كُلُّ نفْيٍ يأتي في كتاب الله أو سنة نبيه فهو لِكَمال الضدّ :

أيها الأخوة، هذه الآية كم تَبُثّ في الإنسان من طمأنينة ومن أمَل؟! لو أنَّ عبداً مرض مرضاً عُضالاً، فما دام الله تعالى على كُلِّ شيء مُقْتَدِراً، قال تعالى:

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

يؤوده يعجزه، ومعنى هذا يُثْقِلُهُ ويُعْجِزُه، وحينما يردُ في القرآن الكريم نفْيٌ مُتَعَلِّق بذات الله فهذا النَّفْي هَدَفُه إثبات كمال الضدّ، فحينما ننفي عن الله جَلَّ جلاله شيئاً فلِنُثْبِتَ كمال ضِدِّه، فما كان ليعجزه من شيء في السماوات والأرض، وكذا لا يؤوده حفظهما؛ فهذا النَّفي لثبوت كمال الضدّ، فَكُلُّ نفْيٍ يأتي في كتاب الله عز وجل، وفي السنَّة المطهَّرة فهو لِكَمال الضدّ، فقوله تعالى:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 49]

أي لِكَمال عَدْله، وقوله تعالى:

(وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة يونس: 61]

لِكَمال علمه، وقوله تعالى:

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

لِكَمال حياته، وَقَيُّومته، وقوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام: 103]

لِكَمال جلاله وعَظَمَته.

نفي العجز عن الله عز وجل لإثبات كمال قدرته :

الفقرة الثانِيَة: قوله ولا شيء يُعْجِزُه، فَنَفَيْنا العَجْز من أجْل أنْ نُثْبِتَ كمال القدْرة، ما هو ضدّ العَجْز؟ القُدْرة المُطْلَقة، لاحظوا أنَّ هذا الكتاب الذي ندْرسه مع القرآن، وسنَفْهَم القرآنَ فَهْماً عقائِدِياً، وهو فَهْم أساسه وُجوب أن تنْبَعَ عَقيدَتنا من كتاب الله وسنَّة رسول الله، لذلك لا يُمْكن أن نقع في الشَّطَط، ولا في الخلل، ولا في المبالغة.

المُقْتَدِر اسْمُ فاعل مِن اقْتَدَر، أما قدير فهي صيغة مُبالغة اسم الفاعل، مِن قَدَر يقْدِرُ فهو قادر، فهو فيه المبالغة، ولكن اقتدر غير مُبالغ به، فالفرق بين قدر واقْتدر كالفرق بين كتب واكْتتب، فَكَتَبَ يدلّ على الكتابة، أما اكْتتب أي أنَّهُ جعل الكتابة حِرْفَة له.

التَّعْبير عن ذات الله بألفاظٍ شرعيَّة نبويَّة إلهيَّة هو سبيل أهل السنّة والجماعة :

الآن نأتي إلى شيءٍ أرجو الله سبحانه وتعالى أن نقف على حُدوده؛ قال المؤلّف: لا يليق بالله عز وجل أن تقول: ليس بجِسْمٍ ولا بِشَبَح ولا جُثَّة ولا صورة ولا لَحْمٍ ولا دَمٍ ولا شَخْص ولا جَوْهَرٍ ولا عَرَضٍ، ولا بِذي لون ولا بذي رائِحَة ولا طعْمٍ ولا حرارة ولا رطوبة ولا برودة ولا طول ولا عرْضٍ ولا عُمْقٍ ولا اجْتِماع ولا افْتِراق ولا حركة ولا سكون ولا تبعُّضٍ، من يقول هذا الكلام ويسْتَرْسل في التَّعْريف بالله عز وجل عن طريق النَّفْي، كمَنْ يُخاطب الملك ويقول: أنت لسْتَ بفقير ولا بزَبَّالٍ، فهذا ليس من باب الكمال والأدب مع الله تعالى، لذلك الأكْمل أن نأتي بصِفات النَّفْي مُجْملة، وصِفات الإثبات مُفَصَّلَة، فلو قال الواحد للملك: أنت لسْتَ كَواحِدٍ من رَعِيَّتِك! فهذه أكْمل، وهذه قَضِيَّة أساسِيَّة في درْس اليوم، طبْعاً نُقِلَ عن سيِّدنا عليٍّ قوْل إلا أنَّهُ مُخْتَصَر: ليس بجِسْمٍ ولا بصورة ولا بِمُتَبَعِّض، وكلّ ما خطر ببالك فالله تعالى بخِلاف ذلك! أما الاسْتِطْرادات الطويلة جداً فهي سوء أدَبٍ مع الله عز وجل، وبالمناسبة النَّفْيُ الصِّرْف لا مَدْح فيه، قد تقول: فلان ليس آكِلاً طعامه، فهذا نفي خالٍ من المدْح، ولكن إن قلت: ليس ظالماً، فإنَّك تُشير إلى أنَّه عادل، فهناك صِفات إن نفَيْتها أثْبَتَّ العَكْس، وكان العكْس مدْحاً، ولكن هناك صِفات إن نفَيْتها ليس هناك ما يُقابلها، إذاً النَّفي المَحْض لا مدحَ فيه.

التَّعْبير عن ذات الله عز وجل بألفاظٍ شَرْعِيَّة نَبَوِيَّة إلهيَّة هو سبيل أهل السنّة والجماعة، لذلك حينما أدْخَلْنا عِلْم الكلام في عِلْم العقيدة كَثُرَتْ الصِّفات السّلبيّة، وقلَّت الصِّفات الإيجابِيَّة؛ عالِمٌ قادِرٌ حيّ مريد، والصِّفات السَّلْبِيَّة كثيرة جداً، ينبغي أن نعْكس الأمر، وهو أن نُكْثر من الصِّفات الإيجابِيَّة في ذات الله عز وجل، وأن نخْتَصِر وأن نهمل الصِّفات السلبيّة، وبالمناسبة كما تعْلمون ممنوع أنْ نُفَكِّر فيها بِنَصِّ السنَّة النَّبَوِيَّة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((تَفكَّروا في مخلوقات الله، ولا تفكَّروا في ذاته فتَهْلكوا))

[ذكره ابن كثير في تفسيره]

التَّفكّر في ذات الله عز وجل أحدُ أسْباب هَلاك الإنسان :

مرَّةً ثانية وثالثة ورابعة هذا العقل البشري جهاز اسْتِدلال له مجال مُحدَّد، فَحيثما أعْمَلْتَهُ في مجاله المُحَدَّد أعْطاك نتائِج رائِعة، وما أرْوَعَها!! أما إنْ أعْملته في مجال آخر حَطَّمْتَهُ، ولم يُعْطِكَ شيئاً من النتائج، كالميزان المُحَدَّد ليزن من خمْس غرامات إلى خمْسة كيلو غرام فإن وزَنْتَ به مئة كيلو غرام حَطَّمْتَهُ، فالعقل كذلك مجاله المَحْسوسات، وهو بِشَكْل مُخْتصر جهاز ينقلك إلى المَحْسوس، إلى المُغَيَّب عنك، أبْسط مثل: رأيت وراء جدار دخانًا، فَعَقْلك يقول: لا دُخان بلا نار، فأنت لم ترَ النار، ولكن رأيت الأثر، ويجب أن تعتقد أنَّه ما دام هناك شيءٌ ماديٌّ أمام عَيْنَيْك فالعقْل يعْمل، فإذا أدْخَلْتَ الأثر فإنَّ العقْل لا يعْمل، لذلك الشيء الذي لا أثر له، وليس هناك من سبيل لِتَصْديقه إلا الخبر الصادِق، فالآثار هي الكون، فإذا فكَّرْت في الكون عَرَفْتَ الله عز وجل، أما إذا تَوَجَّهْت إلى ذات الله عز وجل وقلت: كيف يعْلم؟ ما طبيعة قدرته؟ كيف كان ولم يكن معه شيء؟ إذا خُضْتَ في هذا المجال أحْرَقْتَ هذا العَقْل ولم يُعْطِكَ أيَّة نتيجة، أحدُ أسْباب الهَلاك التَّفَكّر في ذات الله عز وجل.

أمْرُ الله وإخبارُه يجب أن يكون حَكَماً على عَقْل الإنسان :

النُّقطة الثانِيَة: كُلّ حقيقةٍ يعْجز عقْلك عن إدْراكِها أخْبرك الله بها رَحْمَةً بك، فالآن إذا أخبرك الله عن شيء يعْجز عقْلك عن إدْراكه وتَرَدَّدْتَ في قبول هذا الشيء يجب أن تُعيد إيمانك بالله تعالى، أمّا إذا جعلْت عقْلك حَكَماً على إخبار الله فقد كَذَّبْتَ الله جلَّ جلاله، ينبغي أن يكون أمْرُ الله وإخبارُه لك حَكَماً على عَقْلك، كما قال بعض العلماء: عَقْلك حِصانٌ تَرْكبه إلى باب السُّلطان، فإذا دَخَلْتَ دَخَلْتَ وحْدك! أقرب مثل: إنسانٌ مريض معه قرْحة، وحريصٌ على سلامة صِحَّتِه حِرْصاً لا حدود له، سأل عن طبيب شهير في أمراض الهَضْم، وسأل عن أحوال الطبيب؛ من تديّن، وإخلاص، وشهادات، إلى أنْ هداهُ عقْله، واسْتِقراؤه، وأسْئلته، وكلام الناس، والتَّحْقيقات، إلى معرفة الطبيب بشكل كامل، فإذا دخل الآن إلى هذا الطبيب ينبغي أن يُعَطِّل عقْله، لماذا؟ لأنَّ عقْله هو الذي أوْصله إلى هذا الطبيب، فإذا قال له هذا الطبيب: اترك هذا الطعام، وقال المريض: لستُ قانِعاً بذلك، فقد أخطأ، فأنت كذلك عقْلك أوْصلك إلى الله، والله تعالى أوْحى إلى نَبِيِّه، فلو أردْتَ أن تُحَكِّم عقْلك في وحي الله تعالى لِنَبِيِّه الكريم فكأنَّك تُكَذِّب الله عز وجل.

على الإنسان ألا يسْمح لِنَفْسه أن يُناقِش قضِيَّة إخباريَّة مع أعداء الدِّين :

أيها الأخوة الكرام، أقول ولا أُبالغ: إنّ أكثر مُشْكلات المسلمين أنَّهم نقلوا قضِيَّة من الإخباريات إلى المَعْقولات.

بادئ ذي بدء: أيّةُ قضيّة تُعْرض عليّ فهذه إنْ كانت مِن المعقولات أُفكِّر بها، وإنْ كانت مِن الإخباريات أُسَلِّم بها، كعالم الجن، والملائكة، والبرزخ، والصِّراط، والجنَّة، والنار، أمّا ذات الله فهذه الموضوعات لا يجوز أن تدخل في إطار البحث العَقْلي، والعقل ينتقل من الأثر إلى المؤثر، ومن الكون إلى المُكوِّن، ومن النِّظام إلى المُنَظِّم، ومن الخلق إلى الخالق، وهذا هو كلّ ما في الأمر.

سُقْتُ هذا الكلام لِهذا الدعاء النبوي الشريف، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا))

[رواه أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ]

ومثال الميزان الذي ذكرته قبل قليل أحبّ أن أُتابعه قليلاً، فأقول: صاحب البقاليَّة عنده سيارة، فهل يزِنُ سيارته بِميزان بقاليَّتِه؟! يسأل الصانع عن وزْن هذه السيارة لأنَّ ميزان البقالية يعْجز عن وزْن السيارة، فالشيء الذي يعْجز عقْلك عن إدْراكه أخْبرك الله به، فأنت كَدَاعِيَة لا ينبغي أن تُسْتَجَرّ إلى مناقشة قضِيَّة إخْباريَّة؛ لأنَّ أعداء الدِّين أين يكْمُن خُبْثهم؟ يقول أحدهم: أخي أثبتْ لي أنَّهُ يوجد جنّ؛ وهم القادِيانِيَّة وأمثالهم، وفِعْلاً لا دليل عقلي على إثبات الجنّ، وإنَّما الدليل إخباري، ونحن عندما آمنَّا بالله خالقاً، ومُسَيِّراً، وموجوداً، وواحداً، وكاملاً، وآمنَّا بكلامه ونَبِيِّه، فالقرآن هو الذي أخبرنا بذلك، فأنت لا تسْمح لِنَفْسك أن تُناقِش قضِيَّة إخباريَّة مع أعداء الدِّين، لأنَّهُ لا يوجد دليل عقْلي، ولا مادِّي، إنما الدليل إخْباري، فهذه النقطة مُهِمَّة جداً جداً في علاقتك مع الآخرين، فحينما تنْقل قضِيَّة إخباريّة نقليَّة سَمْعِيَّة إلى مجال عَقْلاني تُخْفِق، فالإنسان حينما تُسَوِّلُ له نفسه أن يجعل عقله حَكَماً على قضِيَّة إخباريَّة فقد وقع في خطأ كبير، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ*أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ*وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ *تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)

[سورة الفيل: 1-5]

يربِّكم، أنتم جميعاً، هل رأى أحدٌ منكم ما فعله الله بأصحاب الفيل ؟ لا أحد رأى ذلك، فكيف يقول الله عز وجل: ألم ترَ ؟ ألم تُصَدِّق؟ أمَعْقولة هذه! قال علماء التَّفْسير: إخْبار الله بِمِصْداقِيَّتِه كأنَّك تراها، إلهٌ يُخْبِرُك.

عدم استطاعة الإنسان أن يثبت عدالة الله بعقْلِه إلا أن يكون له عِلْمٌ كَعِلْم الله :

ولذلك ننتقل إلى موضوع ثان وهو أنَّ أكثر الخِلافات بين المجموعات الدِّينِيَّة جرت حول إثبات عدالة الله، هناك من يسْلك طريقًا شائكًا، وطويلاً، ومُعَقَّداً، كيف أُثبِتُ عدالة الله؟ فالله تعالى لو يعْلم أنَّ هذا الذي خلقه سيكون مصيره إلى النار فلماذا خلقه؟!! يقول المضطرب: ينبغي ألاّ يعْلم!! فإذا نَفَيْنا عن الله تعالى العِلْم وَقَعْنا في مُشْكلة كبيرة جداً، والله تعالى يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة المجادلة: 7]

فأنت لا تسْتطيع أن تُثبت عدالة الله عز وجل بِعَقْلِك إطْلاقاً إلا أن يكون لك عِلْمٌ كَعِلْم الله تماماً، حينها تُثبِتُ عدالة الله بِعَقْلك، ولكنَّ الله تعالى أخْبرك بمئات الآيات أنَّهُ عادل، أفلا تكْفيك هذه؟! قال تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[سورة لقمان: 16]

وقال تعالى:

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[سورة التوبة: 70]

وهي أعلى آيات التوحيد، كُلّ هذه الآيات ألا تكْفي؟ أنا الذي أعْجَبُ له أنَّ الإنسان يُريدُ أنْ يُثْبتَ كمال الله عز وجل بِأسْلوبٍ لا يُرْضي الله، فالله أخْبرك أنَّهُ لا يظْلمُ أحداً، أما أن تُثبت العدالة بِعَقْلك، فإنّ عقْلك لا يسْتطيع، فالإنسان يرى زلازل، وفيضاناتٍ، وشُعوباً مَقْهورة، وأمراضاً وبيلة ؛ لو كُشفَ الغِطاء لاخْتَرْتم الواقع، يقول الإمام عليّ كَرَّم الله وجْهه: "والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً"، فاليقين قبل كَشْف الغِطاء بعدالة الله كيَقينه بعد كشْف الغِطاء.

العَجْزُ عن إدراك الإدراك إدْراك :

أردتُ من هذا الدَّرْس أنّ أيّة قضيَّة في الدِّين اُنْظر إليها، هل تُصنَّف مع المعْقولات أم مع المَسْموعات؟ المَسْموعات، أو الإخباريات، أو التصديقات، كلُّها بمَعنى واحد، فإياك أن تنقل قضِيَّة من الإخباريات، أو المسْموعات، إلى مجال المعقول فلن تُفلح، ولذلك فأنت تسْتطيع أن تُناقش أيّ إنسان في المعقولات، أما في المسموعات فقُل له: ستعرفها وتفهمها بعد أن تؤمن بالله، وبكماله، وبأسمائه الحُسنى، وبِنَبِيِّه المرسل، فكلّ شيء في الغرفة التي أنت فيها خاضِعٌ للنظر، والتأمّل، والتقييم، ولكن في الغرفة الأخرى التي لا نراها خاضع للإخبار فقط، فالشيء الذي لا تستطيع حواسّك أن تصِلَ إليه فلك سبيل واحد لمعرفته، هو الإخبار، والشيء الذي لا يَقْوى عقّلك على بُلوغه فليس أمامك من سبيل إلا أن تُصَدِّق الله عز وجل، فقولك: لا أدري تجعلك في أعلى درجات العِلم، فَسُؤال مُتَعَلّق بذات الله عز وجل ؛ جوابه: لا أدري، وعَيْنُ العلم بالله عين الجهْل به، وعيْنُ الجهْل بالله عَيْنُ العِلْم به، فلو سُئِلْتَ عن حجم البحْر المتوسِّط، وقلت: لا أدري، فأنت عالم، أما إن أجبْتَ بِعَدد فأنت جاهِل، العَجْزُ عن إدراك الإدراك إدْراك، أكْثِر من كلمة لا أدري، فلذلك الإمام مالك لما جاءهُ وَفْدٌ من الأندلس، ولديهم ثلاثين سؤالاً، فأجاب عن سبْعة عشر، وأما الباقي فقال: لا أدري، فقالوا: الإمام مالك لا يدْري! فقال: قولوا: الإمام مالك لا يدري، فهذا أمر لا يُقلّل من قدْرك بل يرْفعه، فكلمة "لا أدري" كأنَّك تدْري.

على الإنسان أن يدرس العقيدة من الكتاب و السنة :

قدْ تعْجبون ؛ فالنصّ وفق المثن: "ولا شيء يُعْجزه"، فَلِحِرْص المؤلّف الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ على التّقيُّد بكلام الله عز وجل، قال: ليس قوْل الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: "ولا شيء يُعْجزه" مِن النفي المذْموم، فإنَّ الله تعالى يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)

[سورة فاطر: 44]

فحتى العبارات جاءتْ موافقة لِكِتاب الله عز وجل، ومُلَخَّص هذا الكلام له صِفات وله أسْماء، فالأكْمل أن ننفي نَفْياً إجْمالياً، وأن نُثبِتْ إثباتاً تَفْصيلياً، وهو منهج أهْل السنَّة والجماعة، وفي درْس قادِم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله: "ولا إله غيره".

والأكمل أن ندْرس العقيدة من الكتاب والسنَّة، لأنَّ عِلْم الكلام ليس عربياً، ولا إسلامياً، ولأنَّه هَجين، لا يفتقر إلى عِلْم آخر، وهو مُعَقَّد جداً، والدِّين بالأساس بسيط، وعمليَّة تعْقيد الدِّين هي عَمَلِيَّة ليْسَتْ مشْروعة، والدِّين آيةٌ واضِحَة كالشّمْس، وحديثٌ واضِحٌ كالشِّمْس، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ))

[ابن ماجه عن العرباض]

فَجَعْل الدِّين مُصْطلحات، ومُعادلات، وأقْيسَة مُبْهمة، أنا أرى أنّ هذا ليس في صالح المُسلمين اليوم، ومنهج اقْتِباس العقيدة من الكتاب والسنَّة هو الأكمل، وأن تبقى في حدود الأدب النبوي حيث وصف النبي عليه الصلاة والسلام ربَّهُ.

من خرج عن منهج الله عز وجل وقع في الظلم و العدوان و البغي :

هناك نقطة دقيقة، وهي قوله تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأحقاف: 21]

هل تعتقِدون أنَّ العباد لأنَّهم لم يعْبدوا الله تعالى أذاقهم عذاب يومٍ عظيم؟ ألم يقل النبي فيما يرويه عن ربِّه:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عَنْ أبي ذرٍّ]

فلماذا هذا العذاب العظيم لمَن لم يعْبد الله ؟ سؤال مهمّ، الجواب هناك منهج واحد فيه الإنصاف، والإحكام، والعدالة، وهو منهج الله، فإذا خرجْتَ عنه من العدْل إلى الظلم، ومن الرَّحمة إلى الجَوْر، ومن المصْلحة إلى المفْسدة، إذاً فلا بدّ أن تقع في الظُّلم، والعُدْوان، والبغْي، والتجاوز، والعُدْوان يسْتحقّ العذاب، وهذا يُقابله قوله تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

ما علاقة الشكْر بالعبادة، لأنَّك إن عبَدْت الله عز وجل أكْرَمَك الله بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، فما عليك إلا أن تشْكر.

عَدَم الإيمان بالله يحمل الإنسان على الظلم و الجور :

قال تعالى:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)

[سورة الحاقة: 30-31]

يربِّكم هذا الإله الرحيم العدْل إذا لم يُؤْمن به العبدُ فهل يسْتحِق هذا العذاب الأليم؟ الجواب: نعم، لأنَّهُ لم يؤْمن بالله العظيم، وأصْبح مُجْرماً، وظالماً، وباغِياً، فعَدَم الإيمان بالله لابدّ أن يحْملك على هذا، والعالم أمامكم، فإذا كان مِن الممكن أن يسْعد الإنسان من دون الدِّين فهذا الدِّين باطل! لن تعْدِل، ولن تُنْصف، ولن ترْحم، من دون دين الله، فالشريعة رحْمة ومصْلحة، وأيَّةُ قضيَّة خرجَتْ من العدْل إلى الجَوْر، ومن المصْلحة إلى المَفْسَدة، ومن الرحْمة إلى القَسْوة، فهي ليْسَت من الشريعة الإسلاميَّة ولو أُدْخِلَت عليها بألف تأويل وتأويل، هناك قوْل لأحد العلماء، فَبِحُكم عملي في مَجَلَّة نهْج الإسلام أُراقب المقالات كلّها، فجاءَتني مقالة لِعَميد كليَّة الشريعة السابق الشيخ الدُّرَيْني، وهو عالم كبير، ومن المُجَدِّدين للدِّين، وله قوْل: **"إنَّ الله ليَنْصرُ الدَّوْلة الكافرة العادلة على الدَّوْلة المُسْلِمة الظالمة!"** وهو قوْل نادِر، وفي المقالة ثلاثون صفْحة تُناقض ما قال، إذْ يسْتحيل على الدولة الكافرة أن تكون عادِلة، كما يسْتحيل على الدَّولة المسلمة أن تكون ظالمة! فالكافرة عادِلة مع شَعْبها، وشَعْبها يحيا على حِساب الشعوب والأمم الأخرى.

سبحان الله التصوّف كان في الصحابة مُسَمًّى بلا اسم، وقد أصبح فيما بعد اسماً بلا مُسَمَّى، فهُمْ في أعلى الدرجات إلى الله شَوْقاً، والعبادة بلا اسم، والآن صارت اسماً من دون مَضْمون.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع التوحيد أهمّ موضوع على الإطلاق في العقيدة :

أيها الأخوة المؤمنون، لا شكَّ أنَّ أهمّ موضوع على الإطلاق في العقيدة هو موضوع التوحيد، إلا أنَّهُ مما يَلْفتُ النَّظر أنَّ كلّ دَعْوةٍ إلى الله عز وجل ربما رَكَّزَتْ على بعض القضايا أكثر من تركيزها على بعض القضايا الأخرى، وكلكم يعْلم أنَّ قضيَّة التوحيد في مسْجدنا والحمد لله تُسلَّط عليها الأضواء بِشَكْلٍ مُسْتَمِرّ، ففي دروس التفسير، وفي دروس الحديث الشَّريف، وفي دروس السيرة، كما رأيْتم، وتعلمون أنّ التَّركيز على التوحيد دائمٌ، فمع أنَّ هذا الموضوع من أخطر موضوعات الكتاب، فمهما فَصّلْتُ فيه، فلن أضيفَ على ثقافتكم في هذا الموضوع شيئاً جديداً، لكنَّهُ من الثابت أنَّ العقيدة الطحاويَّة تُفَرِّق بين مُصْطَلَحَيْن؛ مُصْطلح توحيد الربوبيَّة، ومصْطلح توحيد الألوهِيَّة، فتَوْحيد الربوبيَّة بِشَكْلٍ مُختصر يُفيد أنَّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، وهذا التوحيد يتوافق مع الفطْرة، وليس موْضِع نِزاعٍ عند عامَّة الناس، وذلك لأنَّه لا أحد ادَّعى أنَّهُ هو الذي خلق الكَوْن، والإنسان بِنَظْرةٍ بسيطة في هذا الكون يشْعر بأنَّ له خالقًا، لكنْ أين الخلاف وأين المُشْكلة ؟! الخِلاف ليس في توحيد الربوبيَّة، ولكن في توْحيد الألوهيَّة، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

[سورة الزخرف : 87]

حتى عُباد الأوْثان يدَّعون أنَّهم يعْبدون الأوْثان لِيَتَقَرَّبوا بها إلى الله زُلْفى، فهذا الكلام تَحَدَّثنا عنه في الدرْس الماضي، وعن طريق دليل التمانع أثْبتَ لكم أنَّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، ووعَدْتكم في هذا الدَّرْس إلى أن أنتقل إلى توحيد الألوهِيَّة .

الإنسان بدَافِعِ فِطْرته يُقبل على ما يَنْفعه ويبتعد عما يُؤْذيه :

أوَّلاً نقرأ، ونشْرح، فلا ريْبَ أنَّ الإنسان قد يُحَصِّل اعْتِقادات؛ منها ما هو صحيح، ومنها ما هو خطأ وباطل، فَبِذِهْن كُلّ إنسان تَصَوّرات، فمنها ما هو مُطابق للواقع، إذاً فهي حقّ، ومنها غير مُطابقة للواقع، فهي باطلة، فالحقّ هو الشيء الثابت، والباطل هو الشيء الزائل، فكُلّ شيء ليس له أساس واقِعي فهو باطل، وكلّ شيء مُسْتَنِد للواقع فهو حقّ، لكِنَّه لا بدّ في تَرْجيح تلك المقولات والتَّصورّات

من مِقياس، ونحن دائِماً نقول : أنت أمام آلاف المقولات في الإسلام، فأنت كَطالب عِلم وكَدَاعِيَة إلى الله أهم شيء في عِلْمك أن تملك المِقياس! وقد بَيَّنْتُ لكم سابِقاً أنَّك لو وُضِعْتَ أمام عشرات القطع من الأقمِشة، ولِكُل قطعة قماش قياس أُلْصِق عليها، مَكْتوب قياس كذا وكذا، فأنت كيف تَتَحَقَّق من هذه المِقياسات؟ لا بدّ لك من أداة قياس، كذلك لو وقفتَ أمام عشرات المقولات بل مئاتها كيف تتأكّد من صِحَّتها؟ لابدّ من مُرَجِّح.

التَّفْهيم لا التَّلْقين والإقناع لا القمْع من مبادئ الدعوة إلى الله :

الانسان يقبل على ما ينفعه ويريحه

أذكر أنَّني ذَكَرْتُ لكم قبل أيام فِكْرة مُهمّة جداً، وهي أنَّ الإنسان بِحُكم فطْرته يُحِبّ ذاته، ووُجوده، واسْتِمرار وُجوده، وكمال وُجوده، وسلامة وُجوده، فإذا تَيَقَّن المرءُ أنَّ الإيمان بالله تعالى ينْفعه، وأنَّ الكُفْر بالله يضرّه، آمن بِدَافِعٍ من فطْرته، فهي التي تَدْعوه إلى الإيمان بالله، إلا أنّه بَقِيَ على الداعِيَة أن يُقْنِعَ الإنسان أنَّ الإيمان ينْفعه في الدنيا والآخرة، وأنَّ الإعراض عن الله تعالى يضرّه في الدنيا والآخرة، فلذلك لو أنَّ الإنسان خُيِّر بين أنْ يُصَدِّق وينْتفِع، وبين أن يُكَذِّب ويتَضَرَّر، مال بِفِطْرته إلى التَّصْديق كي ينتفع، فالمهم ليس حمْل النفْس على طاعة الله، إنما في إقْناعِها بِمَدى الفائِدَة من طاعة الله، فإذا اقْتَنَعت أصبح التَّطْبيق سَهْلاً، وهذا الكلام يقود إلى فِكْرة، فقد سُئِلْتُ مَرَّة ما الذي يُقوِّي الإرادة؟ وهو سُؤال وَجيهٌ جداً، فهناك من يعْصي الله تعالى، وهو لا يعْرِفُه، فالمُقدِّمات متناسبة مع النتائِج؛ لا يعْرِفه ويعْصيه، وهناك من يعْرِفُه، ويُطيعُه، فهاتان الحالتان طبيعِيَّتان، لأنَّهما متناسبتان بين المقدِّمات والنتائِج، أما الذي يُقْلِق فهو من يعْرِف أنَّ هذا حرام، وهذا حلال، وأنَّ خالق الكون أمر بهذا ونهى عن هذا، ثم هو لا يُطيع، فهذه الحالة تُفَسَّر بِضَعْف الإرادة! لذلك بِبَساطة بالغة: بالعِلْم تُقوِّي الإرادة، ومثلاً الذي يُغْرم بِتَناول الطعام المالح، فهذا له عادة أصيلة في هذه الأسرة، مما يؤدي إلى ارتفاع ضَغْطه، فهل المُشْكلة أن نقْمعه عن تناول المِلح أم أن نُقْنِعَهُ ؟ القمْع لا يُجْدي، لأنَّهُ عادة مُتَأَصِّلة في تناول الطعام المالح، لكن الطبيب الحاذق الماهر الذي يُوَضِّح بالأدِلَّة الدقيقة كيف أنَّ المِلح يحْبِسُ السوائل، وكيف أن السوائل تمتلئ بها الأوْعِيَة، وكيف أنَّ القلب يجْهَد، فإذا أيْقن المريض

بالضغْط أنَّ المِلح يُؤْذيه، فَتَرْكُ المِلح حينئذٍ سَهْل جداً، لذا فالإنسان بدافِع فِطْرته يُقْبلُ على ما ينْفعه، وبدافِع فِطْرته يبْتعِدُ عمَّا يضرّه، بَقِيَت مُهمَّةُ الداعِيَة في دَعْوَتِه أن يُقْنِع لا أن يقْمع، فهناك من يتمنى أن يدْعوَ إلى الله، يأتي بصَديقه إلى الدرْس، فهذا الجرّ لا ينفع، فهو يَحْضُر معك مرَّةً واحدة مُجاملَةً لك، فالأوْلى لا أن تجُرَّه، بل أن تُقْنِعَهُ! لذلك من مبادئ الدَّعوة إلى الله تعالى التَّفْهيم لا التَّلْقين، والإقناع لا القَمْع، فالفِكْرة الأولى اليوم أنّ الإنسان بِدَافِع فِطْرته يُقبل على ما ينْفعه، ويبتعد عما يُؤْذيه، فإذا علِم أنَّ الإيمان ينْفعه وأن الكفْر يضرّه أقبل على الإيمان وابْتَعَد عن الكفْر.

الإنسان ليس مفْطوراً على معرفة ما ينفعه ولكنه مَفْطور على حبٍّ ما ينْفعه :

هناك فِكْرة ثانِيَة، وهي أنَّ الإنسان مَفْطور كما قلتُ قبل قليل على جلْب المنافع، ودَفْع المضار بِحِسِّه، إلا أنَّه لا بدّ من شيءٍ خارجي يُبَيِّن له، فلو كان مَفْطوراً على حُبِّ ما ينْفعه فهل هو مَفْطور على معْرِفة ما ينْفعه ؟! مِن هنا كان التَّعْليم لا بدّ منه، وإلا أصبْح التَّعْليم لا فائِدَة منه إطْلاقاً، والإنسان أوْدَعَ الله فيه قدْرة التَّعَلّم، فلو أنَّك قرأت الكتاب الفلاني على الطاولة، فهذه الطاولة بعد أن قرأت الكتاب كلَّه، وسألْتها؛ هل تفْهم ما فَعَلْتَ وما قرأت؟!! فحينما خلق الله الخشب لم يُوْدِع فيه القوَّة الإدراكيَّة، فالقَضِيَّة أنَّه ما دام الله تعالى أوْدَع في الإنسان هذه القوَّة سألَه أن يتعلَّم، لذا الجمادات لا تُدْرك، والمادَّة ليْسَت عاقِلَة، فالله تعالى ما أوْدع في الإنسان هذه القدْرة إلا وأراد منه أن يتعلَّم، فالله تعالى كما يقول بعض العلماء: ما أمرنا بالدعاء إلا لِيَسْتجيب لنا، وما أمَرَنا بالاسْتغفار إلا لِيَغْفِرَ لنا، وما أمرنا بالتوبة إلا لِيَتوب علينا، وقِياساً على هذه الحقائق فما أوْدع فينا قوَّة التعَلّم إلا من أجل أن نتعلَّم، لذا فالإنسان ليس مفْطوراً على معرفة ما ينفعه، ولكنه مَفْطور على حبٍّ ما ينْفعه، يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإنَّ النفوس قد جُبِلَت على حُبّ من أحْسن إليها، وبُغض من أساء إليها .

توحيد الألوهية و توحيد الربوبية :

كما تعلمون في الدرْس السابق أنَّه ليس هناك شكّ في أنَّ الإنسان مُسَلِّمٌ بالطَّبْع بأنَّ له خالقاً واحِداً، إلا أنَّ التعامل اليوم أنَّ الله عز وجل أوْدع في الأشْياء قوَّة، ففي النار قوّة الإحراق فيما يبْدو، إلا أنَّ الحقيقة التي تعلمونها من دروس جَوْهرة التَّوحيد أنَّ الأشياء تفْعل الفِعْل بإرادة الله لا بذاتِها، فإيداع الله للنار قوَّةَ الإحراق منوط بِمَشيئة الله تعالى، لذلك قال علماء التوحيد اخْتِصاراً عندها لا بها؛ عند مشيئة الله، لا بذات الأشياء التي تفعَلُ فِعْلها، لذا توحيد الألوهيَّة غير توحيد الربوبيَّة، فالله تعالى خلق الكون، وانتهى الخَلق إلا أنَّه بقِيَ التَسْيير والحركة على وَجْه الأرض، فالإنسان أمامه قِوى ومُغْريات، والله تعالى خلق

القويّ والضعيف، والفقير والغنيّ، والغبيَّ والذكيّ، فهذه الحُظوظ المُتفاوتَة، وهذه القوى المتفاوتة، كيف يتعامل معها الإنسان؟ فإذا ظَنَّ أنَّها فاعِلَةٌ بِذاتها فقد وقع في الشِّرْك، وتوحيد الربوبيَّة يعْني أنّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، لكنّ توحيد الألوهِيَّة يعْني أنَّ الله تعالى الذي خلق، وهو ربّ العالمين، وهو الذي يتصرَّف، ولو أنَّكم قرأتم آيات التوحيد، وأنا أذْكرها كثيراً، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة هود: 123]

يقول علماء التوحيد: لا إله إلا الله، تعني لا مَعبود بحَقٍّ إلا الله ؛ فمن هو الذي ينبغي أن تعبده؟ أوَّلاً: هو الخالق، وثانياً: هو الربّ، وثالثاً: هو المُمِدّ، ورابعاً: الذي يُحْيي ويُميتُ ويرْزق ويرفع ويخْفض ويعطي ويمنع، فهذا الذي بيَدِهِ كُلّ شيء هو الذي ينبغي أن تعْبده.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يعبده إلا بعد أن طمأنه :

توحيد الألوهِيَّة يختلف عن توحيد الربوبيَّة، ولو ذَهَبْت إلى بلاد الغرْب لرأيْتَ أنَّ هناك عقيدَةً هي سبب هلاكِهِم؛ هم يعْتَقِدون أنَّ الله جلّ جلاله خلاقٌ وليس فعالٌ، كأنَّ المعنى خلق الله الخلق وقال: انْتهتْ مُهمَّتي، وبَقِي أنّ لكم أنْ تفعلوا ما تشاؤون، وهو ما يُعَبَّر بألوهِيَّة الإنسان، لكنَّنا كَمُؤمنين عقيدتنا الإسلامِيَّة النابعة من كتاب الله عز وجل وسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تُؤكّد أنّ الله خلاّق، وفعال، وأقرب آيةٍ لهذه الفكرة قوله تعالى :

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: 54]

وقوله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمْأنك قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف: 84]

وقال تعالى :

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: 26]

وقال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

هذه الآيات ومثيلاتها تؤكّد أنَّ الله تعالى إلهٌ واحِد، وهو ربّ واحد، فهو المُسَيِّر.

الشرك نوعان؛ شرك خفي و شرك جلي :

قال تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة النمل: 59]

دَقّقوا، أمَّن خلق؟ فهو الذي خلَقَ لا غيرُه، ثمّ أإلهٌ مع الله؟ لا إله معه، فالله هو الخالق، والذي يفعل ما يريد، ويرزق، ويمنع، ويُحْيي، ويُميت، ويعزّ، ويذِلّ، وهو ربّ العالمين، ولا تنْسَوا أنَّ هذا الاسْتفهام هو اسْتفهام إنكاري، قال تعالى:

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

[سورة الأنعام: 19]


الشرك الجلي

وكما أقول دائماً في الدروس العامّة وفي دروس التَّفْسير : هناك شِرْك جليّ، وهناك شِرْك خفيّ، فالأوّل كأن تقول : أعبد بوذاً، واللات، والعزَّى، إلا أنَّ الشِّرْك الخفيّ أنْ تتَوَهَّم أنَّ جِهَةً ما أرْضِيَة، أو غير أرْضِيَة، لها التَصرّف في الكون، لذلك فعَنْ أبي عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَزْنٍ وَقَيْسُ بْنُ المُضَارِبِ فَقَالَا: وَاللَّهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ، قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فقالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ))

[أحمد عَنْ أبي عَلِيٍّ]

وهذا هو الذي قاله الله عز وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: 106]

ونعوذ بالله من الشِّرْك الخفيّ، ومن الشِّرْك الجَلِيّ.

لِلكون خالقٌ واحد و مُسَيِّر واحِدٌ هو الله :

الآن، مَن الإله الذي ينبغي أن يُعْبد؟ دَقِّقوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 21]

لِهذا الكون خالقٌ واحد هو الله، ولِهذا الكون مُسَيِّر واحِدٌ هو الله، فالله هو الخالق، وهو المُسَيِّر، هو الخالق الربّ، وهو المُسَيِّر الحكيم.

من رحْمَةِ الله بالإنسان أنَّه جعل الحقائِق الأساسيّة في الدِّين عليها أكثر من دليل :

النقطة التي بعدها في هذا الموضوع، هو أنَّ الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بِخَلْقِه جَعَل للحقائِق التي يحْتاجُها عِباده أدِلَّة كثيرة؛ قد تحْتاج إلى حقيقة لكِنَّها نادرة، وعليها دليل نادِر، إلا أنّك لو احْتَجْتَ إلى حقيقة أساسيّة في سعادتك، فالحقائِق الأساسِيَّة أكْثَر الله تعالى عليها الأدِلّة، لذلك ما أرْوَعَ قوْل الشاعر:

وفي كُلِّ شيءٍ له آية   تدلّ على أنَّه واحِدُ

***

سألني اليوم أخٌ كريم، كيف أتَعَرَّفُ إلى الله؟ فقلتُ: الكون أوْسَعُ باب تدْخل منه إلى الله، وهو أقْصر طريقٍ تسْلكه إلى الله، فالكون آياته الكَوْنِيَّة، والقرآن آياته القرآنيَّة، والأفعال آياته التَّكْوينِيَّة، فَمِن هذه الثلاث تَصِل إلى الله عز وجل، وهذا من رحْمَةِ الله تعالى أنَّ الحقائِق الأساسيّة في الدِّين عليها أكثر من دليل.

الآية التالية آية أساسِيَّة في موضوع توحيد الألوهِيَّة :

نقفُ عند آيةٍ دقيقةٍ في هذا الموضوع، لماذا اخْتَرْتُ هذا الكتاب في الأساس؟ لِعَلَّة كبيرة جداً؛ وهي أنَّ عِلْم العقيدة ينبغي أن يُؤْخذ من الكتاب والسنَّة، وهذا هو الوَضْعُ الطبيعي والوَضْعُ الصِحِّي، عقيدتنا نأخذها من كتاب ربِّنا، لذلك لا تسْتغْربوا، ولا تعْجبوا أن يكون مِحْور الدَّرْس كلّه آيات التوحيد، يقول الله عز وجل:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

هذه الآية أساسِيَّة في موضوع توحيد الألوهِيَّة، لذلك أقرأ لكم شَرْحها وأُعَلِّق عليه، قال المؤلف: هذا برهان باهِر على توحيد الألوهِيَّة، الإله الحق لا بدّ من أن يكون خالقاً فعالاً، يُوصِلَ عابدَه للنَّفْع، فهو الذي خلق وهو الذي يتصرَّف، يُعْطيك الخير ويصْرف عنك الشرّ، وهو الذي ينبغي أن تعْبده، وعَمَلِياً فالناس يعْبدون الذي يتَوَهَّمون أنه ينفعهم، ويصْرف عنهم الشرّ، فإذا اعْتَقدوا أنَّ الله وحده هو الذي ينفع ويضرّ كانوا مِمَّن وحدُّوه، وإن اعْتقدوا أنَّ جِهَةً أخرى هي التي تنفعهم فقد أشْركوا .

الآن أقول افْتِراضاً: لو كان مع الله تعالى إلهٌ آخر يُشْرِكُهُ في مُلْكِه لكان له خلْقٌ وفعْل وأمْر، فمِن أين جئْتُ بهذا الكلام؟ من قوله تعالى:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

وحينها لا يرضى تِلك الشَّرِكة، وإن قدرَ على قهْر ذلك الشَّريك، وتفرَّد بالمُلْك لَفَعَل! حينما كانت إسبانيا تابِعَة للمُسْلمين كانت مملكة واحدة، فلما أصْبَحَت ممالك، فلو أنَّ واحداً من هؤلاء المُلوك قدَر على أن يُسَيْطر على الجميع لَفَعَل، ولما لم يقْدر فإنه يسْتَقِلّ بمُلْكِه، حتى صارت الأندلس ملوكاً و طوائف، يقول الإمام الطحاوي: ما الذي يحْصل لو أنَّ في الكون آلِهَةً أخرى؟ قال: إما أن يذْهب كُلّ إلهٍ بما خلق، وإما أن يعْلوَ بعضهم على بعْض كما قال الله عز وجل، وإما أنْ يُقْهَروا جميعاً، والله عز وجل هو الذي قهَرَهم، فهم كُلهم مُزَيَّفون! فهذا دليل آخر من كتاب الله على أنَّ لهذا الكون إلهاً واحداً، ففي الدرْس الماضي عرفنا أنَّ لهذا الكون خالقاً واحداً، أما في هذا الدرْس فعرفنا أنّ للكون خالقاً واحِداً، وإلهاً واحِداً، هو الله تعالى، فهو الخالق الإله، قال : إما أن يذْهب كُلّ إلهٍ بما خلق، وإما أن يعْلوَ بعضهم على بعْض، وإما أن يكونوا تحت قهْر إلهٍ واحِد، يتصرَّف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرَّفون فيه، بل يكونون مَرْبوبين، وعبيداً مَقْهورين من كلّ وجْه .

انتظام العالم وإحكام أمْره من الأدلةِ القاطعة أنَّ إلهه واحد وله ربٌّ واحد :

ما الذي يُؤكِّد أنّ لهذا الكون إلهاً واحِداً؟ أما قال الله عز وجل :

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]



لو كان للكون آلهة مُتَعَدِّدَة لكان لكلّ إله نِظامه، ودينه، وأنبياؤه، ولرأيْتَ التَعَدُّد، أو لرأيْت الصِّراع، فإن لم ترَ هذين، بقِيَ أن نقول: إنَّ لِهذا الكون إلهاً واحِداً، لذلك يقول صاحب العقيدة الطحاوِيَّة: وانتِظام أمر العالم كلِّه، وإحْكام أمْره، وتدْبير أمْره، من أدَلّ الأدلة على أنَّ مُدَبِّرَهُ واحد، فأنت أحْياناً تدْخل إلى مُسْتَشْفى، أو إلى مدْرسة، أو مُؤسَّسة، تشْعر بالفِطْرة أنّ مُسَيِّراً واحِدا هو المُخَطِّط،وأمْره نافذ في كل هذه المؤسَّسة؛ دوام منتظم، والأعمال والمحاسبات دقيقة، وكلٌّ يجرب بانتظامٍ، فالمؤسَّسة تدلُّك على أنَّ مديراً واحِداً بِيَدِهِ كُلّ شيء، لكن لو تنازعوا السلطة لكانت هناك حرب أهْلِيَّة، قتْلٌ وضحايا، وعدم اسْتِقرار، لذلك انتظام العالَم، وإحكام أمْره من الأدلةِ القاطعة أنَّ إلهه واحد، وله ربٌّ واحد، ولا إله للخلْق غيره، ولا إله لهم سِواه. كما أنّ دليل التمانع اسْتخدمْناه في توحيد الربوبيَّة، فلنسْتخدم الآن كذلك دليل التمانع أيْضاً في توحيد الألوهِيَّة، وهذه الآية إعْتَبرْها أساسِيَّة:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

قال أحد العارفين بالله تعالى: والله لو تشابهت ورقتا زيْتون لما سُمِّيتَ الواسِع. الخَلْق مُتَنَوِّع، إلا أنَّ هناك وَحْدة، الذي يلفت نظري أنّ معمل أدْوية في بريطانيا مثلاً، ويتناول هذه الحبوب إنسان بأسْتراليا، أو في أيِّ مكان من العالم فَيَسْكُنُ ألَمُه، على أيّ شيء اعْتَمَدنا؟ أليس هناك بُنْية واحدة للبشر؟ لولا أنَّ هؤلاء الناس جميعاً مُصَمَّمون تَصْميماً واحِداً في أعْصابهم لما نفع الدواء، فالطبيب مثلاً يقْرأ علمه على جثَّة واحدة للإنسان، وكل طبيب في العالم يدْرس الأبعاد نفْسها، التصاميم وبُنْية الأبعاد نفسها، هذا دليل

على عدم التَّعدد في الخَلْق، بل هناك وَحْدة وانْتِظام، والعالم كلّه تجْري به سنن واحدة، فانتظام العالم، وإحكامِهِ دليلٌ على أنَّ له إلهاً واحداً .

العالم يفْسد بتَعدُّد الآلهة ولا يصلُح إلا أن يكون له إله واحد هو الذي خلق هذا الكون :

آية ثانِيَة لا تقلّ عن الأولى أهَمِيَّة، وهي قوله تعالى:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

و(إلا) هنا خرجَتْ عن معناها الذي تعرفونه، فهي ليْسَت أداة اسْتِثناء، لو كانت للاسْتِثناء لفَسَدَ المعْنى؛ ولكان المراد : لو كان فيهما آلهة ليس الله معهم، أما المعنى هنا في هذه الآية: لو كان فيهما آلهة غير الله لفَسَدَتا، فالفساد شيء، وعدم الخلْق شيء آخر، فتوحيد الربوبيَّة يعني استحالة وجود خالِقِين لهذا الكون، لكن توحيد الألوهِيَّة: أن لو كان لهذا العالم خالق واحِدٌ، وله آلهة أخرى لفسدتا! فالفساد بعد الوُجود، وهذا الوُجود لا يُعْقل إلا أنْ يكون له إلهٌ واحِد، لكن بعد الوُجود لو أنَّ له آلهة مُتَعَدِّدة لفَسَدَ الكوْن، لم يقل لن يوجَدا، إنَّما قال: لفَسَدتا، لو كان المقصود توحيد الربوبيَّة لقال لم يوجَدا، لكنه قال: لفسدتا، ودرسْنا بالتمانع إرادَتَيْن مُتناقِضَتَيْن، إذاً لا يجوز أن يكون في الكون آلهة مُتَعَدِّدة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وينبغي أن نعتَقِد أنَّ الآية الثانِيَة تُكَمِّل الأولى في هذا المعنى، فهناك فكرتان: يجب أن يكون هناك إلهٌ واحد، ويجب أن يكون هذا الإله الواحد هو الذي خلق، وهو معنى قول الله عز وجل:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: 91]

ويُسْتفاد من هذه الآية معلومتان دقيقتان: العالم يفْسد بتَعَدُّد الآلهة، ولا يصْلح إلا أن يكون له إله واحد، هو الذي خلق هذا الكون.

توحيد الألوهيَّة مُتَضَمِّن توحيد الربوبيَّة و ليس العكس :

أمّا الفكرة التالية، أنّ توحيد الألوهيَّة مُتَضَمِّن توحيد الربوبيَّة، وليس العكْس، بِمَعنى أنَّ الإنسان لو اعْتَقَد أنَّ لهذا الكون إلهاً واحداً، فَمِن لوازم الألوهِيَّة أنَّه هو الذي خلق، وله خالق واحدٌ هو الله عز وجل، فإذا اعْتَقَدْتَ بِتَوْحيد الألوهِيَّة اعْتَقَدْتَ بِتَوحيد الربوبيَّة ضِمْناً، فلو أنَّك اعْتَقَدْتَ أنَّ لِهذا الكون خالِقاً واحداً ربَّما اعْتقدْت أنَّ زَيْداً أو عُبَيْداً بِيَدهما الأمْر، لذلك كما قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: 24]

ظنّ أهلها أنَّهم قادِرون عليها فأشْركوا، سَمِعْتُ أنَّ الاتِّحاد السوفيتي كان يمْلِك من القنابل الذريَّة ما يُدَمِّر العالم خمْس مرَّات، ومع ذلك تداعى كَخيوط العَنْكبوت! فهذا من آيات الله الدالة على عظَمَتِه.

من اتجه لغير الله فقد أشرك و الشرك من أكبر أنواع الظُّلم للنَّفْس :

ننتقل إلى موضوع آخر ولا زلنا في موضوع الألوهِيَّة، وهو أنَّ توحيد الألوهِيَّة هو توحيد الحقيقة، وتوحيد الحقيقة يوجب عليك أن تعتقِد أنَّ لِهذا الكون إلهاً واحِداً، وينبغي أن تتَّجِهَ إليه وحْده، ويعني أن تعْتقِد أنَّ لهذا الكون إلهاً واحِداً ومُسَيِّراً واحِداً، فَيَجِبُ أن تتَّجِهَ إليه وحْده، وتعتقد وحْدانِيَّته في الألوهِيَّة، وأن تتَّجِهَ إليه وحده في العبوديَّة، فَكَلِمَة (إله) تعني شيْئين: تعني المُسَيِّر الذي بيَدِهِ الأمْر، والمعبود معاً، فالذي بيَدِهِ الأمْر حقيقة، والمعبود، طلب منكَ أن تعرف هذه الحقيقة، وأن تتَّجِه إليه، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[سورة فصلت: 6]

فإذا اتَّجَهْت لغيره فقد أشْرَكْتَ، والشِّرْك من أكبر أنواع الظُّلم للنَّفْس، ذكَرْتُ لكم من قبل مثل؛ أنَّه لو أراد شخصٌ أن يركب قِطاراً إلى حلب، وله في هذه المدينة مَبْلَغٌ كبير جداً، ذهَبَ لِيَأخذه بالكمال والتَّمام لِمُجَرَّد الوُصول إلى هذه المدينة، لكنه قد يركب في قِطار حلب ويقع في أخْطاء كثيرة، كلَّ هذه الأخطاء تُغْفَر، قد يجْلس في مَرْكبة من الدرجة الثالثة مع أنّ بطاقته من الدرجة الأولى، وقد يتلوى جوعاً، ولا يعْلم أنَّ في القِطار مَرْكبة تُعْطي الطعام، فيُمْضي الوقت كلَّه وهو جائِع، قد يخْتار مرْكبة فيها شباب يُقْلِقون راحته، وقد يختار مرْكبة مقعدها عكْس اتجاه القطار، فهذه كلّها أخطاء، إلا أنَّهُ في النِّهاية يَصِل إلى مكانه المَقْصود، ويأخذ مبْلغه الكبير، لكن هناك خطأٌ لا يُغْتَفَر، وهو أن يركب قِطاراً متجهاً إلى مدينة درْعا، ظنَّاً منه أنَّه متوَجَّه إلى حلب، فهذا خطأ لا يُغْتفر، فالخطأ الكبير أن تتَّجِه إلى لا شيء، وهذا هو الشِّرْك، أن تتَّجِه لِغَيْر الله تعالى، وأن تعقِد الأمَل على غير الله تعالى، وأن ترْجُوَ غير الله، وأن تسْترزق غير الله، وأن تطلب الرحْمة من غيره، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: 116]

القرآن الكريم بكُلّ سورهِ وآياته لا يزيد على أن يكون خبراً وطلباً :

قد يقول أحدكم: لمَ لا يغْفر الله عز وجل؟ فهذا تحْصيل حاصِلٍ، فإذا توجَّه الإنسان لِغَيْر الله، ولم يؤمن بالله، ولم يعْتقد أنَّه هو الفعال، فكيف يُرْزق؟ فهذا قد ارْتَكب خطأً مصيريًّا، وهذه آيةٌ قرآنيَّة تلْفتُ النَّظر، قال تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأنعام: 115]

حار العلماء في تفْسير هذه الآية ! فيها كلمتان؛ هما صدقًا وعدلاً، فالخبر صادق، والأمر عادلٌ، قال بعضهم: القرآن الكريم بكُلّ سورهِ وآياته لا يزيد على أن يكون كلمتين: خبر وطلب، فهو تعالى أخبرك أنَّهُ إلهٌ واحد، وأمَرَك أن تعبدهُ، قال تعالى:

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[سورة المؤمنون: 32]

خمسةُ أنبياء قالوا هذا الكلام، خبره صادق وأمْره عادِل، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأنعام: 115]

لذلك غالب سور القرآن الكريم مُتَضَمِّنَة لِنَوْعَي التَّوْحيد، فالقرآن إما خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وهو التوحيد العِلمي، وإما دعْوةٌ إلى عبادته وحْده لا شريك له، وخَلْعُ ما يُعْبد من دونه، وهو توحيدٌ عَمَلي، فأنت بين توحيدين : عِلمي أو عَمَلي، وهذا هو الدِّين كلُّه، فلو أردْتَ أن تضْغط الدِّين لما وجَدْتَهُ يزيد عن هذين التوْحيدين، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

إن شاء الله ننتقل في درْس آخر إلى متابعة هذا الموضوع في توحيد الألوهيَّة، يتم لنا إنجاز فقرات هذا الكتاب، وأرْجو الله سبحانه وتعالى التوفيق لنا ولكم جميعاً.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (03-20) : القرآن كله توحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-02-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد مرْحلتان؛ مرحلة في الإثبات والمعرفة والثانية توحيد في الطلب والقصْد :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في موضوع التوحيد؛ توحيد الألوهِيَّة، وبعد أن تحَدَّثنا في دروس سابقة عن توحيد الربوبيَّة، وقد اتَّضَح لكم أنَّ توحيد الربوبيَّة ليس مُشكلةً على مُسْتوى الناس جميعاً، لأنَّه ما من واحِدٍ حتى لو كان يعْبَدَ صَنَماً إلاّ ويقول: لا نعْبدهم إلا لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف: 123]

فَنَحن في توحيد الألوهِيَّة نُعاني من الشِّرْك الخفيّ، حينما تشْعر أنَّ جِهَةً بِإمْكانها أن تنْفعك أو تضرَّك فقد وَقَعْتَ في الشِّرْك الخفي، وفي شِرْك الألوهِيَّة.

ثم إن توحيد الألوهِيَّة يقْتضي شيئين: الشيء الأول أن تُوَحِدَّ الله سبحانه وتعالى مَعْرِفَةً وإثباتاً، وأن تُوَحِّدَهُ طَلَباً وقصْداً، فأنت أمام مرْحَلَتَيْن هما: مرحلة المعرفة، ومرْحلة التَّوَجّه، فلو أنَّ الإنسان اكْتفى بالمعرفة لما اسْتفاد شيئاً من علمه، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[سورة فصلت: 6]

أكبر مُنْزَلَق لِطالب العِلْم أن يتَوَهَّم أنّ العِلْم مَقْصودٌ بذاته، لكنَّ الحقيقة أنّ العِلْم مقْصودٌ لغيره، فهو وسيلة، وليس غاية، لو وَحَّدْتَ الخالق، ولم تُوَحِّد الوجْهة إليه، ونِيَّتَك له، فما وَحَّدْته، لذلك التوحيد مرْحلتان: مرحلة في الإثبات والمعرفة، والثانية توحيد في الطلب والقصْد.

الآيات التي دَعَت إلى التوحيد في القرآن الكريم :

مؤلّف الكتاب يقول: نوع التوحيد في المعْرفة ظهر في أوَّل سورة الحديد، وفي أوَّل سورة طه، وآخر سورة الحشْر، وأوَّل السَّجدة، وفي أوَّل آل عمران، وفي سورة الإخلاص، فَنَرْجو منكم أن تعودوا إلى هذه السُّوَر كما جاء في مثن هذا الكتاب، وأن تكْتَشِفوا هذه الآيات التي دَعَت إلى التوحيد في الإثبات والمعْرفة، قال تعالى:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: 14]

والثاني التوحيد في الطلب والقصْد، وقد أتى على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى :

(قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

[سورة الكافرون: 1-2]

وقوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران: 64]

القرآن الكريم كلّهُ توحيد :

النقطة الدقيقة جداً أن ينقلك التوحيد الأوّل إلى التوحيد الثاني، وعلى هامِش هذا الموضوع التَّفَكّر في آيات الكون، في الحقيقة هي جِسْرٌ ينبغي أن تنْقلك إلى الله تعالى، فكلُّ آيةٍ في جسْمك، أو طعامك، أو في الآفاق قد تنقُلك إلى الله، فالعِبْرة، والمُعَوَّل عليه أن تصِلَ إلى الله تعالى، فلذلك: الطرائق إلى الخلائق بعَدد أنْفاس الخلائِق، فالعِبْرة إذًا الوُصول، تَصَوّر أنَّ الوسائِل جِسْر، فالعاقل لا يبقى على الجِسْر، بل ينتقل من الجِسْر إلى الشطْر الثاني.

مُؤَلِّف الكتاب يرى أنَّ القرآن الكريم كلَّهُ توحيد؛ كيف؟ قال: إذا أخبر الله عن ذاته، وعن أسمائه، وصِفاته، وأفعاله، فهذا هو التوحيد العِلْمي، أما إذا دعا إلى عِبادته، وطاعته، وإخْلاص الوجْهة له، والقصْد له، فهذا هو التوحيد العمَلي، وهناك توحيدٌ ثالث: هو التوحيد الإرادي، والطلبي، وهو أمْرٌ، ونَهْيٌ، وإلْزامٌ بطاعَتِهِ، فهذا من لوازم التوحيد العملي؛ أن تأتَمِر بما أمَرَ، وتنْتهي عما نهى عنه وزجَر، وأن تُقيمَ شَرْعَ الله في كُلّ شؤون حياتك، وهذا التوحيد من لوازم التوحيد العملي، فإذا حَدَّثَك عن أهل الجنَّة ونعيمها، فهذه نتائِجُ التوحيد، توحيد علمي، وتوحيد عملي، ونتائج التوحيد، ولوازمه، فلو قرأتَ القرآن كلّه فإنَّك لا تقرأ آية تخرج عن هذا، أما إذا حَدَّثَك عن مصير الكفار في النار، فهذا من نتائِج عدم التَّوحيد، إذاً لا يخلو كتاب الله على إجْماله من آيات تُخْبرنا عن التوحيد العلمي، وأخرى تأمرنا بالتوحيد العملي، ولوازم التوحيد من أمْر ونَهْي، والنواهي هي التي تُبْعِدُ الإنسان عن التوحيد، ونتائِج المُوَحِّدين في الجنَّة، ونتائج المُشْركين في النار، لذلك القرآن كلُّه توحيد، ولهذا يتَّضِح قوْل الأنبياء عليهم صلوات الله تعالى أنَّهم جاؤوا بالمَقولة الثابتَة التي جاء بها الأنبياء جميعاً قال تعالى:

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[سورة المؤمنون: 32]

وقال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: 25]

ثم يأتي على هذا بِمَثَلٍ فقال: الحمد لله رب العالمين توْحيدٌ، الرحمن الرحيم توحيد، مالك يوم الدِّين إخبار، إياك نعبد، وإياك نستعين توحيد عملي، اهدنا الصِّراط المستقيم، توحيدٌ مُتَضَمِّنٌ سؤالَ الهدايةِ إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعمْت عليهم، هؤلاء الذين وَحَّدوا، وغير المغْضوب عليهم، ولا الضالين هؤلاء الذين فارقوا التوحيد، إذاً فنحن مع آياتٍ عن التوحيد العلمي، وأخرى تأمرنا بالتوحيد العملي، ولوازم التوحيد مِن أمْرٍ ونَهْيٍ.

الحياة الطيِّبة التي يحْياها المؤمن هي شهادة الله له أنَّ هذا القرآن كلامه :

الله جلّ جلاله يشْهد لِنَفْسِه أنَّهُ إلهٌ واحِد، والدليل قول الله عز وجل:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران: 18]

ذكرْتُ لكم مرَّةً أنَّ الله سبحانه وتعالى كيْفَ يشْهد لِهؤلاء الناس أنَّ هذا القرآن كلامه، الإنسان إذا شَهد تَكَلَّم، وقال: أشْهد لك أنَّك فعلْتَ كذا وكذا، لكِنَّ خالق السماوات والأرض كيف يشْهد للناس أنَّ هذا كلامه؟! ذَكَرْتُ وقتها أنَّ الله سبحانه وتعالى يحيي المؤمن والمُسْتقيم على أمْرِهِ حياةً طَيِّبَة، وهذه الحياة الطَّيِّبَة التي يذوقها المؤمن هي مِصْداقٌ لِقوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة غافر: 40]

فالحياة الطيِّبة التي يحْياها المؤمن هي شهادة الله له أنَّ هذا القرآن كلامه، لأنَّهُ وَعَدَ المؤمن بهذه الحياة الطَّيِّبَة، وها هو ذا قد ذاقها! والحياة الضَّنْك والمعيشة الضَّنْك التي يعيشها المُعْرِض هي شهادة الله لِهذا الإنسان أنّ هذا القرآن حق، فهذه المعيشة الضَّنْك التي يذوقها المُعْرِض تُؤَكِّد أنَّ هذا القرآن كلام الله عز وجل، وقد أذاقه ما وعده به، قال تعالى :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

الله عز وجل دائماً يشْهد للإنسان أنَّهُ إلهٌ واحد :

يا أيها الأخوة الكرام، ينبغي أن تقِفوا قليلاً عندما يقول الله عز وجل : "شَهِدَ الله "، فالله تعالى لا تُدْركه الأبصار، فكيف يشْهد لنا أنَّهُ إلهٌ واحِد؟ هذا سؤال؛ قال بعض العارفين: عرفتُ الله من نقْض العزائِم، فالإنسان يُدَبِّر، ويُخَطِّط، ويُهَيِّئ الأسباب، ولأهون الأسباب تتحَطَّمُ كلّ خِططه وآماله، فالله عز وجل فضْلاً على أنّهُ ذكّرنا بالقرآن الكريم أنَّه كتابه، وفضْلاً على أنَّهُ قال: فاعلم أنَّه لا إله إلا الله، لو نَظَرْتَ إلى أفعال الله لوجدتَ أنَّها تشْهد كلّها أنَّهُ إلهٌ واحد، فما من إنسان يعْتدّ بنَفْسه، ويعْزو القوَّة لذاته إلا نَقَضَ الله عزيمته، والشواهد كثيرة جداً، فهذه المَرْكَبَة التي أطْلَقوها إلى الفضاء وسَمَّوْها المُتَحَدّي، بعد سبعين ثانِيَة فقط أصْبَحَتْ كتْلة من اللَّهَب! وتلك الباخرة التي قالوا عنها: إنَّ القَدَر لا يسْتطيعُ أن يُغْرِقَها، في أوّل رحْلَةٍ لها غَرقت، وهي من أعْظم البواخر التي صُنِعَتْ وقتها، فالله عز وجل دائِماً يشْهد لنا أنَّهُ إلهٌ واحد، وأقرب مثلٍ نفْسك، كلّما قلتَ: الله تولاك بالرِّعاية، فإذا قلتَ: أنا تَخَلّى عنك لأنّ الأمر بيَدِه، أحياناً هذا الإنسان القويّ يتساهل بلا سَبَب! وينتقِم بلا سبب، فالله هو الآمرُ، كما في حديثِ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ عَفَّانُ فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ قَالَ وَمَا يُؤْمِنُنِي وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ))

[أحمد عن عائشة]

شهادة الله عز وجل تعني العِلْمَ والمعْرِفة والتَّكلّم والإعلام والإلْزام :

ثم دَعْكَ من التوحيد في القرآن الكريم، ولننتقل إلى أفعال الله سبحانه، فلو تأمَّلْتَ أفعال الله عز وجل لرأيْتَ أنَّها كلّها تنْطق بالتوحيد، وهذا معنى قول الله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران: 18]

فالأسباب أحْياناً تتخلّف، وتقع الأشياء بلا أسباب، أو دون أسباب تقع الأشياء، فقد تجد نتيجة من دون سبب، وقد تجد سبباً ولا نتيجة له، ماذا يعني هذا؟! أنَّ الأمْر بيَدِ الله، إلا أنَّنا نحن بنَظْرةٍ قاصِرَة نجد أنَّ هذا الشيء سبب لِهذا الشيء، فالسَّبب والمُسَبِّب ترافقا، وكان أحدهما قبل الآخر فَسَمَّيْنا نحن اصْطِلاحاً: الأوّل سبب، والثاني نتيجة، لكنَّ الأسباب وحْدها لا تسْتطيع أن تخلق النتائج، ولذلك قال علماء التوحيد: عندها لا بها! أي عند مشيئة الله لا بالقدرة التي أودِعَتْ في الأشْياء، فالنقْطة واضِحَة؛ كيف أنَّ الله تعالى

يشْهد بأفعاله أنَّه لا إله إلا هو، والمؤلّف يرى أنَّ شهادة الله عز وجل تعني العِلْمَ، والمعْرفة، وتعني التَّكلُم، والإعلام، وتعني الإلْزام، فإذا قرأتَ القرآن الكريم، وقرأتَ الآيات المُتَعَلّقة بالتوحيد لَوَجَدْتَ بعضها أنَّ الله تعالى يشْهد، وبعضها أنّ الله تعالى يقول، وبعضها أنَّ الله يُخْبرنا، ويأمرنا.

الإعلام نوعان؛ إعلام بالقول و إعلام بالفعل :

والإعلام كما تعلمون هو إعْلامٌ بالقول، وإعلام بالفِعْل، أحياناً يتكلَّم بشيء يُقرّه دون أن يسأله أحد، فالإنسان يتكلّم، ويُقِرّ، ويعتقد، ويُعْلِم، ويأمر، فأنت قد تُعْلم دون إلزام، لكنَّك إن ألْزَمت فقد أمرْتَ، ما الفرق بين القاضي والمُفْتي؟ الفرق الدقيق أنّ القاضي يحْكم والمُفتي يحْكم إلا أنَّ القاضي أمْرُهُ مُلْزِم، وأما المُفتي فأمْره غير مُلْزِم، وعليه فهناك عِلْمٌ، وهناك إقْرار، وهناك إعلام، وهناك أمْرٌ، قال تعالى:

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)

[سورة الزخرف: 19]

هذه مرْتبة التَّكلُم، فالإنسان بعدما يُعْلم يتكلّم إلا أنَّهُ لا يلزم، والإعلام كما قلت قبل قليل: إعْلام بالقَوْل، وإعْلامٌ بالفِعْل، لو فرضْنا أنّكم رأيْتُم على هذه السبورة أنَّهُ ستكون في الدَّرْس التالي مذاكرة، وكتبتُ ذلك على السبورة، ثمّ في الدرْس الثاني ما تَكَلَّمْتُ ولا كلمة، ووزَّعْتُ الأوْراق، ولم أقل مُذاكرة! فهذا أمرٌ بالفِعْل، وربُّنا عز وجل يُعْلِمُنا في كتابه الكريم، وحينما يُهْلِكُ الأقوام التي كفرَت، والذين أرادوا إطْفاء نور الله عز وجل، فهذا هو الإعلام بالفِعْل.

العلم و الإقرار و الإلزام :

لدينا شيءٌ آخر، وهو أنَّ الأمْر ـ كما قلتُ قبل قليل ـ قد تأمر، ولا تُلْزم، وقد تأمر وتُلزم، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)

[سورة الإسراء: 23]

معنى قضى أيْ حَكَم، إلا أنَّه مع الحكم نَهْيُ عن عبادةِ غيره، وهذا أمْرٌ ضِمْني أن تعْبده وحْده، قال تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)

[سورة البينة: 5]

وقال تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة التوبة: 31]

إذاً هناك عِلْمٌ، وهناك إقرار، وهناك إقرارٌ قوْلاً وفِعْلاً، وهناك إلزامٌ، وكُلُّ هذه المعاني ورَدَت فيها آيات كريمة تُؤَكِّدها .

النقل و العقل :

الشيخ الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا ندْخل في ذلك مُتأوِّلين بآرائِنا، ولا مُتَوَهِّمين بأهوائنا، فإنَّه ما سَلِمَ في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولِرَسوله، فالإنسان أحْياناً يتأوَّل برَأيه، وهو أخطر شيء في الدِّين، أنْ تجعل رأيَكَ هو الدِّين، فإن كنت كذلك فلسْتَ من المؤمنين، ولكنك من أهْل الرأي، ومَن هم أهل الرأي؟ هم الذين اعْتَقدوا رأياً، وبدؤوا يبْحثون عن المُؤيِّدات، فالنَّص الذي يُؤَيِّدُ قولهم يقْبَلونه، ولو كان ضعيفاً، والنَّص الذي ينقض رأيهم يرْفضونه ولو كان صحيحاً، فَدِينهم رأيُهم، فالنَّص إمّا أن يكون هو الأصْل، وأنت تأخذ عقيدتك عندئذٍ من هذا النَّص الصحيح، وإمّا أن تسْتَخْدِمَ النَّص لتأييد رَأْيك، عندَئذٍ تختار ما يوافق هواك، فأخْطر شيء كما يقول الفلاسفة الفلسفةُ الانتِقائِيَّة! أنت لك رأي مُصِرّ عليه فتَبْحَثُ في الآراء عن رأي يُؤَيِّدُك وترْفض الذي لا يُؤَيِّدُك، فالنَّقْل هو الأصْل.

قلتُ لكم سابقاً: إنَّ هناك علاقة كبيرة جداً بين النّقْل والعَقْل، فالحقيقة أنَّ النَّقْل ما جاءَنا عن الله عز وجل وَحْياً مَتْلُوَّاً، وما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم غير مَتْلوّ، فالنَّقْل هو القرآن، وما صحَّ من سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، أما العقْل فهو مِقْياس أوْدعه الله فينا، والواقع خلْق الله عز وجل، والفِطْرة بُنْيَة نفْسِيَّة تكْتشف الخطأ بها، ومن البَديهي أن يتوافق النَّقْل مع العقْل، وأن تتوافق الفطرة مع الواقع، وأن يتوافق الجميع، ولكن نبْدأ بِعَلاقة العقْل والنَّقْل فالعَقْل في الأصل لِفهْم النَّقْل، وله دَوْران: دَوْرٌ قبل النَّقل، ودَوْر بعد النَّقْل، أما الذي قبل النَّقل فالتَّحقُّقُ مِن صِحَّة النقل، أنت بِعَقلك تُمَحِّص الأحاديث، وتختار الصحيح، وتقف مَوْقفاً مترَدِّداً من الضعيف، وتقبل الحَسَن في الأحكام الشَّرْعِيَّة، وتجعل المتواتر في العقائِد الفِكْرِيَّة، فأنت اسْتَخْدَمْتَ عقْلك، فهو للتأكد من صِحَّة النَّقْل، ولِفَهْم النَّقْل، أما أنْ يُسْمَحَ للعقل أنْ يتحكَّم بالنَّقْل، فَيَقْبل بعضه ويرفض بعضه الآخر، فأنت هنا جعلْت العقل هو الأصل، والنَّقل هو الفرع! وهذا مُخالفٌ لما عليه جُمْهور العلماء، لذلك لا يُحْتَكَمُ إلى العَقْل، بل يُحْتَكَمُ إلى النَّقْل، لأنّ العقل قاصِر، وقد يفْشل، وقد ذَكَرْتُ لكم أنّ الأمر الإلهي كلّما ازْداد وُضوحاً وطَبَّقْتَهُ ضَعُفَتِ العبادة في هذا التَّصْديق، وكلّما كان غامِضاً، وبادَرْتَ إلى تصْديقِهِ، ازْدادَتْ عُبوديَّتك لله تعالى، فأنت حينما تُنَفِّذ أمْراً، وأنت أمام آمِرٍ وأمْرٍ، فإذا كان الآمر عظيماً جداً، وذا كمالٍ مُطْلَق، عندها تُبادِرُ إلى تَطْبيقه، ولو لم تجد في الأمْر الحِكْمة التي تبْحث عنها، وهذا يُمَثِّله مَوْقف سيّدنا إبراهيم عليه السلام في ذبح

ابنه؛ وهناك مواقف عِدَّة لا تُعَدُّ، ولا تُحْصى، كُلّها وَفْق العقْل، والمنطِق، والواقع، والفِطْرة، فأنت إذا صدَقْتَ تكْتسِبُ محامِد كثيرة، أما إذا قيل لك: اِذْبَح ابْنك، وابنك نَبِيّ يسْعى معك، قال تعالى:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الصافات: 102]

فهذا الأمر لا يُمكن أن يُقبل بالعقل، ولا بالواقع، ولا بالفِطْرة، إلا أنَّ سيِّدنا إبراهيم لما قَبِل الأمْر أعْلَنَ بِفِعْله هذا أنّه على أعلى مُسْتوى في العُبودِيَّة.

كُلّ شيء أراده الله تعالى وقع وكلّ شيء وقع أراده الله تعالى حُكْماً :

الله تعالى أحْياناً يمْتَحِنُ الإنسان؛ يمْتَحِنُ عَقْلانِيَّتَهُ، وعُبودِيَّتَهُ، لو كان مُسْتقيماً اسْتِقامة تامَّة، وأتَتْهُ مُشْكلة بِحَسَب الآيات، والأحاديث، وعقْلك يرى أنه لا ينبغي أنْ تأتي، فأنت هنا تمتحن للعبودِيَّة، فهل أنت موقِن أنَّ هذا الفِعْل فِعْلُ الله؟! وهل هناك مَخْلوقٌ يسْتطيع أن يفعل شيئاً ما أراده الله تعالى؟! طبْعاً، لا يُمْكن أن يفعل مَخْلوقٌ شيئاً ما أراده الله تعالى، ومعلومٌ عندكم أنَّ كُلَّ شيء أراده الله تعالى وقع، وكلّ شيء وقع أراده الله تعالى حُكْماً، فأنت إذا رأيْتَ شيئاً وقع فالله تعالى أراده، لأنَّهُ وقع فقد أراده، وإذا أراده وقع حَتْماً، ألا تعلمون أنَّ مشيئة الله وقدرته مُتَعَلِّقة بالحِكْمة المُطْلقة؟! ألا تعلمون أنَّ حكمته المُطْلقة مُتَعَلِّقة بالخير المُطْلق؟ لذلك فالإنسان حينما يُوَحِّد يسْتريح، فما دام هذا الشيء وقع فالله تعالى أراده، ولذلك فالتوْحيدُ يُعطيك طُمأنينة ما بعدها طُمأنينة، والإيمان بالقدَر نِظامُ التَّوحيد، وهو يُذْهِبُ الهمّ والحَزَن، فحينما تُبادِر إلى تطبيق أمْر الله عز وجل قبل أن تعْرف حِكْمته فهذا ارْتِفاعٌ في مُسْتوى عُبودِيَّتِك، وحينما تُعَلِّق التطبيق على فهْم حِكْمة الأمر، فهذا ضَعْفٌ في عُبوديَّتِك، والأمثلة كثيرة على ذلك، بل إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام حينما وَقَّع صُلْح الحُدَيبِيَة، فيا ترى كيف وَقَّعَهُ؟ بأمْرٍ من الله تعالى، فالظاهِر من هذا الصلح شُروط مُهينة، وسيِّدنا عمر احْتار في أمْره، وغَلَتْ في نَفْسِهِ الحَمِيَّة والغيرة على الدِّين، وسيِّدنا الصدِّيق كان أعلمَ منه، فقال له: اِلْزم غِرْزه، فإنَّهُ عبْد الله تعالى ورسوله، لذلك أيها الأخوة قد يأتي الشيء على غير المُراد، وهو معنى قوْل النبي الكريم لما دخل إلى بيْت أبي السائِب وقالتْ امْرأةٌ : هنيئا لك أبا السائب، فقد أكرمك الله ! فقال: وما أدراكِ أنّ الله تعالى أكْرَمَهُ؟ قولي: أرْجو الله تعالى أن يُكْرِمَهُ، وأنا نبيٌّ مرْسَل، لا أدْري ما يُفْعَل بي ولا بكم، هذا من عُبوديَّة النبي عليه الصلاة والسلام، فلو قال الإنسان: أنا مُسْتقيم، ولا يُمْكن أن يُصيبني شيء يسوؤني فهذا فيه سوءُ أدَبٍ مع الله عز وجل، فما دُمْتَ عَبْداً لله فأنت في قبْضة الله، وعليك أن تُطيعَهُ، أما أن تُلْزِمَهُ فهذا ليس من شأن العَبْد المُطيع لله عز وجل .

معنى اسم المؤمن :

أردتُ بهذا الدرْس أن نكْتشف أنَّ الله سبحانه وتعالى من أسْمائِه المؤمن، هل الله تعالى مؤمن؟ الإنسان مؤمن، أما الله تعالى من أسْمائِه المؤمن، قال بعض العلماء: إنَّ معنى هذا الاسم يعني أنَّ الله تعالى إذا أرْسَلَ أنبياءه ورسله يسوق الحوادِث التي تَحْمِلُ الناس على الإيمان به، فهو يُؤَكّد بأفعاله أقواله، فأفعاله حينما تؤكّد فحْوى دَعْوة رسله فكأنَّهُ بهذا التوضيح حمل الناس على الإيمان بِدَعْوتِه، هذا من معاني مؤمن، لأنَّك أحياناً تجد من يُنفق من ماله، واللهُ تعالى يُضاعفه له أضْعافاً كثيرة، وتقرأ في القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[سورة سبأ: 39]

لكنّك حينما ترى زَيْداً أو عُبيداً يُبارك لهم الله في الحلال تشْعر بالتطبيق العملي، قال تعالى في القرآن:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة البقرة: 276]

وترى ذلك المحق فيمن أرْبى، فالله تعالى من أسمائِه المؤمن وهو تعالى حَمَلَك بما رأيته للإيمان به تعالى، هذا معنى اسم المؤمن.

الإنسان لا يشعر بحَلاوة الإيمان إلا بتَوْحيد الألوهيّة :

مِحْور الدرْس اليوم أنَّ الله سبحانه وتعالى فضْلاً عن شهادته بالقرآن أنَّهُ لا إله إلا الله، يشْهد لك بأفعاله أنَّهُ لا إله إلا الله، فأفْعالهُ تدلّ على وَحْدانِيَّتِه، فلو قال الطبيب للمريض: لا فرار مِن مرضك، فهو حَسَمَ المسألة، ثمَّ شفاه الله تعالى، فَلِسَبب أو لآخر نمَّى الله عنصر الشّفاء حتى نهض من مرضه .
من هم المُوَحِّدون، أو الذين يتبوؤن قِمَم التوحيد؟ هم الأنبياء، ومَن هم أشدّ منهم توْحيداً؟ الرسل، ومن أشدّ مِن هؤلاء توحيداً؟ أولو العزْم من الرسل، ومن أشدّ من هؤلاء توحيداً؟ النبي وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، والدليل قوله تعالى :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)

[سورة الأنعام]

فالعلماء يقولون الخليلان: خليل الله سيّدنا إبراهيم، والخليل الثاني هو محمّد بن عبد الله، هما في قِمم التوحيد، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه))

[مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب]

إنّ توحيد الألوهِيَّة ضعيف عند بعض الناس، وإنّ توحيد الربوبيَّة قاسِم مُشْترك، لذلك يؤمن الإنسان أنَّ لهذا الكون خالِقاً، لكنه معذّب في حياته، فهو يرْجو فلانًا، ويخاف عِلانًا، ويحْسب حساباً لِفلان، إلا أنَّك لا تشْعر أيها الأخ الكريم بحَلاوة الإيمان إلا بتَوْحيد الألوهيّة، ولا تشْعر بالطمأنينة إلا حينما ترى أنَّ لِهذا الكون إلهاً واحِداً، وهو الذي يفْعل ما يشاء، فمشاعر المُوحِّد لا توصف، أوَّلاً: شُعور بالأمن، أمّا الخوف والقلق والحرمان فكلّ هذا أنت مُعافى منه، والاتّجاه مَرَّة لِزَيْد، وأخرى لِعُبَيْد مُعافى منه، أمْرك كلّه بيَدِ الله عز وجل .

شارَفْنا على الانتِهاء من توحيد الألوهِيَّة، وسننتقل في الدرْس القادم إن شاء الله إلى موضوع : "ولا شيء مثله"، وإن شاء الله تعالى سنورِد الأدِلَّة والتفاصيل على هذه المَقولة .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة الصحيحة ينبغي أن تنطلق من كتاب الله وسنَّة رسوله :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في درْس العقيدة، وننتقل إلى قول الإمام الطحاوي: "ولا شيء مثله".
في الحقيقة نُعيدُ ونُكَرِّر أنَّ العقيدة الصحيحة ينبغي أن تنطلق من كتاب الله وسنَّة رسول الله، وكلام الله سبحانه وتعالى في أعلى المُسْتويات من حيث المضْمونُ، ومن حيث الشَّكْلُ، فقد اتَّفق أهْل السنَّة على أنَّ الله تعالى "ليس كمثله شيء"، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإنّ الله جلَّ جلاله، له ذات، وله صِفات، وله أفعال، والذين أنكروا صِفاته فقد عَطَّلوها، والذين جَسَّدوها انْحرفوا، والذين فَوَّضوا تفْسيرها إلى الله عز وجل اتَّبعوا، والذين أوَّلوها أرادوا أن يُقْنِعوا مَن جاء بعدهم مِمَّن حَكَّم عقْله في الآيات التي تتحَدَّث عن ذات الله عز وجل في القرآن الكريم، فهناك من أنْكر الصِّفات، وعُرِفوا بالمُعَطِّلة، وهناك من جَسَّدها وهم المُشَبِّهَة، وهناك من فَوَّضَ تفْسيرها إلى الله عز وجل، وهناك من أوَّلها تأويلاً يليق بكَماله.
في الحقيقة نحن مع الفريقين الأخِيرَيْن، الذين فوَّضوا، والذين أوَّلوا، وربَّما كُنَّا بحاجَة إلى التأويل، فإذا قلنا: إنّ الله سميعٌ، أي يعْلم ما تقول، وبصير يعلم ما تفْعل، وإذا قلنا: يدُ الله، أي قُدْرَتُه، وإذا قلنا: وجاء ربّك، أي وجاء أمْر ربِّك، وهكذا نُؤوِّل بما يليق بكمال الله تعالى، أو نُفَوِّض حيث نقول: هذه الآية نُفَوِّضُ تأويلها إلى الله تعالى، نحن آمنَّا بالله عز وجل، والله تعالى أخْبَرَنا أنَّ لهُ سمْعاً وبَصَراً، نُفَوِّض إلى الله آية السَّمْع والبصر، أو أنَّنا نُفَسِّرهما بما يليق بالله عز وجل.

العقل البشري حينما خلقه الله جعل له حُدوداً لا يتَعَدَّاها وهذا مِن كمال الصَّنْعة :

يا أيها الأخوة، أنا مُضْطَرّ أن أعيد حقيقةً أساسِيَّة مُهمَّة جداً، وهي أنّ العقل البشري حينما خلقه الله عز وجل جعل له حُدوداً لا يتَعَدَّاها، وهذا مِن كمال الصَّنْعة، فقد تصْنع ميزاناً وتكتب عليه: هذا الميزان يعْمل في دِقَّة بالغة إلى خمْسين كيلواً، فإذا حَمَّلْتَهُ فوق طاقته، فهذا الميزان يصاب بالعَطَب، هل تتَّهِمُ الميزان أو صانِعَهُ؟ لا، بل أتَّهِمُ نفسي، فلو أنَّني حَمَّلْتُ عقلي قَضِيَّةً فوق العقْل، فلا أتَّهِمُ العقل بالقُصور، ولا أتَّهِمُ الصانِعَ بِصَنْعَتِه، ولكن أتَّهِمُ نفسي أنَّني كلَّفْتُهُ لِغَيْر ما خُلِقَ له، هذه فِكْرة دقيقة جداً،

فالعقْل البشري لما أوْدعه الله في الإنسان أوْدعه من أجل أن نصِلَ به إلى الله، وفرقٌ كبير بين أن نَصِل به إلى الله وبين أن نُحيطَ بالله، الإحاطة بالله عز وجل من سابع المُسْتحيلات! لقوله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

من أراد أن يصل إلى الله فالعقل يكفي أما من أراد أن يصل إلى ذات الله فالعقل يعجز :

وكما ورد في الجوهرة: الجهل بالله عين العلم به، والعلم به عين الجهل به، فإذا أردت أن تصل إلى الله فالعقل يكفي، أما إذا أردتَ أن تصل بعَقلك إلى ذات الله تعالى؛ كيف خُلِق العالم مِن عدم؟ وكيف يعلم؟ فالعَقْل يعْجز، لذلك أكبر قضيَّة نلْمَحُها في الجماعات الإسلاميَّة التي لم تتحَقَّق من عقيدةٍ صحيحة، هي الخلط بين مساحَةٍ مُخَصَّصة للأخبار الصادِقة، ومساحةٍ مُخَصَّصة للمَعْقولات، أقول لكم دائِماً أيها الأخوة: يجب أن تُجيب عن سؤال أوَّلي؛ هل هذه القَضيَّة مع المَعْقولات أو مع المَسْموعات؟ فإن كانت مع المَعْقولات فسلِّطْ عليها عقلك، ولا مانع، أمّا إن كانت مع المَسْموعات فالعَقْل لا دخْل له فيها إطْلاقًا! هي حَكَمٌ على العقْل، وليس العقل حَكَماً عليها، وليْسَت هذه الحقيقة التي أخْبرنا الله بها حَكَماً على العقْل، فأخْطر فِكْرة أن تكون قَضِيَّة مُتَعَلّقة بذات الله، وهكذا أخْبرنا الله بها، أما إن أردْتَ أن تضَعَها على مِحَكِّ العقل؛ كيف يعلم الله عز وجل؟ وكيف أعْطاهُ اخْتِياراً والله تعالى يعْلم؟ فإذاً ينبغي ألاّ يعْلم، نكون بهذا دَخَلْنا في متاهَةٍ لا تنتهي، نحن في الإخْباريات نتلقاها من الله عز وجل، ونُفَوِّض تفْسيرها، أو نُؤَوِّلها تأويلاً يليقُ بِكماله، أما في المعْقولات فلك أن تُحَكِّمَ عَقْلَك على هذه الحقائق، وسوف ترى لِهذا العَقل نتائِج باهِرَة جداً، ففي أيِّ نِقاش أو إلقاء مُحاضرة أو درس إياك أن تنقل قَضِيَّة من دائرة الإخباريات والمَسْموعات والتَّصْديق إلى دائِرَة التَّحْقيق.

قضايا الدين تصنف في ثلاث دوائر هي: المحسوسات والمعقولات والإخباريات :

قبل أن نمضي في هذا الدَّرْس أُحِبُّ أن أُحَدِّد بعض الاصْطِلاحات؛ الشيء الذي أخبرنا الله تعالى به فلك أن تُسَمِّيه الإخْبارِيَّات، أو المَسْموعات، أو المُسَلَّمات، أو دائرة الغَيْبِيَّات، أو التَّصْديقات، فَكُلُّ هذه المُصْطَلحات مُؤَدَّاها واحد، أما الدائرة الأولى وهي دائرة المعقولات، أو المُشاهدات، أو الاسْتِدْلال، فالعقل مُرْتبط بهذه الأخيرة، أما الغيب فسبيل معْرِفَتِه الخَبَر، وذَكَرْتُ مَرَّةً دائِرَةً ودائِرَةً ودائرةً، دائِرَةُ الشُّهود أداتُها الوحيدة الحواس الخَمْس، ودائرة الغَيْب أداتها الوحيدة الخَبَر الصادِق، وهناك دائِرَة بين

بين، وهي ما غابت عَيْنُهُ وبَقِيَتْ آثارُه، فالشُّهود عَيْنُ الشيء وآثاره، والغيب غابَتْ عَيْنُهُ وآثارُه، أما الدائرة التي بين بين غابَتِ العَيْن، وبَقِيَتْ الآثار؛ إذًا حواس، عَقْلٌ، وخبر، هذه النقْطة إذا اسْتَوْعَبْتُموها فلن يسْتطيع الإنسان بالنِّقاش أن يغْلِبَكم، فأيَّةُ قضِيَّة إخْباريَّة الزِّيادة عليها ظنِّيَّة، والله تعالى أعْطاك الحدّ المناسب، فلا تزدْ على النَصّ القرآني، ولا تزد على النصّ النبوي، ذَكَرَ عن الجنّ بَضْعة آيات، فهي كافِيَة، أيُّ بَحْثٍ في موضوع الجنّ زيادة على ما أخبرك الله به فهذا تطاول، وتنطّع، وليس موقِفاً علْمِياً، لأنّ الجن غابَتْ عنك عَيْنُ الجنّ وآثاره، ولم يبْقَ لك منه إلا الخبر الصادِق، فأيّ تسليطٍ للعقل على الخبر الصادِق اتّهامٌ للمُخبر، اِنْتَبِه فأنت حينما تُسَلِّط عقْلك على شيء أخْبَرَك الله به إنَّما تتَّهمُ المُخْبِر وتتَّهِمُ الله عز وجل، لكن حينما تُعَطِّل عقْلك عن شيء دعاك الله تعالى إلى التَّفْكير به فأنت تعْصي ربَّك كذلك، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[سورة البقرة: 164]

فالتَّفكّر في الدائرة الوُسْطى، والإحْساس في الدائِرَة الأولى، والتَّصْديق في الدائِرَة الثالثة.

عدم إحاطة المخلوق الحادث بالقديم :

الآن، إيَّاك أن تنقل قضِيَّة من مكان إلى مكانٍ، ففي هذا خطر! هذه قضِيَّة مع الإخباريات فأجعلها مع العَقْليات! وأسلّط عليها عقلي، وأمَحِّص والأسباب؛ كلّ هذا كلام فارغ! قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

[سورة الإسراء: 85]

فهل يُمْكن لِمَخْلوق حادِث أنْ يُحيط بالقديم؟! وهل يُمكن لِنَمْلة على سطح جبل هيمالايا، وقد أوتِيَتْ إدراكاً لِتَحْصيل طعامها فقط، فهذه النَّمْلة هل بإمْكانها أن تُحيط بالجبل؟! ومُكَوِّنات تُربته، وصُخوره، ووزْنِه، وحجْمه! هذا شيءٌ مُسْتحيل، فهذه الحقيقة إذا تَمَثَّلتموها أيها الأخوة والله الذي لا إله إلا هو لشَعَرْتُم براحة لا تُقَدَّر بثَمن .

ففي المحسوسات ربَّما اشْترك بعض المخلوقات معنا، وفي الدائرة الثانيَة ينفَرِدُ بها الإنسان، والدائرة الثالثة ينْفرِدُ بها المؤمن .

الحديث عن ذات الله هو من الإخباريات ونكْتفي بما أخبرنا الله به :

الحقيقة الأولى أنَّ الحديث عن ذات الله من الدائرة الثالثة؛ من دائرة الغَيْب، ما الخطأ الفادِح الذي وقع به المُتَكَلّمون؟ أنَّهم نَقَلوا قضايا من دائرة الإخباريات إلى دائرة المَعْقولات، فبهذا كُلّما جهدوا في حَلِّ مُشْكلة ظَهَرَت لهم عشْرُ مُشْكلات! لذلك ورد في بعض الأحاديث أنَّ: "سرَّ القضاء والقدر ادُّخِرَ إلى يوم القيامة"، فقوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1-4]

أليس هذا الكون الذي أمامك يدلّ على عظمة ما بعدها عظمة؟ ألا يستأهل ربنا جل جلاله أن تُسلّم له في قضيَّة أخبرك عنها؟ وأذكر ذكر حادثة لِوَزير خارجيَّة دولةٍ مُتخَلّفَة الْتقى مع وزير خارجيَّة دوْلة كبيرة بمِقْياس العصْر، فسأله سؤالاً فأجاب عنه، فقال له: لي معلومات غيرها، فَطَرَدَهُ! فهذا إنسان وما تَحَمَّل، أعطاك معْلومات، وهو أكبر مِن أن يكذب، تقول له: عندي معلومات أخرى غير هذه! لذلك خالقُ الكون، وهو بكُلِّ شيء عليم، ويقول لك في قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

أخبرك بآيةٍ مُحْكمة وقطْعِيَّة الدلالة أنَّ الإنسان مُخَيَّر، وأخبرك بآيةٍ قطْعِيَّة الدلالة أنَّه يعْلم، ثمّ تقول: لا يعْلم! كيف هذا؟ أقول لك: هذا فوق طاقة البشر حتى الأنبياء عرفوا جانباً من عظَمَتِه! لكن لا يسْتطيع نَبيّ ولا رسول أن يُحيط بالله تعالى، فالنُّقطة الدقيقة في هذا الدرس أنّ الحديث عن ذات الله هو من الإخباريات ونكْتفي بما أخبرنا الله به، ودون أن تُسَلّط عقلك في هذه الموضوعات، وإنَّ عدم تسْليط العقل على هذه الموضوعات هو قِمَّةُ العِلْم، فلا تظنّ أنَّهُ لا بدّ أن تعرف كُلَّ شيء، وإذا قلت: هذا الشيء ليس من اخْتِصاصي، فهذه علامة عِلْم وتواضع، وأنَّكَ تعرف حجْمك الحقيقي، وأنَّك عبْد، أما حينما تجْلس وكأنَّك تجْلس على مائِدَة مُفاوضات مع الله عز وجل، لماذا خَلَقْتَ؟ ولماذا لم تُعْلم؟ ولماذا ...؟ فالعبْد أحْياناً من دون أن يشْعر يضع نفسه نِداً لله ومُحاسِباً! والعياذ بالله، وهذا من ضَعْف الإيمان، ومن ضَعْف معْرِفَتِك بالله عز وجل، فشأنُ العبْد أن يسْتَسْلم.

كمال الخلْق يدلّ على كمال التَصرّف :

هناك نقطة دقيقة جداً، وأرْجو الله تعالى أن أُوَفّق في تذْليلها لكم، لأنَّها أساس الدرْس، لو كان هناك أبٌ له من العلم،، والحِكمة، والرَّحْمة، والقدرة، الشيء الكثير، وقد رأى ابنه منه ومن عطْفه ورحْمَتِه وحِكْمته الشيء الكثير، ثمّ جاء أمر من هذا الأب غير واضحٍ للابن ولم يسْتَوْعِبْهُ، فهل يَحِقُّ لهذا الابن أن يرفض هذا الأمر؟ ألاَ يشْفع لهذا الأمْر عظمة الأب؟ هذه هي النقْطة الدقيقة فأنت: ألا ترى الكون؟! وهذا سؤال صغير، فكمال الخلق يدلّ على كمال التَصرَّف، هذا في الدنيا، شركة تصْنع كمبيوترات، كيف تظنّ نِظام مُحَاسبَتِها؟ وحينما تشتري البطيخ كيف تكون المُعاملة؟ هذه النقطة أشار إليها الإمام الشافِعي، وهي أنَّ الأشياء الخسيسة تُباع بالمُعاطاة ولا تحْتاج لا إلى إيجاب، ولا إلى قبول، ولا إلى شاهِدَيْن، فالأشياء الخسيسة تكون بالمناولة؛ أمسَكْتَ كأساً من العصير، وشَرِبْته، ووضَعْتَ النقود على الطاولة، وانتهى الأمر، أما الأشياء النَّفِيسة فتحتاج إلى عقْد، وإيجاب، وقبول، وشُهود، فهذه الشَّركة التي تبيع الكمبيوترات ألا تَتَوَقَّعون أن يكون لها نِظام مُحاسبة راقٍ جداً؟ فكمال الخلق ألا يدلّ على كمال التَّصرّف؟ هل ترى في هذا الكون خَلَلاً أو نقْصاً؟ رأيْتُ مَرَّةً أباً يحْمل ابنه من يدِه، لعل الأرض فيها وُحول، فَحِرْصاً على نظافة ابنه رفعه من يده، والله بقيت أُفَكِّر فَتْرة طويلة! فهذه اليد مدْروسة بعِلْم، فلو أنَّ العَضلات التي ترْبط الساعد بالجِسْم أضْعف من أن تحمل الوزْن لانخلَعَتْ يدُ الطِّفل، معنى هذا أنّ وزْن الابن مدْروس، ولو حَمَلْته من يده فلا حرج، ثم انظر إلى سيارة صُنِعَت سنة ألف وتسعمئة، مرَّة قرأت مقالة عنها؛ ليس فيها تَمْديد سرعة، تمْشي بِسُرْعة واحدة، والإضاءة بِقِنْديل، والتَّشْغيل من خارج السيارة، وانْظر إلى سيارة اليوم "أحدث موديل"؛ مرسيدس شبح، لو أقَمْتَ موازنة بينهما! كيف تُفَسِّر هذا التَطورّ؟! علم الإنسان قاصِر، وخبرته حديثة، أما الله عز وجل فخبرته قديمة، والدليل هذا الإنسان، فهل طرأ عليه تعْديل منذ أن خُلِق؟ وهذا الكون بِمَجرَّاتِه، وكازاراته، وسماواته، والجبال، والأنهار، والصحارى، والنبات، والطيور، هذا الكون ألا يدل على عظمة الله عز وجل وعلى علمه وقدرته ورحْمته؟ الطّفل الصغير أودِع في طحاله كميَّة من الحديد تكفيه عاميْن، لأنّ حليب الأم مُفْتَقِر إلى الحديد، فأنت لو فَكَّرْتَ في خلق الإنسان، والحيوان، وفي بُنْيَةِ النبات، لرأيْتَ العَجَب العُجاب، هذا الكون هو الثابت، وهو الذي يدلّ على الله.

من عرف الله أحسن الظن به :

انظُرْ في تصرفات الله عز وجل، فقد تجد أنَّ حرْباً عالَمِيَّة ثالثة تُعلَن على الإسلام، في العالم كلّه، وهناك من يشكّ برَحمة الله، وعظمته، وعدالته، إلا أنَّك لو عرفت عدالته، وحكمته، من خلال الكون،

فهذه المعرفة تُلقي ضَوْءاً على تمام تَصرّفه، تقول: أنا لا أعلم وربّما هناك حكمة تنْكشف، فسَيِّدنا علي قال: والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً.

الحديث عن تَصَرُّفاته، وأفعاله، وعن صفاته، وأسمائه؛ كلُّ هذا خاضِعٌ لِمَعْرِفَتِه، فإذا عرفْتَهُ أحسنْتَ الظنَّ به، لذلك إذا أخْبرك الله بِشَيء فبِمُجَرَّد أن تنقل هذا الشيء إلى دائرة العقل، والتَّمْحيص، والتحليل، والدِّراسة، فأنت تُشَكِّك في القائل! إذا سأل الزوج زوْجته عن شيء، ثمّ أرادت التحقق منه؛ ألا تنْشأ مشكلة؟ يقول لها: ألم تُصَدِّقيني؟! فهذه نقطة دقيقة جداً، أنّ الله إذا أراد أن يُخبرك عن شيء، وأنت أردْتَ أن تبحث في هذا الشيء، وأن تبحث عن دليل لهذا الأمر، فقد وقعْتَ في شِبْه إنكار، لذلك من جعل عقله حَكَماً على إخبار الله تعالى عز وجل نقُلْ له: جدِّدْ إيمانك بالله تعالى مَرَّةً ثانية، وجَدِّدْهُ دائماً، فالله تعالى قال، انتهى أمره، فهذه مُقدِّمَة ذكَرتها لأنَّ الذي سنتعرض له الآن: أنَّ الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.

الله تعالى ليس كمثله شيء :

اِتَّفق أهل السنَّة على أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صِفاته، ولا في أفعاله، إلا أنَّ هذا الكلام يعني أنّ خصائص الربّ تعالى لا يوصف بها شيء من مخلوقاته، فعِلْم الله وقدرته غير علم وقدرة المخلوقات، ولا يُماثله شيء من صفات مخلوقاته، لا المخلوقات تُماثل صفاتُها صفاتِ الله، ولا صِفات الله عز وجل يُمكن أن توصَفَ بها مخلوقاته.

ليس كمثله شيء، وهذا ردّ على من شَبَّه ومثَّل صِفات الله بصفات مادِيّة، فهذا الذي يقول: له سَمْعُ كَسَمْعِنا، وإذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربنا إلى السماء الدنيا، فأحد الخطباء يشْرح هذا الحديث ويقول: ينزل كَنُزولي هذا ونزل عن المنبر درجة! فأنت إذا قلتَ: ليس كمثله شيء فلا يمكن أن يوصف مخلوق بصِفَةٍ خاصَّةٍ بالله، وإذا قلت: ليس كمثله شيء، فلا يمكن أن يرقى مخْلوق بصِفاته إلى صِفات الله تعالى.

قال: وهو السميع البصير ردٌّ على من نفى الصِّفات، فالآية على صِغَرها قال تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير رَدَدْنا على فرْقَتَين؛ المُجَسِّدَة والمُعَطِّلة، فالمُعَطِّلة عطَّلوا الصِّفات، والمُجَسِّدَة جعلوها صِفاتٍ مادِّيّة كالإنسان.

حياة الله غير حياة الإنسان يتشابهَا في الاسم فقط :

أقرأ لكم فقرة أساسيَّة: الله سبحانه وتعالى سَمَّى نفسه بأسْماء، وسَمَّى بعض عباده بها، هنا المُشْكِلة! ليس المُسَمَّى كالمُسَمِّي، إنسانٌ حيّ، تقول: فلان حيٌّ يُرْزق، والله تعالى حيٌّ لا تأخذه سِنَة ولا نوم، فيجب أن تعتَقِد اعتِقاداً قاطِعاً أنّ حياة الله غير حياة الإنسان، تشابَهَا في الاسم فحسب، فالله عز وجل رَحْمَةً بنا قرَّب لنا معنى الجنَّة فقال: فيها أنهار من ماء، وجنات، وعسل مُصَفى، ولبن لم يتغيَّر طعْمه، فيا تُرى ما العلاقة بين خمْر الدنيا وخَمْر الآخرة؟ لا علاقة بينهما إلا الاسْم، وكذا اللَّبن، والعسَل، فليس ما في الدنيا وبين ما في الجنَّة علاقة إلا الاسْم، كذلك إذا قلنا: الله تعالى حيّ قيُّوم، وإذا قلنا: هذا إنسانٌ لا يزال حيَّاً يُرزق، فهل حياة الإنسان كَحَياة الله؟ لا، هذا هو مِحْور الدّرْس، فالله تعالى سَمَّى نفسه حَيَّاً عليماً قديراً رؤوفاً رحيماً عزيزاً مؤمناً جباراً حكيماً سميعاً بصيراً مُتَكَبِّراً وسَمَّى بعض عِباده بهذه الأسْماء، قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

[سورة الروم: 19]

وقال تعالى:

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)

[سورة الذاريات: 28]

وقال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة: 128]

فهذا للنبي عليه الصلاة والسلام.

المُسَمَّى ليس كالمُسَمِّي :

وقال تعالى:

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

[سورة الكهف: 79]

فالله تعالى كذلك ملِك، فهل ذاك الملِك مثلُ الله تعالى في هذه الصفة، وقال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

فالله كذلك سمّى نفسه المؤمن، قال عز وجل:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الحشر: 23]

وقال تعالى:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

[سورة غافر: 35]

فالله تعالى جبار مُتَكَبِّر.

الله تعالى له أسْماء وله صِفات وسَمَّى بعض عِباده بأسماء إلا أنَّه لا تشابُه بين الاسْمين:

النُقْطة الدقيقة أنَّ الله تعالى سَمَّى نفسه بأسْماء وسَمَّى صِفاته بِصفات، وأطْلَقَها على بعض عباده في القرآن الكريم، والمعْلوم القَطْعي أنَّ الحَيَّ لا يُماثِلُ الحيَّ الآخر، فالله تعالى حَيّ والإنسان كذلك، إلا أنَّهُ شتَّان بين الحياتين! وكذلك يُقال في العزيز والعليم وسائر الأسْماء، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

معنى ذلك أنَّ عِلم الله تعالى غير عِلم البشر، قال تعالى:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة فاطر: 11]

الواجبات والفرائِض لا اسْتِخارة فيها الاسْتِخارة فقط في المُباحات والمندوبات :

أيها الأخوة الكرام، هذا هو درْسنا اليوم، فالله تعالى له أسْماء وله صِفات، وسَمَّى بعض عِباده في القرآن بأسماء، إلا أنَّه لا تشابُه بين الاسْمين إلا من حيث اللّفْظ فقط، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيِ اللَّه عَنْهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي

أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا]

فالإنسان لو أراد الذَّهاب إلى العمرة فهل يستَخير؟ الواجبات والفرائض لا استِخارة فيها، الاسْتِخارة فقط في المُباحات والمندوبات، فإذا كان عليه دَيْن فهل عليه أن يستَخير ؟ لا، هذا واجب، فالشاهِد من هذا الحديث قوله:

((فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ))

ثمَّ السؤال المطروح هو: كيف يعرف المُسْتخير أنّ الله تعالى قبل ما أراد فعله أو لم يقبلهُ؟ التَّيْسير أو التَّعْسير، وكُلّ شيء آخر زيادة ليسَتْ من أصْل الاسْتِخارة، فلو تَيَسَّر الأمْر، ووجَدْتَ عدم الانْشِراح، فأقْبِل، ففي هذا خير لا تعْلمه ما دامت الأمور مُيَسَّرة، لأنَّهُ لو لم يكن الأمر في صالِحِك لخلَقَ الله العقبات أمامه، فلا يغتَرّ المُسْتخير بأن يرى مناماً أو يفْتح المُصْحف.

الإنسان مخير :

هناك سؤال سأله أخٌ كريم ويقول: كيف يُقَلِّبُ الله تعالى قلوب العباد بين أصبعيه؟! وهل بهذا يُلْغى اخْتِيار الإنسان؟! أكثر دُعاء أُثِرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ قَالَ وَمَا يُؤْمِنُنِي وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ قَالَ عَفَّانُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عن عائشة]

فكيف نُوَفِّق بين هذا الحديث وبين أنَّ الإنسان مُخَيَّر؟ والجواب سَهْلٌ جداً، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)

[سورة محمد: 17]

فالحقيقة أنَّ الإنسان مُخَيَّر، فإذا اختار طريق الحق زاده الله من الهُدى بأن يشْرح قلبه للحق، والدليل قوله تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

[سورة الحجرات: 7]

والإنسان إذا أراد الباطل جعل في قلبه ضَيْقاً، فأن يكون قلبك بين أُصْبعين من أصابع الرحمن من أجل أن يُشَجِّعَك للخير، ومن أجل رَدْعك عن الشرّ، فأنت مُخَيَّر، ولا زِلْتَ مُخَيَّراً، وإرادة الله عز وجل لا تتناقض، وهي قاعِدَة أساسيَّة في العقيدة، فالله تعالى أرادك مُخَيَّراً، وكذا شاءَتْ مشيئتُه، فأنت جئتَ للدنيا والشرْط هكذا، فالإنسان مُخَيَّر فإذا اخْتار طريق الحق زاده الله من الهُدى بأن يشْرح قلبه للحق، فالله تعالى يتجلى على قلبك من اخْتِيارك الحق، وهذا هو الحال، فمُكافأة الله تعالى لك من حُسْن اخْتِيارك، وإذا أراد الباطل جعل في قلبه ضَيْقاً، وهذا هو الانقِباض، قال تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

[سورة الحجرات: 7]

عَلَّمونا في عِلم النفْس أنَّهُ بعد كُلّ انْحِراف شُعور اسمُه الكآبة، ولو كان المنحرف ملْحِداً، وعَمِلَ عمَلاً مُنْحَطاً، شعر بهذه الكآبة، فهذا هو معنى قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، الإنسان إذا خرج عن الفطرة شعر بالكآبة.

من رحْمة الله تعالى بالإنسان أن قلوب العباد بيَدِه :

شيءٌ آخر، وهو أنَّ الله عز وجل خلَق القَويَّ والضَعيفَ، والغَنِيَّ والفقير، فلو أنَّ الغنيّ لا يُحِبّك، وأنت مُسْتقيم، وأراد أن ينال منك، فكيف يمنع الله تعالى بؤس هذا الغنِيّ؟ فَقَلْبُ هذا الغنِيّ بيَد الله تعالى، يُلْقي في قلبه هيْبَتَك فيخاف منك، أو يُلْقي عليه العطف عليك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

تنتثلونها، أي تستخرجونها .

من رحْمة الله تعالى بنا أنَ قلوبنا بيَدِه. مثال آخر: أحدهم أحَبَّ فتاةً قبل أن يعْرف الله تعالى، ولما عرف الله تعالى رأى أنَّها لا تُناسِبُه، فما دام قلبهُ بيَد الله عز وجل كيف يُكافئهُ على هذا الاخْتِيار؟ يصْرِفُهُ عنها! قال: وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقِبةُ أمْري فاصْرِفْهُ عَنِّي، ولم يكْتَفِ بهذا بل قال: واصْرِفْني عنه، قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف: 33]

فالطريق الآن مليءٌ كما ترَوْن بكاسِيات عارِيات، فالله تعالى إذا عَلِمَ من عبْدٍ صِدْقاً في طاعته، فو الله الذي لا إله إلا هو، يمْشي في الطريق، وكأنَّهُ بين الرِّجال، ويصبح موضوع غضّ البصر سَهْلاً جداً، والله هو الذي صرفه عن هذه المعْصِيَة، فلو قال أحدهم: أنا مُلتَزِم، ولي إرادة قوِيَّة، واعْتَدَّ بِنَفْسِه، أُوكِل لنفسِه، فوَجَد نفسه تنْصرف إليْهنّ! فالإنسان لا يعْتَد بإستِقامته، وسلامة سلوكه، فيصاب بالغرور، وهذا الكلام كلّه يُلَخَّص بآية واحدة في الفاتِحَة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة: 5]

فهذا هو موقف العُبودية الذي يليق بالعبد نحو ربِّه.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (05-20) : الله قديم بلا ابتداء ودائم بلا انتهاء .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-03-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

في كلام الله تعالى من الدِّقَّة والوُضوح والإيجاز ما يُغْني عن كُلِّ تفْصيل :

أيها الأخوة المؤمنون، ننتقل في موضوع العقيدة إلى قول الإمام الطحاوي: "قديم بلا ابْتِداء، دائِمٌ بلا انتِهاء". هذه الفقرة من العقيدة مأخوذة من قوله تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

وقول النبي عليه الصلاة والسلام في دعائِه الشريف:

((اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ))

[مسلم عن سهيل]

أما قول الإمام الطحاوي: قديم بلا ابْتِداء، دائِمٌ بلا انتِهاء فهو مُطابقٌ تماماً لقول الله عز وجل:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

لازلْتُ أؤكّد حقيقة أن نسْتنبط العقيدة بِبَساطةٍ وبيُسْرٍ من كلام الله عز وجل، ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، لأنَّ في كلام الله تعالى من الدِّقَّة والوُضوح والإيجاز ما يُغْني عن كُلِّ تفْصيل.

الإيمان الفطري :

لا بدّ أن أقرأ لكم فقرةً من الكتاب تحتاج إلى شرْحٍ؛ يقول الإمام: والعِلْمُ بِثُبوت هذين الوَصْفين مُسْتَقِرٌّ في الفِطر، أيْ أنَّ الإنسان بِفِطْرتِه يعْتَقِد أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الأوّل بلا ابْتِداء، وهو الآخر بلا انتِهاء، فَمَعنى مُسْتَقِرٌّ بالفِطَر أي أنَّ الإنسان أحْياناً يؤمن بالشيء من دون دليل، فإذا آمن بالشيء من دون دليل فهذا اسْمه إيمان فِطْري، فلو أنَّك قرأت القرآن الكريم شعَرْتَ أنَّهُ كلام الله، وهذا الشعور أساسه أنّ فِطْرتك مجْبولةٌ على الإيمان بالله تعالى، ضَرَبْتُ مرَّةً مثلاً وقلتُ: لو أنَّنا جئنا بخارطة ذات بُعد ثالث، ووضَعْناها ضِمن إطار خَشَبي، ثمَّ صَبَبْنا عليها جِبْصيناً سائِلاً إلى أنْ جفَّ، لوجدنا تطابقاً تاماً على مُستوى مِعْشار المليمتر على الخارطة البارزة والمُجَسَّمة وبين هذا القالب.

أيها الأخوة، النَّفْس البَشَرِيَّة في تطابقها مع الشرْع الحنيف ومع الدِّين لا تعْدو على أن يكون التطابق تاماً! فأنت متى ترْتاح؟ إذا عرَفْتَ الله، ومتى تسْتَقِرُّ نفْسك؟ إذا اتَّبَعْتَ منهجه، ومتى تطْمَئِنّ؟ إذا ذَكَرْته، ومتى ترْكن؟ إذا اعْتَمَدْتَ عليه، ومتى تشْعر بالأمْن؟ إذا أطَعْتَهُ، معنى ذلك أنّ الفِطَر مَجْبولةٌ على الإيمان بالله والاسْتِعاذة به واللُّجوء إليه، مثلٌ آخر أقرب؛ هذه المرْكبة صُنِّعَت لِتَسير على طريق مُعَبَّد، فإذا سارَت في طريق وعْر لم تقْطف ثِمارها وتَكَسَّرَتْ، فهذه المركبة لهذا الطريق.

أيها الأخوة، العِلْم بِثُبوت هذين الوَصْفَيْن مُسْتَقِرٌّ في الفِطَر، وكُلُّكم يعْلم أنَّ هناك خالِقاً، وهناك ما سِوى الخالق، فما سِوى الخالق هي الموجودات، من كون وسماوات، قال: فإنّ الموجودات لا بدّ أن تنتهي إلى واجب الوُجود بذاته قطْعاً للتَّسَلْسُل، فما معنى هذا الكلام؟ أي إذا قلنا: مَن خلق هذا الكون؟ قلنا: خلقه إلهٌ، ومن خلق هذا الإله؟ خلقه إلهٌ آخر، ومَن خلق هذا الآخر؟ حلقة مُفْرَغَة، ونقع فيما يُسَمَّى التَّسَلْسُل غير المُتناهي، فلا بدّ إذاً أن نقْطع هذا التَّسَلْسُل، وهكذا يُقِرُّ العقل أنَّ برهان التَّسلسل يعني أنَّهُ لا بدّ في النِّهاية من خالقٍ لا يحْتاج إلى مَن يخْلُقه، وما سِوى ذلك مَخْلوقون، هذه الموجودات يجب أن تنْتهي إلى واجب الوجود بذاته، مثل أقرب من ذلك أن نقول: من أين هذه البيضة؟ من الدجاجة، ومن أين هذه الدجاجة؟ من البيْضة، ثمَّ نبقى نُكَرِّر هذا الحدث، فلا بدّ أن ننتهي إلى أنَّ هناك دجاجة خلقها الله مباشرةً هي التي أخْرجت بيْضةً، والدجاجة هي التي خرجت من هذه البيْضة، أما أن نسْتمِرّ إلى ما لا نِهاية فهذا تَسَلْسل غير متناهٍ، فلا بدّ من قطْع هذا التَّسلسل، والعقْل لا يقبل تسَلْسُلاً لا نِهائيّاً، فالتَّسلسُل حاصِل، أما التَّسلسل اللانِهائي فمَرْفوض.

الوجود والعدم :

قال: فإنَّنا نُشاهد حُدوث الحيوان أمام أعيُنِنا، فالذي عنده هِرَّة قد يسْتيْقِظ أحْياناً، وقد ولَدَتْ له هرر كثيرة، وكذا النبات والمعادِن، وحوادِث الجوّ كالمطر، وغير ذلك، وهذه الحوادِث وغيرها ـ دَقِّقوا ـ ليْسَتْ مُمْتَنِعَة إنَّما هي مَوْلودة، هناك حيوان يولد، ونبات ينْبت، ومطر ينزل، وبُحَيْرة تتشَكَّل، ونَهْر يُشَق، وبئر يُحْفَر، إذاً هناك موجودات، وهذه الموجودات ليْسَت ممْتَنِعة أي يُمْكن أن توجد، فإنَّ المُمْتَنِع لا يوجد، فلو أنَّها كانت ممتنِعة لم تكن موجودة، فما دامتْ ليْست ممتنِعَة فهي موجودة وليْسَت واجِبَة الوجود لِنَفْسِها، فأيّ شيءٍ موجود إلا أنّه لا يسْتطيع أن يخْلق ذاته بذاتِه، فإذا قلنا ممتنِعة أي غير موجودة، وإذا قلنا موجودة معنى ذلك أنَّها لا توجد بذاتِها، قال: فإنّ الممتنِع لا يوجد، وليْسَت واجبة الوُجود بِنَفْسِها، فإنَّ واجب الوُجود بِنَفْسِهِ لا يقبل العَدَم، فلا يُمكن أن يسْبقه عَدَم، وهذه الأشياء كانت مَعْدومة ثمَّ وُجِدَت، فَعَدَمُها ينْفي وُجودها بِنَفْسِها، ووُجودها ينفي امْتِناعُها، وما كان قابلاً للوُجود والعَدَم

لم يكن وُجوده بِنَفْسِه، إذاً ما سِوى الله تعالى موجود، وليس مُمْتَنِعاً، وما سِوى الله تعالى موجودٌ، ولكن ليس بِذاتِه، والسَّبب أنَّهُ سبقه عدم، ولو كان هذا الموجود واجِباً بِذاته لما سَبَقَهُ عَدَم! كما قال تعالى:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور: 35]

هذه الآية النَّيِّرَة والمُشْرِقة والواضِحَة الدلالة، هل هم أوْجَدوا ذاتهم بِذاتِهم؟ لا، فهذا الموجود يحتاج إلى واجب الوجود قطْعاً بالتَّسَلْسُل، وهذا الموجود لا يُعقل أنَّهُ وُجِدَ بِذاته والدليل أنَّهُ لا يسْبقُهُ عدم، إذاً كلّ هذا الكلام الذي غاص فيه المُتَكَلِّمون مُلَخَّصُه قوله تعالى:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور: 35]

أَحَدَثوا من غير مُحْدِث، أم هم أحْدثوا أنفسهم؟ والمعلوم قطْعاً أنَّ الشيء المُحْدَث لا يوجِدُ نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وُجود ولا عدم لا يكون موْجوداً بِنَفْسِه بل لا بدّ من جِهَةٍ توجِدُه، وإلا كان معْدوماً، وكلُّ ما أمكن وُجوده بَدَلاً من عدمه، وعدمه بَدلاً من وُجوده، فليس له من نفسِه وُجودٌ ولا عدم لازِمٌ له، فالكون موجود وليس مُمْتَنِع، ولكنَّ هذا الوُجود ليس بِذاتِه، إذاً هذا الموجود لا بدّ له من واجب الوُجود قطْعاً للتَّسَلْسُل، وهذا الكلام يندرج كلّه تحت قوله تعالى:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور: 35]

أحياناً يُغرم الإنسان بِكُتب بعيدةٍ في منهجها عن منهج الله تعالى، يقول الله عز وجل:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)

[سورة الفرقان: 33]

لذلك فالإنسان إذا وُفِّق إلى اتِّباع منهج القرآن في العقيدة فقد وُفِّقَ أوَّلاً: إلى عقيدَةٍ صحيحة، ثانِياً: واضِحَة، ثالثاً: بسيطة، رابعاً: يُمكن أن يحْفَظها من دون تَعْقيد.

ليس كلّ فعْل من أفعال الله عز وجل لنا الحقّ أن نسْتنبط منه اسْماً من أسْمائه عز وجل:

الله سبحانه وتعالى أوّلٌ بلا بداية، وآخر بلا نِهاية، علماء الكلام اصْطَلَحوا على تَسْمِيَة هذه الصِّفة في ذات الله عز وجل أنَّهُ تعالى: القديم، لكن ينبغي أنْ تعْلموا أنّ اسم القديم ليس من الأسْماء الحُسنى التي وَرَدَت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ليس كلّ فعْل من أفعال الله عز وجل لنا الحقّ أن نسْتنبط منه اسْماً من أسْمائه عز وجل، فالله تعالى قال:

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

[سورة الأنفال: 30]

فهل يحِقُّ لنا أنْ نُسَمِّيَ الله تعالى الماكر، أعوذ بالله، وقال تعالى:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً *فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

[سورة الطارق: 15-17]

فهل يحِقّ أن نُسَمِّي الله الكائِد؟ لا يجوز هذا، وقال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[سورة الذاريات: 47]

فهل نُسَمِّي الله تعالى الباني، لم يرد في حديث رسول الله أنَّ اسمه الباني، أما نحن فقد استَنْبطنا مِن هذا الفعل بنى، وهو لا يجوز، إذاً اسم القديم ليس من أسماء الله الحُسْنى.

التَّمَكُّن من لغة العرب أحد الأدوات التي لا بدّ منها لِفَهْم كلام الله عز وجل :

أيها الأخوة تَعالَوا إلى لُغَة العرب، ألم يقل الله عز وجل:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

[سورة الزخرف: 3]

ماذا تعْني هذه الآية؟ وماذا تعْني الآية الأخرى:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

[سورة الشعراء: 195]

معنى ذلك أنَّ هذا القرآن نزل بِلُغَة العرب، وينبغي أن يُفْهَمَ وَفْق لُغَة العرب، لذلك التَّمَكُّن من لغة العرب أحد الأدوات التي لا بدّ منها لِفَهْم كلام الله عز وجل، (القديم) في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المُتَقَدِّمُ على غيره، فيُقال: قديمٌ للشيء العتيق، وهذا حديثٌ للشيء الجديد، ولم يُسْتعْمل هذا الاسم إلا في المُتَقَدِّم على غيره، لا فيما لم يسْبِقْهُ عَدَم، والله عز وجل قال:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

فكَلِمَة أوَّل أصَحُّ من كلمة قديم، فالقديم في اللُّغة هو الشيء المُتَقَدِّم على غيره، فالله عز وجل لم يسْبِقه عدم، لكن أيُّ شيء جاء قبل شيء نقول: هذا قديم، وهذا جديد، والدليل قوله تعالى:

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

[سورة يس: 39]

العُرْجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فقد يبقى عرجون النَّخل إلى العام القادم، ويظهر عرجون جديد، فنُسَمِّي الأوَّل قديماً، ونُسَمِّي الثاني جديداً، فمعنى القديم الشيءُ الذي تَقَدَّمهُ شيء.

التثليث في اللغة العربية :

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)

[سورة الأحقاف: 11]

أي مُتقدِّم في الزمان، قال تعالى:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ)

[سورة الشعراء: 75-76]

فالأقدمي مبالغة في القِدم، كلكم إذا قرأ كتاب الإمام الشافعي يجد مصطلح القديم والجديد، فهو رحمه الله تعالى له مذْهب قديم وآخر جديد ولا شكَّ أنَّ هذا مرَّ بكم، قال تعالى:

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

[سورة هود: 98]

فالقدَم سُمِّيَت قدَماً لأنَّها مُتَقدِّمة، وكلكم يعلم أنَّهُ في اللغة العربيَّة شيء اسمه التَّثْليث؛ وهو أن تقول: قدَمَ وقدِمَ وقدُمَ، فمعنى قدُمَ أصبحَ قديماً، ومعنى قدِمَ أي حَضَر، ومعنى قدَمَ أي أنَّهُ سبقه بقدَمِه، وكذا البَرّ والبُرّ والبِرّ، فالبَرّ اليابسة، والبُرّ القمْح، والبِرّ الإحْسان،، فكُلّ حركَةٍ توجب معْنىً خاصاً؛ خُلُقٌ وخَلِقٌ وخَلْقٌ؛ فالخُلُق الأخلاق، والخلْق البُنْيَة، والخَلِق المُهْترئ، حَسَبَ وحَسُبَ وحَسِبَ، فَحَسِبَ ظنَّ، وحَسَبَ عدَّ، وحَسُبَ افْتَخَر بِحَسَبِه؛ كلمات كثيرة في هذا الموضوع، إلا أنَّه توجد كلمات مُثَلَّثة بِمَعْنى واحد، كالمَصْحف والمُصْحَف والمِصْحَف، ورَغْمَ ورُغْمَ ورِغْم، كلُّها بِمَعنى واحد، فقوله تعالى:

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)

[سورة هود: 98]

أي يتَقدَّمهم، ويُسْتعمل الفعل لازماً ومُتَعدِّياً، فاللازم ما اكْتَفى بِفِعْلِه، نحو: نام فلان، والمُتَعَدِّي ما يتعَدَّى إلى مفعول به، تقول: أكل الطفلُ التفاحة، وشرب الرجلُ الماءَ، إلا أنَّهُ في اللغة أفعال بين بين، فلا هي لازِمَة ولا هي مُتَعَدِّيَة وهذا الفعل اسمه القاصِر، وهو الذي يتعدى إلى مفعول به في المعنى عن طريق أداةٍ هي حرْف الجرّ، تقول: نظرْتُ إلى الحديقة، فالحديقة مفعول به، إلا أنَّ فِعْل نظر قاصِر، لذلك الأفعال القاصرة لها أدوات خاصَّة بها.

أسلوب التضمين :

قالوا لنا في الجامِعَة: إنَّ أديبَين في العالم العربي سَلِمَ أسْلوبهما من الخطأ في اسْتِعمال الأدوات، كأن يقول: دعا لِكذا، وهو خطأ، إذْ الصحيح دعا إلى، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصّلت: 33]

وهو خطأ شائِع، لكِنَّ القرآن وحده أحياناً يسْتخدِم أداةً ليستْ لهذا الفِعْل، وهو أُسْلوب التَّضْمين، قال تعالى:

(وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً)

[سورة النساء: 2]

ليس في اللغة أكل إلى، فهذا تَضْمين، كأنّ ربنا عز وجل يتَبْديل الأداة المُتَعلّقة بهذا الفعل يسْتخدم فعلين معاً، فالأوّل المَلفوظ بلا أداة، والثاني الفعل الذي له هذه الأداة، وهو بحث رائِع جداً، يُدَرَّسُ في قواعِد اللغة العربيَّة، عند باب التَّضْمين.

وَصَلْنا إلى قوله: هذا أقدم من هذا وهو يَقْدُمه، ومنه سُمِّيَت القَدَمُ قدَماً لأنَّ الإنسان يتَقَدَّمُ بها، وأما إدْخال اسم القديم في أسماء الله تعالى فهو مَشْهور عند أهل الكلام، ولا ريْب أنَّهُ إن كان مُسْتعْمَلاً في نفس التَّقدّم فإنَّ ما تَقَدَّم على الحوادِث كلّها هو أحقُّ بالتَّقدُّم، لكنّ أسماء الله تعالى هي الأسْماء الحُسْنى التي تَدُلّ على خُصوص ما يُمْدح به، والتَّقدُّم في اللغة مُطْلقٌ، ولا يخْتَصُّ بالتَّقدم على الحوادِث كلّها، فلا يكون من أسْماء الله الحُسْنى القديم ولكن الأوَّل، وهو أحْسَنُ من القديم لأنَّهُ يُشْعِرُ بأنَّ ما بعده آيلٌ إليه وتابِعٌ له بِخِلاف القديم، والله تعالى له الأسْماء الحسْنى لا الحَسَنة، وفرق بينهما كبير! فالأسْماء الحُسنى اسم تفْضيل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصّلت: 33]

فالأحْسن للمُذَكَّر، والحُسْنى للمُؤَنَّث.

الإيجاز في القرآن الكريم :

قوله: لا يفْنى ولا يَبيدُ إقْرارٌ بِدَوام بقائِه سُبْحانه وتعالى، من أين أخذْنا هذه الحقيقة في عِلْم التوحيد؟ قال تعالى:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ*وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 26-27]

وقوله تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 78]

لماذا في الآية الأولى ذو، وفي الثانية ذي؟! لماذا في الأولى وَجْهُ رَبِّكَ ذو، وفي الثانِيَة تبارك اسمُ ربِّك ذي؛ هنا السؤال؟! لأنَّ الوجه ذات، بينما الاسم عرض، فنحن نَصِفُ الذات من الوجْه، أما اسم الله عَرَض.

الإيجاز في القرآن الكريم سَمَّاه علماء البلاغة إيجازاً غَنِيّا، أي كُلُّ الصِّفات المُتَعَلِّقة بالله عز وجل، وكلُّ الصِّفات المتعلِّقة بكَرَمِه، ورحْمَتِه، وإحْسانِه بِخَلْقِه إكْرامٌ، فَبِهاتين الصِّفَتَيْن جَمَعْنا صِفات العَظَمة والإحْسان.

والفناء والبَيْد مُتقاربان في المعنى، والجمع بينهما في الذِّكْر للتأكيد، وهو أيضاً مُقَرَّر بقوله: دائِمٌ بلا انتِهاء، لا يفْنى ولا يَبيدُ.

أيُّ شيء وقع في الكون أراده الله وأيُّ شيء أراده الله وقع :

نُتابع ما جاء في العقيدة الطحاويَّة، وننتقِل إلى قول الإمام الطحاوي: "ولا يكون إلا ما يُريد"، وهذا الموضوع يحْتاج إلى دِقَّة في الفهْم بالغة، أيُعْقل أن يقع في كون الله شيء ما أراده الله؟! واللهِ أيها الأخوة، لو أنَّكم عَقَلْتم هذه الحقيقة لكانت هذه الحقيقة برْداً وسَلاماً على قُلوبكم؛ أيُّ شيء وقع في الكون أراده الله، وأيُّ شيء أراده الله وقع، ولا يكون إلا ما يريدُ، إلا أنَّ بعض الفِرَق الضالة كالقَدَريَّة والمُعْتَزِلة زَعَموا أنَّ الله تعالى أراد الإيمان من الناس إلا أنَّ الكافر أراد الكُفْر! ماذا يوحِي هذا الكلام؟ أنَّ الكافر أراد شيئاً ما أراده الله تعالى، وهذا لا يليق بِعَظَمَة الله عز وجل، فلو أنَّ إنساناً مُتَمَكِّناً في دائرة، وجاء مُوَظَّف عنده، أو أحد صُنَّاعِه، وفعل شيئاً خِلاف أوامرِ هذا الإنسان العظيم لأنكر عليه كل الإنكار، فالله تعالى لا يقع في كونه إلا ما يريد، فالقَدَريَّة تَوَهَّمَت أنَّ الكافر أراد الكُفْر خِلافاً لإرادة الله تعالى، قال: هذا القول فاسِد، ومَرْدود لِمُخالفته الكتاب والسنَّة والمَعْقول الصحيح، وهي مسألة القدَر المعْروفة، وسوف يَرِدُ شرْحُها إن شاء الله تعالى، سُمُّوا قَدَريَّة لإنْكارهم القَدَر، والجَبْريَّةُ أيْضاً اعتَمَدَت على المفْهوم القَدَري، واحْتَجُّوا بأنَّ الإنسان مُجْبَرٌ على أفْعاله، فما هو الحق؟ فالذي يحْصل في الأرض من مشاكل، وقتْل، وانْتِهاك للأعْراض، وفساد، وظلم، هل أراده الله تعالى؟ فإذا قلتَ: أراده، فلِمَ أراده؟ وإذا قلتَ: ما أراده فلِمَ وقع؟ الشرّ المطلق غير موجود، والشرّ للشرّ كذلك غير موجود، لو أنَّ أباً وابنه اتفقا على إجراء عَمَلِيَّة جراحية، فإنّ الطبيب الجراح لا يمكن أن يفتح بطْن ابنه إلا بموافقة الأب، وفَتْحُ البطْن شرّ إلا لإجْراء عَمَلِيَّة لشفاء ابنه، فلا يكون هذا الأمر إلا لِهَدَفٍ نبيل جداً، كاسْتِئْصال عضوٍ

تالف، فهذه أوَّل قاعِدَة، شرّ مُطْلق لا يمكن أن يكون، أما الشرّ النِّسبي فمَوْجود، كَخَرْق السفينة، قال تعالى:

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً)

[سورة الكهف: 71]

وفي قراءة لِيَغْرَقَ أهلها، ثمَّ تَبَيَّن أنّ خرْقها سبب نجاتِها، فلا يُمكن أن نفهم ما يجْري في الأرض من شرّ إلا وَفْقَ هذه الحقيقة، إلا أنَّك قد لا تعرف ما وراء كلّ حادِث، ألسْتَ مؤمناً بأنَّ الله سبحانه وتعالى صادِق، وأنّ هذا الكلام كلامه، وأنَّهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ كثيرةٍ نفى عن نفْسِه الظلم، قال تعالى:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

[سورة النِّساء: 124]

عقيدة أهل السُّنة والجماعة أنّ الإنسان جاء إلى الدنيا ليُمتحن :

كنت أسير مرَّةً في أحد أسواق دمشْق، فاسْتَوْقفني أحد المارَّة، وقال لي: فلان الفلاني جاء إلى مَحَلِّه التِّجاري لِيَكْسب قوت أولاده، فَسَمِع إطلاقَ نارٍ، وكان اثنان يتشاجران، فَمَدَّ رأسه فجاءَت رصاصةٌ في عموده الفقري، وأصبح مشْلولاً من حينه، فقال لي هذا الأخ: وما ذَنْبُه؟ ولماذا فُعِلَ به هكذا؟ فقلتُ: لا أدْري، فهذه الكلمة تُشَرِّف أحْياناً، فهذا الإمام مالك عليه رحْمة الله قال: لا أدْري عندما جاءه وفْدٌ يسْأله عن مسائل، وبعد حينٍ أخٌ كريم قال لي: هناك رجل يسْكن في الحيّ الفلاني، وله أوْلاد أخ أكل أموالهم بالباطل، وقد احْتَكَموا إلى أحد العلماء فلما طولب بما عليه لأولاد أخيه رفض! فَتَوَجَّه هذا العالم إلى أولاد الأخ، وقال لهم: إياكم أن تشْتكوا على عَمِّكم، فهذا لا يليق بكم، ولكن اشْكُوه إلى الله تعالى! فهذا الكلام تَمَّ في الساعة الثانِيَة ليلاً، ففي الساعة الثامِنَة صباحاً أصْبح مَشْلولاً، فَيَجب أن تعلم أنّ كل شيء وقع وراءه حِكمة، سواء عَرَفْتها أم لم تعْرفها، أما أهل السنَّة فيقولون: إنَّ الله وإن كان يريد المعاصي قَدَراً فهو لا يُحِبُّها، ولا يرْضاها، ولا يأمر بها، وهنا سؤال: لماذا أراد؟ ضَرَبْتُ مثلاً، فقلْتُ: صَيْدلي يريد مُوَظَّفاً، إلا أنَّ هذا الموظَّف لا بدّ أن يكون على مُسْتوى رفيع، فأعلن عن مُسابقة، والامتِحان سَهل، ترتيب الفيتامينات في مكانها، وكذا السموم، فلو أمْسَك هذا الممتحن الفيتامين ليضعه فوق السموم لَوَجدْتَ أنَّ الذي أقام الامْتِحان لا يمْنعه! لماذا؟ لأنَّه الآن يمْتَحِنُه، ويُعْطيه الفرصة للتعبير عن علمه أو عن جهْلِه، فالله عز وجل إذا قلنا: أراد أي سَمَح، ولماذا سَمَح؟ لأنَّه أعْطاك الاخْتِيار، وهو الآن يمْتَحِنُك، أما لو مَنَعْتَ إنساناً في أثناء الامْتِحان، فقد ألْغَيْت امْتِحانه، فأهل السنَّة والجماعة قالوا: إنَّ الله تعالى وإن كان يريدُ المعاصي قَدَراً فهو لا يُحِبُّها، ولا يرْضاها، ولا يأمر بها، قال تعالى:

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

[سورة إبراهيم: 8]

فهو أراد، أي سَمَح، وسمَح لأنَّهُ يمتَحِنُك، وإذا ألغى حركتك في الامْتِحان فقد ألغى امْتِحانك، وأنت جئت للدنيا لِتُمْتَحن، وهي عقيدة أهل السنَّة والجماعة.

فالله تعالى لا يُحِبُّها، ولا يرْضاها، بل يُبْغِضُها، ويسْخطها، ويكْرهها، وينْهى عنها، وهو قوْل السّلف قاطِبَة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإنَّ الإنسان إذا اسْتَحكَمت به الشَّهوة وأصَرَّ عليها، أصْبَحَت هذه الشَّهْوة حِجاباً بينه وبين الله، فلَعَلَّ الحِكْمة أن ينطلق إليها كي تفْرغ نفْسه، وكي يأتي العِقاب على أثر هذه الشَّهْوة التي أصرَّ عليها، وحتى تفرغ نفسه من هذه الشَّهوة، ولله تعالى في خلقه شؤون.

إرادة الله تعالى الدِّينِيَّة الشَّرْعِيَّة :

هذا الموضوع إن شاء الله تعالى سنُتابِعُه في وقتٍ آخر، إلا أنَّني أنْهي هذا الحديث بهذه الآيات، فالله تعالى أراد أي سَمَح، لكن هناك آيات أخرى يكْفي أن تسْمعوها، قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة البقرة: 185]

وقال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

[سورة النساء: 26]

وقال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

[سورة النساء: 27]

وقال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: 28]

وقال تعالى:

(مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ)

[سورة المائدة: 6]

قال تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)

[سورة الأحزاب: 33]

ماذا يريدُ الله عز وجل؟ الخير، والسعادة، والتوبة، والفلاح، والنَّجاح، فهذه إرادة الله تعالى الدِّينِيَّة الشَّرْعِيَّة.

إرادة الله تعالى التَّكْوينِيَّة :

أما إرادة الله تعالى التَّكْوينِيَّة فمُتَعَلِّقَة بمُعالَجَةِ الإنسان، أحْياناً تفعل شيئاً يتناقض مع حياتك، زوْجان مُتخاصِمان، وكل يوم في مُشْكِلة، فلو أنَّهما احْتَكما إلى قاضٍ شرعي لِيَحْكم بينهما ويُفَرِّق بينهما إلى أمَدٍ حتى يعْرف كل منهما قيمة الآخر فالقاضي فَرَّقَ لِيَجْمع، فالله تعالى له إرادة شرْعِيَّة، أما إذا أراد بمَعنى سَمَح، كأن يسمح الله لإنسان أنْ يزْني، أو أن يسْرق، فقد سَمَح له تطْهيراً، وتأديباً، وامْتِحاناً، فهناك إرادتان: تَكْوينِيَّة أو تشْريعِيَّة، أو أن نقول: هناك أمر تكليفي وآخر تكويني، فالتَّكْليفي أمرك بالطاعة، أما التكويني فقد سمح لك أن تعْصِيَهُ لِحِكْمةٍ بالغة لا تعرف قيمتها إلا بعد حين، لذلك احْفظوها: كلّ شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله تعالى مُتَعَلِّقة بالحكمة المطلقة، وحكْمته المطلقة مُتَعَلِّقة بالخير المطلق، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران]

هذه الفِكرة لو اسْتوعَبَها الإنسان لَمَلأت قلبهُ طمأنينةً واسْتِقْراراً، ويقيناً وراحَةً، فأنت اِفْعَل ما تشاء لكن إياك أن تتَّهمَ الله عز وجل، لأنَّ هناك كوناً خلَقه الله عز وجل، ولأنّ هناك أفعالاً يفْعلها، فإذا أردتَ أن تنظر في أفعاله قبل أن تنظر في كونه فقد لا تصِلُ إليه وتُسيء الظنَّ به، أما لو نَظَرْتَ إلى خلقه أوَّلاً لامْتلأت نفسك تعْظيماً له، فإذا نظرْتَ إلى أفعاله لعلَّ النظر الأوَّل ألْقى على النَّظر الثاني ضَوْءاً كاشِفاً، فلو أنَّك رأيْتَ شخْصاً يضْرب طفْلاً فقد تسْتنكر هذا، أما لو قيل لك: هذا أب، فَحَتْماً هذا الضرب رحْمَة بالابن، أما لو غَفَلْتَ عن الابن، ونظرْتَ إلى الأب لاتَّهمتَه بالظلم والقسْوة، فأنا أريد أن نُفَكِّر في الكون قبل التفكير في الحوادِث لأنَّ التفكير في الحوادِث حقل ألغام، أما لو فَكَّرتَ في الكون لعرفْتَ الخالقَ، وتقول هذه المقولة: عظمة الخلق تدلّ على كمال التَّصرُّف، فابْدأ بالكون، ثمَّ انْظر إلى أفعال الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (06-20) : الله لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-25

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة الأساسيَّة في عِلْم التوحيد وعلم العقيدة أنَّ عَيْن الجهْل به عيْن العلم به:

أيها الأخوة المؤمنون، نحن مع موضوع جديد أساسه قول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى: "لا تبْلغه الأوهام، ولا تُدْركه الأفهام"، مِن حين لآخر أُكَلِّفُكم قِراءة النصوص، وأنا أُعلّق عليها، لكن أردْتُ من هذا الدرس إعْطاء بعض القواعد التي أنتم بأمَسِّ الحاجة إليها من حيث اللُّغة. قال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً)

[سورة طه: 110]

أنت بِعَقْلِك تصِلُ إلى الله أم تُحيطُ به علماً؟ الوُصول شيء، والإحاطة شيء آخر، فأنت بِمَرْكبتك تسْتطيع أن تصل إلى البحر، وأن تراه، وتستمتع بجمال البحْر، وعمقه، وامْتِداده، أما أن تُحيط بالبحر فهذا مُسْتحيل، لذلك الحقيقة الأساسيَّة في عِلْم التوحيد وعلم العقيدة أنَّ عَيْن الجهْل به عيْن العلم به، وأنّ عين العلم به عَيْن الجهْل به، فوَطِّنْ نفسك أن تقول: لا أدْري، لأنَّه لا أحد يسْتطيع أن يُحيط بالله سبحانه، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 256]

قال الإمام الطحاوي: قال في الصحاح تَوَهَّمْتُ الشيء ظَنَنْتُه، وفهِمْتُ الشيء علمتُه، ومُراد الشيخ رحمه الله لا يملك بهواه، ولا يُحيط به علماً، أنا أتمنى على أخوتنا الكرام أنَّهُ إذا ذُكِر إمام جليل، أو عالم، أو فقيه أن تقول كما قال شارح هذا الكتاب رحمه الله تعالى، وأن تقْتصر في كلمة رضي الله عنه على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ووجَدْتُ أكثر العلماء يتَّجِهون هذا الاتِّجاه، فإذا ذُكِر الصحابي تَرَضَّوا عنه، وإذا ذُكِر العالم الجليل، أو الفقيه تَرَحَّموا عليه، فإذا ذكرتَ الإمام الغزالي قلت: رحمه الله تعالى، وإذا ذُكِر سيِّدنا معاذ بن جبل قلت: رضي الله عنه، إلا أنَّهُ على وَجْه التحقيق اليقيني ليس هناك من أهل الجنَّة إلا الذين بَشَّرهم النبي عليه الصلاة والسلام، وما سِوى ذلك فرجاءً، وهذا من الأدب مع الله تعالى، بل إنّ هذا الأدب تَحَلّى به النبي عليه الصلاة والسلام.

أن تعرف حقيقة الألوهيَّة هذا فوق طاقة البشر بما فيهم الأنبياء :

عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ـ أيْ وقع في سهْمنا ـ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَداً بَعْدَهُ أَبَداً))

[البخاري عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

معرفة المُسْتقبل ليس من صفات العبْد، بل هي من صِفات الربّ، فَمَن تألَّى على الله تعالى، وحَكَم عليه فقد تجاوَزَ حَدَّهُ، ولاحِظوا أهل العِلم إذا أثْنَوا على إنْسان، وتَحَدَّثوا عنه يقولون: ولا نُزَكِّي على الله أحداً، والشيء الثابت أنّ معرفة خبايا النفوس أمرٌ مَوْكول إلى الله عز وجل، فأنت كَدَاعِيَة إذا سئلتَ: هل فلان من أهل الجنَّة أم من أهل النار؟ فقلْ: هذا من شأن الله تعالى وليس من شأننا، توزيع الألقاب والمراتب من تقوى، وصلاح، وإيمان، وهذا منافق، وذاك كافر؛ كلُّ هذا لا يليق بالإنسان، قال تعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

[سورة الأنعام: 104]

فكلما زاد عِلمك ازْداد أدبك لأنَّ مؤشِّر العِلْم يسير معه مؤشِّر الأدب، والحقيقة أنّ الذي يُفَرِّق العالم عن الجاهل هو الأدب الرفيع الذي يتحلّى به العالم، فلو سئلتَ عن إنسان ورأيته يشْرب الخمْر أمامك، فلا تقل: لعلَّه يكون أحْسن منِّي، فهذا هراء، فالواجب أن تقول: هذه معْصِيَة إذا مات عليها فحالته خطيرة، أما إذا تاب إلى الله تعالى فلعلَّه يسْبقني بعد التوبة، وهذا الكلام كلامٌ عِلْمي يتماشى مع كتاب الله تعالى عز وجل.

فالفهم هو ما يُحصِّله العاقل ويُحيط به، والله تعالى لا يحيط بكيفه إلا هو، حتى الأنبياء، وسيِّدُ الأنبياء يقول: لا يعلم الله إلا الله، أن تعرف حقيقة الألوهيَّة هذا فوق طاقة البشر، بما فيهم الأنبياء.

العِلْم من خصائِصه القطْع والواقع والدليل :

تعلمون أيها الأخوة أنَّ الوهم، والشكّ، والظنّ، وغلبة الظنّ، واليقين، والقطْع، إذا أمكن أن نُعْطي لهذه المصطلحات أرْقاماً فالوَهم ثلاثون بالمئة إلى خمْسة عشر، والشكّ خمسون بالمئة، والظنّ سبعون أو

ثمانون، وغلبة الظنّ عشرة زائدة، والقريب من القطع اليقين، أما القطْع فمئة بالمئة، فالعِلم هل يفيد القطْع أمْ الظنّ؟ العِلْم هو القطْع حقيقة، وعلاقة مقطوع بها مُطابقة للواقِع يُؤَيِّدُها دليل، إذا أردْتَ التعريف الحقيقي للعِلْم؛ حقيقة مَقْطوعٌ بها يُؤَكِّدُها الواقِع، أو مُطابقة للواقع، عليها دليل، فالآن اِحْذف الدليل، ماذا يبقى؟ التَّقْليد، اِحْذف الواقع؛ تُصبح هذه المَقولة جهلاً، فالمقولة إذا خالفت الواقع فهي جهْل وإذا افْتَقَرَتْ إلى الدليل فهي علم، أما إذا شُكَّ في مِصْداقِيَّتِها كأن تكون وهْماً أو شَكاً فليْست بِعِلْم، فالعِلْم من خصائِصه القطْع، والواقع، والدليل، ويا أيها الأخوة أنتم كدُعاة ما دُمْتَ مع الواقِع يُصْغي إليك وأنت مُحْتَرَم، أما إذا ابْتَعَدتَ عن الواقع فَقَدْتَ قيمة العِلْم، لأنَّ الواقِع خلْقُ الله، والقرآن كلامه، والفِطْرة مقْياس نفسي أوْدعَهُ الله فينا، والعقْل مِقياس عِلْمي أوْدَعَهُ الله فينا، فالحقّ يتوافق مع الواقع، والفِطْرة، والعقْل، ومع النَّقل فإذا أُلْغِيَ الواقع فنحن في الجهل، حقيقةٌ تعلمونها وهي أنَّ الجهل لا يعني افْتِقارك إلى المعلومات، لكنَّ الجهل أن تمْتَلِك معلومات كلّها مغْلوطة! ألاَ يوجد من يتكلَّم ساعة في سهْرة من السهرات كلُّها فلسفة، ويقول: رأيي كذا وكذا، فالجاهل يتحرَّك بالوَهْم، ومعلوماته كلّها مغْلوطة، أما العالم فهو الذي يمتلئ وِعاؤه حقائق، يَدْعمها العقل، والفطرة، والواقع، أما الذي لا يعلم شيئاً فهو الأمِّي، فالأمِّي شيء، والجاهل شيء آخر.

لا يمكن أن نعرف الله إلا من طريقين الأوَّل من خَلْقِهِ والثاني من كلامه عن نفسه:

هناك نقطة مهمّة جداً أنتم في أمَسِّ الحاجة إليها وهي أن تجد فلاناً من الناس يحمل دُكتوراه! فهذا ليس له علاقة، فكما أنَّك ـ وقد تكون طالب عِلم منذ عشرين عاماً ـ دَرَسْتَ القرآن، وحفظْته، وفهمْته، وفسَّرْته، فلعلّك في قِمَّة العِلم، ولو عُرِضَ عليك تَخْطيط قلب لم تفْقهْ منه شيئاً، فأنت أُمِّيٌّ أمام هذا التخطيط، ولعل الطبيب نفسه لا حظَّ له في علم الدين، فهذا الطبيب أمِّيٌّ في الدِّين، أما في الطب فهو عالم، فالنقطة الدقيقة التي ما رأيتْ أدَقَّ منها قول الإمام عليٍّ كرَّم الله وجْهه: نحن نعرفُ الرِّجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرِّجال، فإذا قال إنسانٌ كذا فنحن عندنا منهج؛ كتاب وسنَّة، وعندنا قرآن، وكلام النبي العدنان، وآراء المُجْتهدين، فلا يكفي أن يقول فلان كذا حتى يكون كلامه حقاً، نحن نُقَيِّم الرجل من كلامه، وليس لنا أنْ نقيِّم الكلام من الرجل، فهذه نقطة دقيقة جداً، كلّما نما عِلْمك لا تؤخذ بالأشخاص إنما بالحقائق، وكلما قلَّ عِلْمُك تؤخذ بالأشْخاص، ولذلك الحق ـ انتبه لهذه الحقيقة ـ تصغر فيه الأشْخاص، وتكبر فيه المبادئ، والباطل تصغر فيه المبادئ، وتكبر فيه الأشْخاص، ففي حقل الباطل الأشخاص كُبراء، أما في حقْل الحق الأشْخاص صِغار، والمبادئ هي الكبيرة، فالمبادئ غير الأشْخاص، فأنت اِجْعل تعاملك في الدعوة إلى الله مع المبادئ، المبادئ ترفع الإنسان، أما إذا كان

التسْليط على أشْخاص مُعيَّنين، فإنَّه ينشأ من هذا التَّسْليط حزازات، وحسد، وغيرة، وانتِقاد. إنما نعرفه سبحانه في صِفاته، ولم يكن له كفواً أحد؛ بما أنَّ الله سبحانه وتعالى لا ترقى إليه الأفهام، ولا تدركه الأبصار، ولا تُحيط به العقول، إذاً لا يمكن أن نعرفه إلا من طريقين: الأوَّل من خَلْقِهِ، والثاني: من كلامه عن نفسه، فالمعرفة المباشرة مُسْتحيلة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحاط به، إلا أنَّنا قرأنا كلامه، فأخْبرنا عن ذاته أنَّهُ حيٌّ قيُّوم، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ قال تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة الحشر: 23]

وبالمناسبة، أذكر أنَّني قلتُ لكم قبل درْسين: إنَّ الشيء الذي يعْجز عقلك عن إدْراكه أخْبرك الله به، فَمِن هذه البُنود الكُبْرى التي يعْجز عقلك عن إدْراكها غَيْبُ الحاضِر، والماضي، والمُسْتقبل، كعالم الجنَّة، والملائكة، من المُغَيَّبات الكبرى التي يعجز عقْلك عن إدْراكها، والتي أخبرك الله تعالى بها هي ذات الله عز وجل، فالأمور إذا تَوَضّحَت زالت الأزْمة التي تنشأ بينك وبين المُناقِش، فالله عز وجل من أجل أنَّنا أضْعف من أنْ نُحيط به، ومن أن نعرفَهُ معرفَةً مُطْلَقة، ولو كان نَبيّاً فلا يعرف الله إلا الله، إذْ عُقولنا قاصرة، واللهُ تعالى أخبرنا عن ذاته بكذا وكذا، وهناك أشْياء نعرفها عن الله تعالى من خلقه، فأنت يمكن أن تُلاحظ أفعال الله عز وجل وخلقه، فتعرفه مِن خلقه وأفعاله، فإذا قرأت القرآن تعرفه من كلامه، وأكثر من ذلك أنه لم يُكَلِّفْك ما لا تُطيق.

التعليم بالصورة أبلغ في التعبير من آلاف الكلمات :

قال رحمه الله تعالى: "ولا يُشبه الأنام"، فهو ردٌّ لِقول المُشَبِّهة الذين يُشَبِّهون الخالق سبحانه وتعالى بالمخلوق، قال عز وجل:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

[سورة الشورى: 11]

ليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فَمِن كلام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في الفقه الأكبر قوله: لا يُشبهُ شيئاً من خلقه، ولا يُشبهه شيء من خلقه، وصفاته كلُّها بخلاف صِفات المخلوقين، يعلم لا كَعِلْمنا، ويقدِرُ لا كقُدرتنا، ويرى لا كَرُؤيتنا.

هذا الموضوع يقودني إلى شيء، الكَلِمة في اللغة أيها الأخوة ليْسَت ذات معنى إلا إذا كان لها مُرْتَكَز، لأنَّ الكلمة في الأصْل تُثير خِبْرات سابِقَة، أو وِعاء تحتوي على خبرات، فإذا قلت كلمة: بحر، فهذه الكلمة أثارَت صُوَراً في ذِهْنِك الآن، لأنَّك تعرف البحر في سوريا، وهناك مَن ركبه، وهناك من سبح

فيه، وهناك من رآه، وهناك من كاد أن يغْرق فيه، وهناك من ركب القارب، واسْتمْتع بهدوئه، والنسيم العليل على سطْحه، وهناك من كاد يموت فيه، فكَلِمَة بحْر إذا ذكرتها تُثير كُلَّ هذه الخِبْرات، الآن ربُّنا عز وجل إذا أراد أن يُحَدِّثنا عن الجَنَّة فلو أنَّ الأرْض كُلَّها صَحارى، ولا لون أخضر فيها، ولا مياه عذْبة، ولا جبال خضْراء، ولا أشْخاص في أبهى صورة، فالحديث عن الجنَّة ليس له معنى إطْلاقاً، تفْقِدُ اللغة مَدْلولها إن لم يكن للكلمة مَدْلول، لذلك أخطر تعليم هو التَّعْليم اللَّفْظي، فالآن نحن دَخَلْنا في موضوع تَرْبوي فأنا مثلاً عندما أريد أن أقول للطلاب أشياء كلّها كلام بكَلام، واقِع الطالب بعيد، أما لو يرى الطالب تفاعل الماء مع الصوديوم؛ هذه الرؤيا لا ينساها حتى الموت، فإذا قلنا: صوديوم يتذَكَّر التفاعل، وإذا قلنا ماء يتذكَّر التفاعل، لذا التعليم بالصورة مُفيدٌ جداً، وأحْياناً قِصَّة واقِعِيَّة، أو مَشْهد، أو مُفارقة، أو صورة رائِعة هي أبلغ في التعبير من آلاف الكلمات.

الأدَب من أرْقى الفنون وقِوامُه الكلمات :

الصورة قالوا عنها: تحوي طاقة تَعْبيريَّة تُساوي ألف كلمة، لذلك صَوَّر الله عز وجل في القرآن مشاهِد، مثلاً قال تعالى:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

[سورة الحج: 45]

أيْ هذه صورة مُجتمع أهْلَكه الله عز وجل، المرْفَق الأساسي مُعَطَّل، وهذه البئر والقرية كلها خاوية مدمرة، وصارت حطاماً، فهذه صورة من الصُّوَر، فالداعِيَة أحْياناً قد يحتاج أن تُعَبِّر بالصورة لا بالفِكْرة، ونحن عندنا قاعدة وهو تعبير مُباشر وتعبير غير مُباشر، فالتعبير غير المُباشر تعبير بالصورة:

بلاني الدَّهر بالأرزاء حتى فؤادي في غِشاءٍ من نِـبال
فكنت إذا أصابَتْني سِهـامٌ تَكَسَّرت النِّصال عن النِّصـال

* * *

هذا تعبير بالصورة، أما لو قال الشاعِر: تكاثَرَت عليَّ المصائِب فهذا تعبير بالفِكْرة، فالتعبير بالصورة أجْمل، لذلك فالأدَب حينما يسْتخدِمُه الدعاة في توظيف الحقّ يُفْلِحون، فالأدَب فنّ، والفنّ هو التأثير في الآخرين عن طريق الكلِمَة، فالفنون الجميلة قِوامها الألْحان، وهذا الفنّ قِوامه الأحْجار، وهذا فنّ قِوامه الألوان، والأدَب من أرْقى الفنون وقِوامُه الكلمات، فإذا قرأ الإنسان قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((...إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حُكْماً))

[أبي داود عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

فللجملة معناها العميق والمؤثِّر.

العِلْم بالتَّعلّم :

الآن دخلنا في موضوع هو من أصول الدعوة، فلا يُعقل من داعِيَة ليس له أُسلوب أدبي، لذلك أتمنى على أخواننا الدعاة أنْ يكون عند كل واحدٍ دَفتر مُختارات، فإذا سَمِعْتَ شِعْراً، أو حكمة، أو قولاً، وأحياناً حَديثاً، فالإنسان كلّما حَفِظ نُصوصاً رائِعَة فهذا يُعينه على الأداء، وقد يقول أحدكم: أنا أتَّصِل بالله تعالى، وعندها يكون التأثير، أليس في حديث رسول الله صُوَر، وأمْثال، وتعابير، وتوازن لفْظي، ومشاهِد، وقِصص، هذه كلها أساليب أدَبيَّة، فالذي أتمناه عليكم أنَّك إن قرأت كتاباً أدَبيّاً، أو إذا قرأتَ القرآن، أو حديث النبي عليه الصلاة والسلام ينبغي ألاّ تنصَرِف إلى الفِكرة وحْدها، بل إلى الصورة كذلك، تعَلَّم من الأساليب اللغويَّة الرفيعة، لذلك تحتاج إلى مختارات لا على أساس أنَّها مختارات الأفكار بل على أساس أنّها صُوَر، أنا أذْكر كلّما عَثَرْت على عبارة أدَبيَّة كنت أكْتبها في الدفتر، فمَعَ الكتابة والمُراجعة هَضَمْتها، وكنت أقول لكم دائِماً: إنَّ الإنسان له ذاكرتان؛ ذاكرة تَعَرُّفِيَّة، وذاكرة اسْتِرْجاعِيَّة، فذاكِرَتُه التَّعَرفيَّة غَنِيَّة جداً، أما الاسْتِرْجاعِيَّة فَضَعيفة جداً، فليس كلّ شيء إذا عرفْته أو قرأتَهُ يمكنك أن تسْتَعيدَهُ، والدليل لو أمسَكْتَ كِتاباً أدَبياً سَتَجِد عَشَرات الكلمات إذا رأيْتَها في سِياقها تعرفُ معناها، لكن لو كَلَّفْناك كِتابة موضوع، فهذه الكلمات التي رأيْتها وعَرفتها لا تذكرها عند الكتابة، فما تفْسير ذلك؟ أنَّ هناك ذاكِرَتين تعَرُّفِيَّة واسْتِرْجاعِيَّة، وهذا الشيء واضِح باللغة الأجْنَبيَّة أكثر، فأن تقرأ كلمة تقول: معناها كذا وكذا، لكن لو قيل لك: ما الكلمة التي تُقابل في الإنجليزيَّة هذه المُفردة العَرَبيَّة؟ تقول: لا أعرف، أو لا أذْكر، فأنت حينما تقرأ النصّ قِراءة أسْلوبيَّة تَقِف على الصُّوَر، والتَّشْبيهات، والاسْتِعارات، والكنايات، والتعليقات، والصور الوَصْفِيَّة، والمشاهِد، وإذا وَقَفْت عند هذه التعبيرات، ووضَعْتَ تحتها خطّاً أحْمر، فإنَّك تَمْتَلِكُها، وكأنَّك تنقلها من ذاكِرَتِك التَّعَرُّفِيَة إلى ذاكِرَتِك الاسْتِرْجاعِيَّة، وفي النِّهاية لا بدّ أن ينمو مخزونُك من الكلمات والعبارات الأسلوبية المتنوعة، والورقة لَيْسَت معي، فهذا غير وارد! فإذا لم يكن لك مَخزون من الصُّوَر الأدَبيَّة والأساليب والأمْثال فالعطاء ضحل، ولا تنسَ أنَّ الأدَب سِلاحٌ خطير، يسْتخدِمُه الدعاة للحقّ، ولذلك أرْوَع ما تقرؤه هو أن تقرأ كلاماً ينطوي على مضْمون عميق بِأسْلوب أدَبي، فالعِلم بالتَّعَلّم، وهذه حقيقة، وعلى هذا فلا تسْمح لنفسِك أن تقرأ كتاباً أدَبيّاً دون أن تَقِف عند صُوَرِه الأدَبيَّة؛ من تشْبيه، وبيان، واسْتِعارة، وكناية.

جمال أسلوب القرآن :

هل مَرَّ معكم في القرآن صورٌ أَدَبِيَّة؟ كثيرة جداً، إذا قرأتَ القرآن فشيء رائِعٌ أن تقف عند صُوَره، وإذا قرأت الحديث النَّبَوي فقِفْ عند صُوَره، فإنّ الله تعالى قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

[سورة محمد: 19]

هذه الكلمات الخمس:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

مُوَضَّحة في القرآن الكريم، فمثلاً سورة يوسف كلّها من أجل أن تعلم أنّه لا إله إلا الله، فإما أن تُعَبِّر تعبيراً تقْريرياً، وإما أنْ تُعَبِّر تعبيراً تصْويرياً، والتعبير التَّصْويري أجْمل بِكَثير، وقد ذكَرْتُ لكم أنَّني أتمنى على من يقرأ القرآن أن ينصرف ذِهْنه إلى نظْمه وأسْلوبه بالإضافة إلى معانيه، قال تعالى:

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

[سورة العاديات:4-5]

هذا أسْلوب موسيقي وفيه إيقاع، حتى هذا الإيقاع يُشْبه حركة الخَيْل، فالإنسان الذي يُحِبّ أن يتزَوَّد من هذه الموضوعات فإنَّ كتباً كثيرة جداً تتحَدَّث عن بلاغة القرآن، وعن التَّصْوير الفني في القرآن، ونحن بِحاجَة إلى أن نضَع يَدَنا على جمال أسلوب القرآن، وعلى جمال أسْلوب الحديث، كي نقْتَبِسَ منهما أسْلوباً أَدَبِيّاً في الدعوة إلى الله، فأنت في النِّهاية يجب أن تُسَخِّر فنَّ الأدب، والتعبير، والقِصَّة، والحِوارِيَّة، والمقال، والشِّعْر في توْضيح الحقّ، حتى لو كنتَ تتكَلَّم بِكَلامٍ عميقٍ جداً، وبِأسْلوبٍ بسيط ساذج غير أدبي، وعلمي، وركيك، كمن يُقَدِّم أنفس شراب لِصديق في قدح صدئة، لذلك تَعَلَّموا العربيَّة فإنَّها من الدِّين، فأنت تتكَلَّم بها كلاماً دقيقاً، واضِحاً، ومؤثِّراً.

مذهبنا التكفير بالتجريد لا بالتحديد والتعيين :

قال نعيم بن حمَّاد: من شَبَّه الله تعالى بِشيء مِن خلقه فقد كَفر، ومن أنكر ما وَصَف الله به نفْسه فقد كفر، وليْستْ لما وصَفَت به نفسه ولا رسوله تشْبيه، تعليقنا على هذا الكلام: أنت تقول: في الجنَّة بساتين، وأنّ في الأرض بساتين، فيها أزْهار، وأشْجار، واخْضِرار، وماء عذْب، فهذه صُوَر الأرض، إلا أنَّ جنات الآخرة ليس لها من جَنَّات الدنيا شبه إلا الاسْم، فالنبي عليه الصلاة والسلام بَشَر، فكلّ ما قاله عن الله عز وجل، وكلّ ما قاله الله عن ذاته بَوْن شاسِع، وهو أنَّ المَخلوق لا يُحيط بالخالق، وهذا

جاء في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وقال إسْحاق بن راهَوَيْه: من وَصَف الله فشَبَّه صِفاته بأحد من خلْق الله فهو كافِرٌ بالله العظيم. ومِن هذا القول ظهرتْ لنا قاعِدَة: إياكم أيها الأخوة الدعاة، ثمَّ إياكم، ثمَّ إياكم أن تُكَفِّروا شخصاً بالتَّحْديد، لكم أن تُكَفِّروا من دون تَحْديد، كيف؟ تقول: من قال أنَّ الله يُشْبه أحداً من خلْقه فهو كافِر، من قال؟ لا نعرف من قال! أما أن تقول: فلان قال كذا فهو كافر؛ أعوذ بالله! أنت الآن دَخَلت في الفِتَن، والعلماء الأجِلاء عَلَّمونا ألاّ نُكَفِّر بالتَّحْديد، كَفِّرْ مَقولة، أو فِكْرة، ولكن لا تكفِّرْ إنساناً! إياك أن تُكَفِّر المؤمن أو المسلم!! أنت عليك أن تقول: هذه الفكرة كُفْر أو بدْعة، أما أن تعزُوَها إلى أصْحابها فقد وَقَعْتَ في شَرٍّ كبير وفي فتْنة، ويصبح الداعية غارقاً في فتنةٍ، فأنت تقول مثلاً: من رَدَّ هذه الآية فهو كافِر، ومن أنكر عذاب النار فهو كافِر، دائِماً من أنكر! أما التكفير بالتحديد والتعيين فهو ليس من مذْهبنا، فنحن مذهبنا التكفير بالتجريد لا بالتحديد والتعيين، والذي أُضيفه أيضاً أن ليس كلّ من وقع في الكفر وقع عليه الكُفْرُ، فلو كان أخوك أمِّي أو جاهل أو ساذج في تفكيره، وكان بِسَاعة غفلة ثمّ قال كلاماً فيه نظر فليس من شأننا أن نُكَفِّره، ولكن نقول أخْطأ وغلط، فأنت ليس من شأنك تقييم العِباد وليس من شأن العِباد أن يُقَيِّموا بعضهم بعضاً.

قال رحمه الله: "علامة ابن جهْمٍ وأصْحابه دَعْواهم على أهل السنَّة والجماعة ما أولِعوا به من الكذب أنَّهم مُشَبِّهة بل هم المعطِّلة، فالذين ينفون صفات الله مُعَطِّلة، والذين يُشَبِّهون الله مُشَبِّهة، وكلاهما فرقة ضالة، وكذلك قال خلقٌ كثير من السَّلف: علامة الجهْمِيَّة تَسْميتهم أهل السنَّة مُشَبِّهَة، فإنَّه ما من أحد نفى شيئاً من الأسْماء والصفات إلا ويُسَمِّي المُثَبِّت لها مُشَبِّهاً، ولقد عرفْنا اليوم منكري الصفات، وهم المُعطِّلة، وتشْبيه الله بخلقه، وهم المُشَبِّهة، وكلاهما فرقة ضالة، لأنَّهُ لا يُشْبه الأنام، وهم الخلق كلهم، وكلّ ما سِوى الله.

أعزّ مكان في الدُّنى سرْجُ سابح وخير جليس في الأنام كتاب

***

فالأنام كلمة واسعة جداً، بعضهم قال: بني البشر، وبعضهم قال: المخلوقات المتحرِّكة، وبعضهم قال: ما سِوى الله.

تساوي الأسماء لا يعني تساوي الذوات :

قال رحمه الله: "فَمَن أنكر أسْماء الله بالكُلِيَّة من غُلاة الزنادِقة كالقرامطة والفلاسفة وقال: إنَّ الله تعالى لا يُقال له: عالِم ولا قادِر ويزْعم من سَمَّاهُ بذلك أنَّهُ مُشبِّه، لأنَّ الاشْتِراك في الاسم يوجب الاشْتِباه في معناه، ومن أثْبَتَ الاسم، وقال: هو مَجاز كَغالِيَة الجَهْمِيَّة يزْعم أنَّهُ من قال: إنَّ الله عالِمٌ حقيقة، وقادِر حقيقة فهو مُشَبِّه.

هذه الفِكْرة مَبْنِيَّة على وَهْمٍ كبير، وهو أنَّك إذا قلتَ عن الله: إنه عالِم قيل لك: وفلان عالِم، تساوي الأسماء لا يعني تساوي الذوات، فالفِكْرة أساسها غلط، إذْ لما يتشابه شيئان في اسم واحِد فلا يعني أنَّهما مُتَشابِهان في المسمَّى، فهذه الدَّعوى باطِلة.

قال رحمه الله: "ومن أنكر الصفات وقال: إنَّ الله ليس له علمٌ ولا قدرة ولا كلام ولا مَحَبَّة ولا إرادة كمن قال لِمَن أثْبَتَ الصِّفات مُشَبِّه".

قول المؤلِّف رحمه الله: إنَّ الله ليس له علمٌ ولا قدرة ولا كلام ولا مَحَبَّة ولا إرادة، فماذا تُعربون هذه اللاءات؟! نحن عندنا قاعِدة في القرآن الكريم، فالله عز وجل قال:

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى)

[سورة القيامة: 31]

فإذا قلنا نحن: فلا صَدَّق وصلى؛ فهل صَلَّى؟ ما صلى، فمعنى الآية الدقيق لم يُصلِّ، ولأنَّ المعْطوف على المَنْفي مَنْفِيّ مثله، ولكن لمّا فهِمْتُم أنَّهُ صلى حدَثَ الْتِباس، جئنا بِحَرْف زائِد لتوكيد النفي، فَكُلّ هذه اللاءات زائِدَة لِتَأكيد النَّفي. فقولنا: إنَّ الله ليس له علمٌ، ولا قدرة، ولا كلام، ولا مَحَبَّة، ولا إرادة، كَقَوْلِنا: إنَّ الله ليس له عِلْمٌ، وقدرة، ومحبَّة، وإرادة، ولكن لئلا نفهم العَكْس جاءَت هذه اللاءات لِتَوْكيد النَّفْي.

قال رحمه الله تعالى: من أثبت الصفات لله فهو مُشَبِّه، وإنَّهُ مُجَسِّم، ولهذا كتب نُفاة الصفات من الجهْمِيَّة والرافضة والمعتزلة ونحوهم كُلّها مَشْحونة بِتَسْمِيَة مُشَبِّهَة الصِّفات المُجَسِّمَة، ويقولون في كتبهم: إنَّ من جملة المُشَبِّهة قوماً يُقال لهم المالِكِيَّة يُنْسَبون إلى رجل يُقال له مالك بن أنس، وقوماً يقال لهم الشافِعِيَّة يُنسبون إلى رجل يُقال له محمّد بن إدريس، وحتى الذين يُفَسِّرون القرآن منهم كَعَبْدِ الجبار والزَّمَخْشَري، يُسَمُّون كلّ من أثبت شيئاً مِن الصِّفات والرؤية مُشَبِّهَة.

الله

تعالى يعلم لا كعِلْمِنا ويقدر لا كَقُدْرتنا ويرى لا كَرُؤيَتِنا :

أهل السنَّة والجماعة يُثبتون الرؤية يوم القيامة، لكنّ بعض الفِرَق الضالة تنفي رؤية الله تعالى، فإذا قلت لهم: ما تفعلون بقوله تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ *إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة: 22-23]

قال: منتظرة، أي تنتظر حِسابها، وهذا هو التأويل، قال رحمه الله: وهذا الاسْتِعمال قد غلب عند المتأخِّرين من غالب الطوائف، ولكن المشهور من استِعمال هذا اللفظ عند علماء السنَّة المشْهورين أنَّهم لا يريدون بِنَفي التَّشْبيه نَفْي الصِّفات عند كل من أثبت الصِّفات، بل مُرادهم أنَّه لا يُشبه المخلوق في أسْمائِه، وصِفاته، وأفعاله، كما تَقَدَّم من كلام أبي حنيفة رحمه الله: أنَّهُ تعالى يعلم لا كعِلمِنا، ويقدر لا كَقُدْرتنا، ويرى لا كَرُؤْيَتِنا، وهذا معنى قوله تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

مستلزماً لنفي الصِّفات. وهذا شيء جميل جداً، فليس كمثله شيء نَفَيْنا المُشابهة، وهو السميع البصير أثْبَتْنا الصِّفة، وهذه هي العقيدة الصحيحة.

ثمّ قال رحمه الله: ومما يُوضِّح هذا أنَّ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ فِيهِ بِقِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ يَسْتَوِي فِيهِ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ ، وَلَا بِقِيَاسٍ شُمُولِيٍّ يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُمَثَّلَ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ هُوَ وَغَيْرُهُ تَحْتَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ يَسْتَوِي أَفْرَادُهَا.

هذه القَضِيَّة من أخْطر الأفكار، أحْياناً الإنسان بسَذاجة وحتى يُوَضِّح شيئاً عن الله عز وجل يُشَبِّهُهُ بِمَخْلوقاتِه، فلا يسْتوي الإله مع المخلوقات ونحن عندنا آية مشْهورة بكَثْرة، وهي قوله تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

[سورة الأنبياء: 23]

فهل معنى هذا أنَّهُ ظالم؟ لا، لماذا تَوَهَّمْتُم أنَّ نفي السؤال يعْني أنَّهُ ظالم؟! لكن ليس من شأن الإله أن يُسْأل، لا يجْسر من يسْأله، ولا يعني هذا أنَّهُ ظالم بل عادل، قال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

الفرق بين صِفات القُدْرة وصِفات الكمال :

إلا أنَّ بعض الناس لا يسْتطيع أن يُفَرِّق بين صِفات القُدْرة وصِفات الكمال، فيقول لك أحدهم: ألا يسْتطيع الله عز وجل أنْ يضع المُطيع في جَهَنَّم؟

فالقُدْرة شيء، والكمال شيء آخر، فله قُدْرة يقدر على هذا، كحال من لم يكن له مولود ذكر، ثمَّ لما جاءه مولود ذكر قالوا: يقدِر هذا الأب أن يقتل هذا المولود! إلا أنَّه لا يقدِر أن يفعل هذا، فالنقطة في هذا الموضوع أنَّ هذا الأب من حيث العضلات يقْدِر، وربنا عز وجل لو نَفَيْتَ عنه القدرة فأنت غلطان، أما لو أثْبَتَّ له الكمال فأنت مُصيب، كأن تنفي عنه النقص وتثبت له الكمال، لذلك يجب التفريق بين صفات القدرة وبين صِفات الكمال، فلله عز وجل قُدْرةً لا يُسْأل عما يفعل، وليس من شأن الإله أن يُسْأل، وهنا معنى دقيق وهو أنَّ الله عز وجل ليس مقهور وضعيف حتى يستعين بالسبب، فأنا كإنسان مثلاً لا يمكنني أنْ أصل إلى مكان بعيد إلا بالسيارة أو غيرها، فأنا مُفتقِر لهذه الأداة حتى أُكَمِّل ضَعْفي، فاستِخدام الإنسان هذه الوسائل صالحة للتعبير عن ضعْف الإنسان، فالإنسان يُسأل لأنَّه مَقهور بالوسيلة، أما الله عز وجل فلا يُسأل عما يفْعل، وليس له وسيلة مقهور بها، ويُكَمِّل ضَعفه بها، وإنما كُنْ فَيَكون قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

فهذا المعنى الثاني من قوله تعالى لا يُسأل عما يفعل، فأوَّل معنى: ليس من شأنه أن يُسأل كَإله، والمعنى الثاني: لأنَّه إله فلا تليق به العلّة الغائيَّة، والمعنى الثالث: لِفَرْط كماله لا يُسأل عما يفعل، فَعَدْله يُسكت الألسِنَة فلا تُحاول أن تتعرَّف إلى الله تعالى عن طريق تَشْبيهه بخَلْقِه، هناك عبارة نكرِّرها: إذا أراد الإنسان الكلام عن الله تعالى بالتَّشبيه، وهي أن يقول: ولله المثل الأعلى، فإذا كنت مُضطرّاً لِتَوضيح فِكرة عن ذات الله عز وجل فقُل: ولله المَثَل الأعلى.

على الإنسان ألا يُحاول أن يُخضِع ما تَكَلَّم الله به عن ذاته لِمَقاييس العقل :

ثم قال رحمه الله تعالى: ولهذا لما سلكت طوائف من المتكلّمين تأولت مثل هذه الأقيسَة.

فهذه فكرة خطيرة جداً كذلك، لا تُحاول أن تُخضِع ما تَكَلَّم الله به عن ذاته لِمَقاييس العقل، فبالإسْراء والمِعراج، بماذا بدأ الله تعالى في الآية الكريمة؟ سبحان! هذا الذي سَأُحَدِّثكم به لا يخضع لِمَقاييسِكم، ولا لِمَقاييس الزمان أو المكان، لا تُحاوِل أن تقول: كيف أنَّه وصل إلى القدْس بِلَمْح البصر، وكيف وصل إلى السماء، فأنا دَرَسْتُ بالفيزْياء أنَّ هناك طبقة حرارتها خمْسون تحت الصِّفْر، وأخرى ألف، فكيف وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى فوق؟! لا تُحاول أن تُخْضِع المُعْجزة إلى مقاييس الزمان والمكان والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والحركة والسُّكون، فهذه كلّها أتْركها للأوْضاع الطبيعيَّة، فإذا قال لك الله تعالى: سبحان، فهذا خَرْقٌ للقوانين! فهو لا يخْضع لا للعقل، ولا لمقاييس الزمان والمكان،

لذلك قد تجد مَقتولاً في الحرب لونه مروّع، كأن يكون لونه أزْرق، مَذْبوحاً، أو مجْروحاً، وأمْعاؤُه كلُّها خارج جسده، لكنه عند الله ليس كذلك، بل هو حيٌّ، وهذا ما صرَّحتْ به الآية التالية:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

فهذا دَخَل في عَالَم آخر غير عالَم المادَّة، فأنت لمّا تؤمن أنَّ لعالَم الدنيا قوانين، ولعالَم ما بعد البرْزَخ قوانين أخْرى ترْتاح، أما لو حاوَلْتَ أن تفْهم ما بعد الموت بِقوانين ما قبل الموت فتدخل في حقل ما لا نِهاية، فإياك أن تُحاوِل أن تفْهم ما يجْري ما بعد الموت بِقوانين ما قبل الموت، فَلِكُلِّ حياةٍ قوانين، والنَّفْس البَشَرِيَّة مَحْبوسَة في الجَسَد ولا تنطلق إلا عن طريقه، لكنَّ النفْس البَشَرِيَّة في الآخرة مَرْكزها الجَسَد لكنها تنطلِق انْطِلاقات واسِعَة جداً، بِشَيءٍ يبتَعِد عن قوانين الأرْض، قال تعالى:

(قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ*يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ* قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

[سورة الصافات: 51-55]

لو كان لك قريب ساكن بأمْريكا، ثمَّ سَمِعْتَ بِمَوتِه فلا تستغرب، أما في الآخرة فيكْفي أن يخْطر ببَالِك كي تراه أمامك! إذاً لا تُحاوِل أن تنقل قوانين عالَم إلى عالَم آخر، وعلى الإنسان أن يعرفَ حَدَّه كي يقِفَ عنده، فَمِن الأدِلَّة أنَّك تَجِد قانون الكتلة يختلف من الأرض إلى القمر، ونحن في الدنيا نجد هذه الاخْتِلافات فما بالك بالآخرة! فَوَزْنُ الإنسان في الأرْض ستون كيلو غراماً، وفي القمر عشْرة كيلو غراماً.

إذا أردْنا التشْبيه فيجب أن نقول ولله المثل الأعلى كي نرْتاح :

ثمَّ قال رحمه الله: ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

[سورة النحل: 60]

مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ـ وهو ما كان كمالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه ـ فالواجب القديم أولى به.

فهذا مثل بسيط: أحياناً يُعَبِّر الإنسان عن آخر يقول لك: نشاطه مثل الحِصان، هل في هذا شيء؟! فالحِصان له ذَنَب! فأنت بماذا تُشْبِهُ الحِصان؟ بالقوَّة، فأنت إذا أردْتَ التشْبيه قُلْ: ولله المثل الأعلى كي ترْتاح، وهي بعض آية قرآنِيَّة.

ثمَّ قال رحمه الله: وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر ـ فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره وهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب في نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ـ فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى، ومن أعجب العجب: أن من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على نفي الصفات والأسماء ويقولون : واجب الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا، ثم يقولون : أصل الفلسفة هي التشبيه بالإله على قدر الطاقة ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق هذه العبارة "ويروى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : تخلقوا بأخلاق الله."

لا بدّ من الإشارة إلى أنَّ هذا الحديث لا أصل له في السنَّة، ولا يجوز نسْبته للنبي عليه الصلاة والسلام، ودائِماً إن لم تكن مُتأكّداً من الحديث فما عليك إلا أن تأتي به على صيغة التَّمريض التي ذَكَرها المُحَدِّثين في كتبهم؛ رُوِيَ، ووَرَدَ، وقيل، فإذاً نسبْته بالجزْم لا تَصِحّ! والحُلولِيَّة اتَّفقْنا عليها، وقلنا: وَحْدة الشهود شيء، ووَحْدة الوُجود شيء آخر.

ثمَّ قال رحمه الله: ونفي مُشابهة شيء من مخلوقاته له مُستلزمٌ لنفي مُشابهته لشيءٍ من مخْلوقاته، لذلك اكْتفى الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: لا يُشْبِهُ الأنام، والأنام قيل: الخلق كلُّهم، أو كلِّ ذي روح، وقيل: الناس، وقيل: الثَّقَلان؛ الإنس والجانّ، وظاهر في قوله تعالى:

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[سورة الرحمن: 10]

يشْهد للأوَّل أكثر من الباقي، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (07-20) : الله حي لا يموت
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-01

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى حَيٌّ لا يموت وقيُّومٌ لا ينام :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا إلى قول الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى: "حَيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام".
الإنسان أحْياناً لا يُدْرِك الترابط بين الاسْمَيْن، فالله عز وجل ضارّ إلا أنَّهُ لا يجوز أن تقول: الضارّ، وإنَّما الضارّ النافِع لأنَّه يضُرّ لِيَنْفَع، ويمْنَعُ لِيُعْطي، ويخْفض لِيَرْفع، فهناك أسْماء من أسْماء الله الحُسْنى لا يجوز أنْ تُلْفَظ إلا مَثنى مثنى، فالإنسان أحياناً لا يُدْرك الترابط بين الاسْمَين، وهو يُذَكِّرُنا بأنَّ أكثر آيات القرآن الكريم تنتهي باسم أو اسْمَيْن، غفور رحيم، هناك دُعاء مأثور، فعن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ:

((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي))

[مسلم عن أبي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ عَنْ أبيهِ]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: إنَّ هذا الدعاء جمَعَ خيْري الدنيا والآخرة، اغفر لي الماضي، وارْحمني بالتَّجَلي والتوفيق، ففي الدنيا: عافِني وارْزقني، وفي الآخرة اغفر لي وارْحمني.
إنَّ الله تعالى سميع عليم، أي سميع إذا تَكَلَّمْت، وعليم إذا سَكَتّ، قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 78]

(فالجلال) جمعَت صِفات القوَّة والعظمة، و(الإكرام) صِفات الحمْد، فالورْد النبوي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمْد، فهناك من يملك ولا يُحْمد، وهناك من يُحْمد ولا يمْلك؛ فهذا ضَعيف، أخْلاقه عالية إلا أنَّه لا يمْلك شيئاً، وهناك من يمْلِك إلا أنَّهُ لا يُحْمد؛ دَقِّق؛ فله المُلك والحمد، وذو الجلال والإكرام، والضارّ، والنافع، والخافض، والرافِع، والمُعْطي، والمانع، والمُعِزّ، والمذِلّ، رُبَّما كان العطاء حِرْماناً، وربَّما كان المَنْعُ عيْنَ العطاء! فالمَنْعُ أحْياناً هو عَيْنُ العطاء، فهو تعالى حَيٌّ لا يموت وقيُّومٌ لا ينام.

حياته تعالى ليست كَحَياتنا فحياتنا تنتهي بالموت إلا أنّ حياة الله أبَدِيَّة سَرْمَدِيَّة :

الله عز وجل حيّ، والحياة صِفَةٌ في بني البشر، فهل يسْتلزم اشْتراك الصِّفة اقْتِضاء المِثْليَّة؟ لا، فالتشابه بالصِّفات لا يعْني المِثْلِيَّة، لأنَّ حياته تعالى ليست كَحَياتنا، فحياتنا تنتهي بالموت، وكُلُّ مَخْلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العِزَّة والجبروت، إلا أنّ حياة الله عز وجل لا تنتهي، وهي حياةٌ أبَدِيَّة سَرْمَدِيَّة، لذلك حَيٌّ لا يموت، والآن (قَيُّوم) فقد يُراقب الإنسان مُدير المَعْمل، ولكن حينما تنتهي مدَّة الدوام يذْهب إلى بَيْتِهِ! وبعد الظهْر يأتي، وبعد الساعة السابعة مثلاً يُغلق محلّه، فلا يتواجد إنسان على الدَّوام لمراقبتك، أما سبحانه وتعالى فقَيُّوم، فالإنسان قد يكون قيُّوماً إلا أنَّه ينام، لكنَّ الله جلّ جلاله لا ينام، إذاً حيٌّ لا يموت قيوم لا ينام قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ)

[سورة البقرة:255]

هذه آية الكرسي، حتى إنَّ بعض العلماء قال: هي اسم الله الأعظم، قوله: حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ)

[سورة البقرة:255]

هذه الجملة التي جاءت مَقول القول، فما إعرابها؟ هذه الجملة لا مَحَلَّ لها من الإعراب، وهي من الجُمَل التي لا محَلَّ لها من الإعراب، والسؤال: هل هناك قاعدة أساسيَّة في هذا الموضوع؟ إذا قلتَ: عَلِمْتُ أنَّك ناجح، أنَّ واسْمُها وخبرها في مَحَلّ مفعول به، لماذا؟ لأنَّه أمكننا تأويلها بمفْرَد، أما الكلام الذي لا يُؤَوَّل فلا مَحَلَّ له من الإعراب. هل هناك فرق بين السِّنَة والنَّوْم؟ الغفلة اليسيرة هي السِّنَة، والنوم العميق هو النوم.

الأمر التكويني والأمر التكليفي :

قال المؤلّف: وقال تعالى:

(الم*اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ*نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة آل عمران: 1-3]

لا ينبغي له أن ينام، قَوْلُ المُؤَلِّف: لا ينبغي له أن ينام تعبير دقيق منه عليه رحمة الله، فهذه الكلمة تَحُلُّ مُشْكِلَة كبيرة، فلا مانعَ من الاسْتطراد إذا كان مُفيداً، فالله عز وجل قال:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

وقال سبحانه وتعالى:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة النور: 26]

هل هذا أمْرٌ تكْليفي؟ نعم هذا أمر تكليفي، وليس تكوينيّا، فالأمْر التَّكْويني لا يُمْكن أن يُخْرق في الكون، أما إذا خُرِقَ فمعنى ذلك أنَّه تكليفي معنى الكلام: يا عبادي احْرَصوا على أن يكون الطَّيِّبون للطَّيِّبات، وعلى أن يكون هذا البيْتُ الحرام آمِناً، فلو قلنا: إنَّ هذا الأمر تكويني! فإنَّ البيت الحرام قبل عشْر سنوات اخْترق بالرَّصاص، ومات مئات القتلى فالأمر التكويني لا يمكن أن يُخْرق، لكنّ الأمر التكليفي يُخْرق، وأوْضَح مثل لهذا: لوْحة حمْراء مكتوب عليها ممنوع المرور، لكنَّ الطريق مَفْتوح، فأنت لك أن تنْصاع للأمر ولك أن تخرقه، الطريق سالك، أما الأمر التكويني فموضوع به حواجز، ومُسَلَّح، وارْتِفاعه متران، فإذا قال الله عز وجل:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة النور: 26]

ووجَدْتَ زَوْجاً مخْموراً، وزانياً، وله زوجة كالملائكة، وهذا واقع، أو بالعكْس، فهذا الأمر ليس تكوينيّاً ولكنه تكْليفي، وهذا الموضوع دقيق جداً، فقبْلَ أن تتزَوَّجَ الأمْر تكليفي، وبعد أن تقترن بها أصْبَحَت زوْجَتك، وأصبح الأمر تكوينياً، وأذكر أنَّهُ كان لنا أخ يقول: كان لي أولاد، وكنت أقول لهم: كُلْ واشْكُر! وفي أحد الأيام لم يعْجِبْهم الطعام، فقال لهم: كُلْ واسْكُت.

الكلام خبري أو إنْشائي فالأمر التكويني خبري والأمر التكليفي إنشائي :

بالمناسبة كلمة:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[سورة النور: 26]

هل هي خَبَرِيَّة أم إنْشائِيَّة؟ إنها خبَرِيَّة، والآية ثانية:

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 97]

كذلك خَبَرِيَّة، نحن عندنا قاعِدَتان؛ العِبارات نوعان: إنشائِيَّة وخَبَرِيَّة، فالكلام الذي يصدُق أن تقول عن صاحبه: صادق أم كاذِب، فهذا خبري، أما الكلام الذي لا يحْتمِل الصِّدق والكذب فهذا إنشائي، فهل يمكن أن تقول لِمَن قلت له: كم الساعة كذَّاب؟ هو لم يُخْبِرْك عن شيء حتى تقول عنه: كذاب، أما لو قال لك: هذه الساعة ثَمَنها ألف ليرة، فهذا الكلام خَبَري، لك أن تقول عنه: صادِق أم كاذب، أما إذا سألك، أو طلب منك، أو أمرك، أو نهاك، أو تمنَّى عليك، أو رجاك، أو ناداك، فهذه كُلُّها أساليب الإنشاء، فالكلام في النِّهاية خبري أو إنْشائي، فالخبري يحْتَمِلُ الصِّدْق أو الكَذِب، أما الإنشائي فلا يحْتَمِل الصِّدق أو الكذب، فالأوامر التَّكْليفِيَّة هل ينبغي أن تكون إنشائِيَّة أم خبرِيَّة؟ إنشائِيَّة؛ لأنَّها اِفْعَل ولا تفْعل، أمْرٌ ونَهْي، فإذا جاء الأمْر التَّكْليفي بصيغة الخبر، فأنت إذا أمَرتَ إنساناً فَمُجَرَّد الأمر يعني أنَّهُ مُخَيَّر، وهذه قاعدة أصوليَّة؛ أنا إذا أمرت إنساناً أنْ يأتي في الساعة الثامنة فبإمكانه أن يُطيع، وبإمْكانه أن يعصي، فالأمر يقتضي الاختيار، والنَّهْي يقتضي الاختيار، أما إذا أَخْبَرْتُ، والخبر يوحي أنَّه أمْر تكويني، والأمر التكليفي إنشاء.

جعَلَ القرآن بعض الأوامر التَّكْليفِيَّة تُصاغ على صيغة الخبر تأكيداً لها :

إلا أنَّه لِحِكْمة بليغة قد يأتي الأمر التكليفيّ على صيغة الخبر وكأنَّه أمْر تكويني، مثال ذلك قوله تعالى:

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة: 233]

لماذا جاءت الصيغة خبريَّة وليستْ إنشائِيَّة؟ لئلا تتوَهَّم أنَّ الوالدة مُخَيَّرة في أن تُرْضِع أو لا تُرْضع، هو أمر تكليفي، ولكن لِتَوْكيده جاء على صيغة الخبر، ففي الأعَمِّ الأغلب الأمر التكليفي إنشائي، والأمر التكويني خبري، لكنَّ القرآن خرج عن هذه القاعدة لِحِكْمة بالغة، فجعَلَ بعض الأوامر التَّكْليفِيَّة تُصاغ على صيغة الخبر تأكيداً لها، فقد يقول الأب لابنه: احْضر عند الساعة التاسعة وإياك أن تتأخَّر، أما إذا قال: أنا ليس لي ابن يدْخل علي الساعة التاسِعَة، هذه العبارة أبْلَغ من الأمر والنَّهْي، فَموضوع الخبر والإنشاء، والأمر التكويني والتكليفي عندنا مُهمّ جداً في العقيدة.

هل تناقش أو تحاورَ رجلان عند الله وعند الناس، أحدهما يُمَثِّل الأمر التَّكويني، والآخر يُمَثِّل الأمر التكليفي كما جرى بين سيِّدنا الخضر مع سيِّدنا موسى؟ فسَيِّدنا موسى يُمَثِّل الأمر التكليفي، أما سيِّدنا الخضر فيمثِّل الأمر التكويني، وموسى عليه السلام يُمَثِّل أمر الله، والخضر يفْهم فِعْل الله، أمر الله شيء وفعله شيء، فالله تعالى يسْمح أن تقع جريمة قتْل، ويسْمح أن تقع جريمة خرق السفينة، فماذا يقول علماء التوحيد؟ شاء وأراد ولم يأمر، ولم يرْضَ، ومعنى أراد: أي سَمَح، ولماذا سَمَح؟ لأنَّ أصْل مجيء

الإنسان إلى الدنيا هو الاخْتِيار، وفي الأعَمِّ الأغلب لا يُمَكِّن الإنسان من شَهْوته المُنْحَرِفَة إلا إذا أصرَّ عليها والدليل قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً)

[سورة الإسراء: 18]

هنا تتدَخَّل حِكْمة الله عز وجل، وإنَّ الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام.

الله سبحانه وتعالى لولا أنَّه شاء لنا أن نشاء لما شِئْنا :

"لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك: أنه حي لا يموت؛ لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه، فإنهم يموتون.ومنه: أنه قيوم لا ينام، إذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه، فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال؛ لكمال ذاته."

لا يَقُل أحدكم بدون، فهذا خطأٌ شائع، إما أن تقول من دون، وإما أن تقول: دون، أما أن تقول: بدون فهذا خطأ شائِع، ثمَّ إنَّ الذين أشار إليهم المُؤَلِّف من الذين ضلوا وأضَلُّوا تَوَهَّموا أنَّ نَفْي التشبيه يعني نَفيَ الصِّفات، لكنَّ الصفات هنا ثابتة، والتَّشْبيه مَنْفي. فالحيُّ بِحَياة باقِيَة هو الله، وصفات المخلوق كما تليق به، وصفات الخالق كما تليق به، وهذا لازمٌ في نفي التشبيه وإثبات الصِّفة، وهناك نقطة دقيقة قد تلْتَبِس على الأخوة الأكارم، فالله تعالى حينما يقول:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

كأنّ قارئ القرآن يفْهم مُتَوَهِّماً أنَّ مشيئة الإنسان قد أُلْغِيَت إذْ قُيِّدَت بِمَشيئة الله، والحقيقة على العَكْس مِن ذلك، وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى لولا أنَّه شاء لنا أن نشاء لما شِئْنا، فإذا تَمَتَّعْنا بِحُرِّيَة الاخْتيار والمشيئة، وحُرِّيَّة الكَسْب، وكانت هذه الحُرِّيَة سبباً لِسَعادتنا، ودُخولنا الجنَّة، واخْتِيارنا الحَسَن فهذه المشيئة الحُرَّة التي شِئْناها إنَّما هي بِفَضْل مشيئة الله لنا أن نشاء، أحياناً يحتاج الإنسان إلى تأويل بسيط كي تتلاءم الآيات كلّها مع أصول الدِّين وروح القرآن، أما أن نفهم النَّص على ظاهره فهذا منطلق خطير، وأكثر من ينطلقون من عقيدة الجبر يتَّخذون هذه الآية على أنَّ الإنسان مُسَيَّر ولا مشيئة له إطلاقاً، بدليل أنَّ الله تعالى يقول:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

وكأنّ مشيئة الإنسان أُلْغِيَت ورُدِفَت بمَشيئة الله تعالى، لكنّ الحقيقة أنَّكم يا عبادي إذا سَعِدْتم بهذه المشيئة، وارْتَقَيتم بها، واخْتَرتم الجنَّة، واسْتَحققْتم دخولها، فهذه المشيئة في الحقيقة أثرٌ من مشيئة الله لكم، ولولا أنَّ الله تعالى شاء لكم أن تكونوا أصْحاب مشيئة حُرَّة لما شِئْتم ذلك، لذا قال العلماء: الجنَّة مَحْضُ فضْل والنار مَحْض عَدْل، والإنسان إذا دَخَلَ الجنَّة فإنه لم يدفع ثمَنَها، ولكنّه قدَّم أسْبابها، وأسْبابها الاسْتِقامة والعمل الصالح، أمّا ثَمَنُها فلا يمْلكه أحدٌ إلا الله.

صيغة المبالغة في حقِّ الله تعالى تعني إما الكَمّ أو النَّوع :

"واعلم أن هذين الاسمين أعني: الحي القيوم مذكوران في القرآن معا في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل : أنهما الاسم الأعظم" الاسم الأعظم حيَّر العلماء، وأكثر العلماء على أنَّه هو الرحمن، أو أنَّه الحيّ القيوم، إلا أنَّ بعضهم له تأويل رائِع جداً، كُلُّ إنسان في حالة مُعَيَّنة هناك اسم من أسماء الله تعالى الحُسْنى يكون أعظم الأسْماء الحسنى عنده، فالمريض بمَرض عُضال لا شِفاء منه كالسرطان إذا شفاه الله شِفاءً نِهائِياً فاسم الله الأعظم عنده هو الشافي، والفقير حينما يتوَجَّه إلى الله تعالى أن يُغْنيه، ثمَّ يصبح غَنِيّاً، فاسم الله تعالى الأعظم هو الغَنِيّ، وكذا الجبار، والطاغي هذا لا يمكن أن يهتدي، لكن أحْياناً يقصمه الله عز وجل، وبعد أن يقصمه فاسم الله تعالى الأعظم الجبار، فكُلُّ إنسان له حالة مع الله تعالى الكريم؛ الغنيّ، الرحيم، القدير، إلا أنَّه بشَكل عام أقرب اسم إلى نُفوس العِباد: الربّ.

قال المؤلّف رحمه الله: فإنَّهما يتضمَّنان صفات الكمال... ".

فإذا اسْتخدمنا اسم الله بصيغة المبالغة فماذا تعني صيغة المبالغة في حقِّ الله تعالى؟ الله تعالى قال:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى)

[سورة طه: 82]

ولم يقل سبحانه وتعالى: غفور، وصيغة الأوَّل على وزْن فعَّال، وهي صيغة مُبالغة، وكلمة غفَّار تعني أنَّه يغفر أكبر ذَنْب، أو مليون ذنب! فصيغة المبالغة في حقِّ الله تعالى تعني إما الكَمّ أو النَّوع.

الأصْل في ترْجيح وُجوه الإعْراب هو المعنى لا القاعدة اللغوية :

كُلّ أسماء الله الحُسنى إذا جاءت على صيغة المبالغة كان هذا هو المعنى؛ كمّاً أو نوْعاً، إلا أنَّ هناك حالة واحدة، وهي في قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة آل عمران: 182]

الظلاّم صيغة مبالغة، وهي لِنَفْي الظلم أصلاً، وقد نَفَيْنا عنه سبحانه المبالغة في الظُّلم وغير المبالغة، وبالمناسبة الأصل هو المعنى، والحَكَم في كُلّ قضيَّة هو المعنى، وسأذكر لكم قاعِدة، في اللغة العربيَّة بمَشارقها ومغاربها فاعل تعني اسم الفاعل، وكلمة فعلان تعني صفة مُشَبَّهة باسم الفاعل، واسم الفاعل يدُلّ على الحُدوث، والصِّفة المُشبَّهة باسم الفاعل تدُلُّ على الثُّبوت، كأن تقول: طويل، فهذه صفة مُشبَّهة باسم الفاعل، وهذا الطول ثابت، أما أن تقول: غاضِب، فهذا اسم فاعل، لأنَّه دلَّ على الحُدوث لا على الثبوت، فالاسم الذي يدلّ على حدوث الفِعْل هو اسم الفاعل، والاسم الذي يدلّ على صِفَة مُلازمة للفاعل هو صِفَة مُشَبَّهة باسم الفاعل، وهذه هي القاعدة، ثم إنّ الله تعالى يقول:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة الحشر: 24]

الخالق اسم فاعل أم صِفَة مُشَبَّهة؟ الصِّيغة اسم فاعل، لكنَّ الحقيقة أنَّ هذه الكلمة صفة مُشَبَّهة، لأنَّ خَلْق الله تعالى مُسْتَمِرٌّ، وكلمة غَضْبان في قوله تعالى:

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي)

[سورة الأعراف: 150]

هو اسم فاعل لأنّ الغضب ليس صفة ثابتة في النَّبي، لذلك أوَّل قاعِدَة تَعَلَّمْناها في الجامعة أنَّ الأصْل في ترْجيح وُجوه الإعْراب هو المعنى، لا تَكُن عبْداً لِقاعدة نَحْويَّة، إنَّما كُن عبْداً للمعنى، إذْ هو الأصْل.

الله تعالى نفى الظلم عن نفسه :

القاعدة في قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة آل عمران: 182]

تعني الكمّ، وتعني العدد، إلا في هذا الاسم فلا تعني المبالغة، فالله تعالى نفى الظلم عن نفسه قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: 49]

وقال تعالى:

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[سورة العنكبوت: 40]

إذا أرَدْت أن يسْتقيم عملك وأن يزداد وينمو اجْعَلْه وَفق منْهج الله عز وجل :

قال رحمه الله: فلا يظلم ولا... الكمال، لذلك الإنسان إذا اعْتقَد عقيدة الحق فلا مُفاجأة عنده، سبب سُلوك الحق ألاّ مُفاجأة فيه، وذكرتُ منذ أيام أنّنا لو أنْشأنا بناء وَفق قواعد عِلْمِيَّة، ووضَعْنا الإسْمَنْت الكافي، ووضَعْنا الحديد الكافي وفق تعليمات المهْندسين، فهذا البناء في اسْتِمْرار، أما لو وَضَعْنا الإسْمَنْت والحديد بِقِلَّة لانهار بعد زمن قصير، وكذا لو أرَدْت أن يسْتقيم عملك وأن يزداد وينمو اجْعَلْه وَفق منْهج الله عز وجل، وهناك آية دقيقة جداً وهي قوله تعالى:

(أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة: 109]

الإنسان إذا بنى زواجه، أو شَكَّل علاقاته، أو اختار عمله وَفْق منهج الله فهذا الأساس متين، أما لو شَكَّلها وَفْق هواه وشهواته، وخرج بها عن منهج الله فالزواج ينتهي بالطلاق، والعَمَل ينتهي بالإخفاق، وهكذا.

الكلام القليل والمُخْتصر والنافع المفيد أفضل من كثير يُنسي بعضه بعضاً :

قال رحمه الله: إكمال ما قبل هذا... كما ثبت هذا عن النبي صلى الله عليه وسلّم فهذا الحديث رواه مسلم في صلاة المُسافرين وقصرها، باب فضْل سورة الكهف، وآية الكُرسي، وأبو داود في الصلاة، باب ما جاء في آية الكرسي، وأحمد في المسند من حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه ولفظه: "يا أبا المنذر أتدري أيَّة آية..." فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يمْتَحِنُ أصْحابه ويسْألهم، وأمْتع جَلْسة هي الحِوار، فأنت إذا جَلَسْت جلسَةَ خاصَّة لا تسْتأثِر بالحديث، الحديث مناوبة وليس مناهبة، فإذا تكلَّم الجالسون، وأدْلوا بآرائِهم وسألوك، واسْتمعْتَ لهم، اسْتَمْتَعْت بهم، وأيُّ لِقاء فيه حِوار يعني أنَّ فيه مُتْعة، وإذا كان الإنسان يتكلَّم وَحْدَه كان هناك المَلَل، وبالمناسبة أنتم دُعاة، والمُتَكَلِّم لا يشْعر بالبرد، ولا بِالحَرّ، ولا بالوَقْت، ولا بالتَّعَب، ولا بالجوع، والمُسْتَمِعُ يتضاعف شُعوره بالوقت، والحر، والبرد، والجوع، لذلك الملل والسَّأم يتطرّقان إلى المُسْتمع أضْعاف ما يتطرقان إلى المُتَكَلِّم، لذلك تكلَّم وأنْجز الحديث في الوقت المناسب قبل أن يتمنى الناس لو أنك سَكَتَّ، اُسْكُت قبل أن يتمنى أحدٌ أن تسْكت، وقد كان عليه الصلاة والسلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا، فالكلام القليل والمُخْتصر والنافع المفيد أفضل من كثير يُنسي بعضه بعضاً، دائِماً قِفْ في الوقت المناسب، وأنْهِ الحديث قبل أن يمَلَّ الناس، وقبل أن تُثْقِلَ عليهم، فإذا كان لديك دُروس فلا بدّ أن يعلم المُستمع أنَّه في الساعة الفُلانيَّة ينتهي الدَّرس

حينها يرْتاح، أما إذا كان الدَّرس مفتوحاً، فالداعِيَة لا مصلْحة له أن يتكلَّم، والناس في مَلَل، لذلك فالمُتَكَلِّم كما قلتُ لا يشْعر لا بالوقت ولا بأيِّ ضجر، وأذْكر أنَّنا كنَّا نُقَدِّم فحْصاً في الجامِعَة، والله أيها الأخوة، ثلاث ساعات مَرَّتْ عليَّ كخَمْس دقائِق، لكن لما أصبَحْتُ مُدَرِّساً وأراقب في قاعات الامتِحان فلا يمُرُّ عليَّ الوقت حتى أمَلّ وأضجر! فأثقل شيء المُراقبةُ في الفَحْص، فهذا الكلام لكم كَدُعاة؛ إذا ألْقيْتَ كلمة فاخْتَصِر ولا تُطِل، واسْمَح بالحِوار، ولا يُشْترط أن تكون داعِيَة كي تتكلَّم، فأحياناً تكون لك سَهْرة مع الأقارب، فلا تتكلَّم وَحْدَك، أما لو أنَّه سَمَح بالحِوار وأصْغى لأقْوالهم، وسألهم وأجابوه، وسألوه فأجابهم، فهذا الحِوار، وهذا الأخذ والعطاء يُبْقي على الجَلْسَة الحَيَوِيَّة والنَّشاط، وهذا أبلغ أثراً، فلو تتبَّعْتم كلام النبي صلى الله عليه وسلَّم حينما خاطب الصحابيّ، وقال له: يا أبا المنذر، أتدري أيٌّ آيةٍ في كتاب الله تعالى معك أعْظم؟ قال: قلتُ الله ورسوله أعلم، ثم قال: "يا أبا المنذر...." فالنبي صلى الله عليه وسلَّم خاطب بالتَّدَرُّج.

"...يُضاد نَفْيُه كمال الحياء " أي كَمالُها يَنْفي هذا الاسْتمرار، ثمَّ قال رحمه الله: لأنَّ نَفْيَه يُضاد...بانتظام " إذاً حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام أثْبَتْنا الصِّفات، ونَفَيْنا المُشابهة، وحياة الله غير حياتنا، وقيامه غير قيامنا.

أيّ اسم من أسماء الله تعالى قد يكون أعْظم حسب حال الداعي ورجائه وتوسلاته :

في بعض الأحاديث عن أسماء بنت يزيد قالت: إنّ في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم، يقول الله عز وجل:

(الم*اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ*نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة آل عمران: 1-3]

وقوله تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

[سورة البقرة: 163]

في هاتين الآيتين هناك خمْسة أسْماء، أفلا يمكن أن نقول: اسم الله الأعظم كذا بالتَّحْديد؟ دائِماً العِلْم لا يعني أن تفهم الشيء بِمَعنى واحد، كلام الله تعالى غَنِيّ، وقد قال سيِّدنا عليٌّ كرَّم الله وجْهه عن القرآن: ذو وُجوه، أمّا موضوع أيُّ أسماء الله تعالى أعْظم؟ فهو موضوع خِلاف، ولا يوجد شيء قطْعي أنَّ الاسم الفُلاني هو اسم الله تعالى الأعظم، وكما قلتُ لكم: في كُلِّ حال من أحوال البشر يكون عند

صاحب هذا الحال هو اسم الله الأعظم، فهناك قوْل يقول: إنّه الحيّ القيُّوم، وقوْل: الرحمن الرحيم، وقد يكون أيّ اسم من أسماء الله تعالى أعْظم، حسب حال الداعي ورجائه وتوسلاته.

أ كبر شيء في ثقافة الداعِيَة آياتُ القرآن الكريم، وهو الكتاب الأوَّل، كما أنَّه يجب أن يترافق حفظك للقرآن مع طلبك للعِلم، فأنت مثلاً لا بدّ أن تكون قد تفاعَلْت مرَّة مع درْسٍ، وسمعت آيات واضِحَة جداً، فلا تجعل حديثك ارْتِجالياً، لو ألْقيْتَ نظْرة على الدعاة الناجحين، لوجدت أنّ له مجموعة موضوعات جاهزة، وله بعض الآيات يحفظها، ويعرف أبعادها، ودقائِقها، وتأويلها، وتفسيرها، وشواهدها، فلو تَكلَّمْتَ دائِماً بِكلام أعْددْتَهُ سلفاً لبلغتَ الغاية في نفوس السامعين.

من عظمة القرآن أن كلّ آية إذا نزَعْتها من سِياقها فلها معنى مُسْتَقِلاً :

قلتُ من قبل في قوله تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة الأعراف: 55]

العُدْوان يُلْغي اسْتِجابة الدعاء، والعُدوان في عدم التَّضرُّع وفي إطالة الدعاء، فإذا أنت قرأتَ آيَةً قِراءَةً صحيحة، وكَتَبْتها في دفتر صغير، وكتَبْتَ بعض المعاني الدقيقة لها، وكذا الحديث الشريف، وكذا الحُكم الفقهي، والتراجم، فلو كنت مدعوّاً لجَلْسة مع أقاربك لوجدتَ الزاد الذي تتكلَّم به، فالأشياء الجاهزة تُريحك، وإذا سُئِلْتَ وقلتَ: لا أعلم، فقد ارْتَقَيْتَ عالياً، فنصف العلم لا أدري، فهذا شرف العِلْم، فإذا كان الإمام مالك يقول لما سُئِل: لا أدري، فمَن أنت أمام هؤلاء؟! ونصف العِلْم لا أدْري، ويَظَلُّ المرء عالماً ما طلب العِلْم، فإذا ظنَّ أنَّه عِلِم فقد جَهل، دائِماً أسْمع من العلماء كلمات متواضعَة يقولون: أنا طالب عِلْم، التواضع جميل، وإذا ظنَّ الإنسان أنَّه عالم فهو جاهل، فإذا أحَسَّ الناس فيك المَوْضوعِيَّة، وعدم الادِّعاء احْترَموك أكثر، وكلَّما تقدَّم الزّمن تصبح الرغبة لديك في المعرفة والعلم جامحة، وإذا سئِلْت سؤالاً مُفاجئاً، فقلت: واللهِ لا أدري، فقد كبرتَ في عَيْني وعيون العلماء، عليك أن تُقَيِّد العِلْم بالكتابة، والدَّعوة إلى الله تحْتاج إلى جهْد مُسْتَمِرّ، وكُلّ منَّا بدأ من الصِّفْر، وكل طريق طوله ألف كيلومتر أساسه خطوة واحدة، فالقرآن يجب أن يتلى ويُحْفظ خاصَّة لمَن كان صغير السِنّ لأنَّه يصعب عليه الحفْظ في الكِبَر، والقرآن من أيَّة زاوية يُسْعِدُك، وهناك سُوَر يكثر تداولها كالإسراء، والكهف، ويوسف، وجزء عمَّ، وجزء تبارك، فمن أجل التَّسْهيل عليك أن تبدأ بالسُّوَر السَّهْلة، فأحْياناً يبدأ بعضهم بالسُّوَر الصَّعْبة بعدها يعجز عن الحفظ، ويدع القرآن كله.

ثمّ إنّ القرآن الكريم ذو وجوه، ومن عظمة القرآن أن كلّ آية إذا نزَعْتها من سِياقها فلها معنى مُسْتَقِلاً، فإذا وَضَعْتها في سِياقها فلها معنى سِياقي، ونحن عندنا السياق، والسباق، واللّحاق، فقوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق: 2]

تُفَسَّر بِمُجَلَّدات، أما بالسِّياق فهي على الطلاق، ومن يتَّقِ الله في تطْليق امْرأته يجعل الله له مَخْرجاً في اِرْجاعها وَفْق السنَّة، وتجد مخْرجاً لإرجاعها، أما لو طلَّقها طلاقاً بِدْعِيّاً فليس هناك سبيل أو مخرجٌ لإرْجاعها.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أفعال الله مُعَلَّلَةٌ بمَصالِح خَلْقِهِ :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في العقيدة الطحاويَّة إلى قول المؤلّف رحمه الله: "خالق بلا حاجة ورازق بلا مؤونة"، الآن الآية الكريمة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

ماذا تُعربون هذه اللام؟ لام التَّعليل، ولام التَّعليل مقبولة في حَقِّ الإنسان، ولكنَّها لا تَصِحُّ في حقِّ الله جلَّ جلاله، لماذا؟ فبعضهم يقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الخَلْق لِهَدَف أن يعْبدوه، الإنسان حينما يرْسُم أمامه هدفاً ويسْعى إليه؛ فماذا يعني ذلك؟ يعني أنَّهُ ضعيف، وتوصَّل إلى هذا الهدف بوَسيلة، لماذا تدْرس؟ كي تتعلَّم، ولماذا تَحْفِرُ البئر؟ كي تستخرج الماء، ولماذا تزْرع الحبَّ؟ كي تُنْبِتَ الغذاء، فالإنسان حينما يكون له هدف، وهو قاصِر عن أن يَصِلِ إليه، فيستعين بأداة، بمُجَرَّد أن يكون لك هَدَف بعيدٌ عنك، وبعيد أن تصل إليه رأساً، فأنتَ مُحْتاجٌ لِوَسيلة، فلو أنَّني أردتُ الذهاب إلى حلب، لَلزمَني ذلك إلى سيارة فَحَلَب بعيدة عنِّي، ولا أستطيع أن أصل إليها إلا أنْ أرْكَبَ السيارة، فلامُ التعليل، والأهداف والوسائل، كلها تَصِحُّ في حقِّ الإنسان ولكِنَّها لا تَصِحُّ في حقّ الله تعالى، فلامُ التعليل في هذه الآية خَرَجَت عن معناها، فليس معناها أنَّ الله سبحانه وتعالى له هَدَف، ووصَلَ إليه بوَسيلة؛ لا، بل هو خَلَقَ الخَلْق كلهم، وعليهم أن يعبدوه، لذلك خالق بلا حاجة، والعِلَّة الغائِيَّة لا تليق بالله تعالى، ويجب أن نَنْفي عن الله تعالى العِلَّة الغائِيَّة، وهي أن نقول: إنَّ هناك غاية، والله تعالى وَصَل إليها بوَسيلة، هذا شأنُ البشَر، وشأن الضِّعاف، أما الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُن فيَكُون فلا يحْتاج إلى وسائل، ولا إلى أهداف، فلا الأهداف تليق به، ولا الوسائل تليق به، إلا أنَّ بعضهم يفْهَم جَهْلاً أو خطأً أنَّنا إذا نَفَيْنا عن الله تعالى العِلَّة الغائِيَّة معنى ذلك أنَّ أفعال الله تعالى لا غاية منها! لكن الصواب أنّ أفعال الله مُعَلَّلَةٌ بمَصالِح خَلْقِه.

الدِّين فيه ثلاث كُلِّيات جانب فِكْري وجانب سُلوكي وجانب جمالي :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ*مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ*إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 56-58]

أنا خلقتهم، فإذا عبدوني سَعِدوا، وهذه اللام ليْسَت لله عز وجل، وليْسَت تَعْليلاً لِخَلْق الله، بل هي عِلَّةٌ سعادتهم، إن عَبَدوه سَعِدوا، فهل هناك لامٌ أخرى خَرَجَت عن مَدْلولها في القرآن؟ نعم، هي لام المآل، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

[سورة القصص: 8]

لا يُعْقَل لِمَن كان له عَقْل أن يلْتَقِطَ غُلاماً لِيَكون له عَدُوّاً، لكنَّ هذا الغُلام آل أمرُه لِيَكون عَدُوّاً، فهذه لَيْسَت لامَ التَّعْليل، ولكنها لامُ المآل، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

كُلُّكم يعْلم أنَّ الدِّين فيه ثلاث كُلِّيات؛ جانب فِكْري، وجانب سُلوكي، وجانب جمالي، الجانب السُّلوكي لا يكون إلا بالجانب الفِكْري، والجانب الجمالي لا يكون إلا بالجانب السُّلوكي، فالله تعالى قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

الله سبحانه وتعالى خالقٌ بلا حاجة :

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ*مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ*إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 56-58]

الحديث القُدْسي الذي ورَدَ عن الإمام مُسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ

إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عَنْ أبي ذرٍّ]

فالله سبحانه وتعالى خالقٌ بلا حاجة.

الله تعالى حينما يَصِفُ ذاته بأسْمائِه أو صِفاته الفُضْلى يأتي بها غالباً مَثنى مثنى :

لكنّ الناس فقرَاء إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[سورة فاطر: 15]

مَن يُفَكِّر في كلمة الغَنِيّ الحميد؟ الإنسان أحْياناً تَظْهَرُ مودَّته ولُطْفُه وأدَبُه ونُعومَتُه إذا كان مُحْتاجاً لإنسان، فإذا استَغْنى عنه تَظْهر فظاظته وكِبْرُه واسْتِعْلاؤُه، فالذي ليس له أصْل إيماني؛ هذا لُطْفُ الضَّعْف، وأحْياناً الغِنى من لوازِمِه الفظاظة، والغِلْظة، والاسْتِعْلاء، والعُنْجُهِيَّة، وهذا شأنُ البَشَر، لكنّ الله سبحانه وتعالى حينما يَصِفُ ذاته بأسْمائِه، أو صِفاته الفُضْلى يأتي بها في الأعَمِّ الأغلب مَثْنى مثْنى، وهناك علاقة رائِعة بين الاسْمَيْن، فالله تعالى قال:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

[سورة لقمان: 12]

هو غَنِيٌّ عنكم، ومع أنَّهُ غَنِيٌّ عنكم لا يُعامِلُكم إلا مُعامَلَةً تَحْمَدونه عليها، هذه الآية تُشْبِهُ قوله تعالى:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التغابن: 1]

وقوله تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن: 78]

الله سبحانه وتعالى رازق بلا مؤونة :

هناك مُلاحظة ذكرتها لكم سابقاً: أنَّ بعض أسْماء الله الحُسْنى لا يجوز أن تُلفظ فُرادى، فلا يجوز أن تقول: الله ضارّ، إنَّما تقول: الضارّ النافع، الخافض الرافع، والمُعطي المانع، والمُعِزّ المُذِلّ، فهو تعالى يخفض لِيَرْفع، ويمنَعُ لِيُعْطي، ويُذِلّ لِيُعِزّ، ويضُرّ لِيَنْفَع، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[سورة فاطر: 15]

وقال تعالى:

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة الأنعام: 14]

ومن حديث أبي ذرّ رضي الله عنه الذي رواه مُسْلم:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

فالله تعالى خلق بلا حاجة، ورزَقَ بلا مؤونة، والمؤونة تعني الثِّقل والكُلفَة، أحْياناً الإنسان يُعْطي أهله، لكن بعد عَمَلٍ مُضْنٍ، وتَعَبٍ شديد، وبعد أن يسْتنفذ كُلَّ طاقته، أما الله تعالى ولله الأسماء الحُسنى خالقٌ بلا حاجة، ورازق بلا مؤونة.

الموت صِفَةٌ وُجودِيَّة خِلافاً للفلاسفة ومن وافقهُم :

قال المؤلِّف رحمه الله: "مُمِيِّت بلا مَخافة، وباعِثٌ بلا مَشَقَّة، فالموت صِفَةٌ وُجودِيَّة خلافاً للفلاسفة ومَن وافقهم ".

الآن دَخَلنا في موضوع دقيق، وهو الفَرْق في أن تعْتَقِد عقيدَةً مُسْتَوْحاة من كِتاب الله عز وجل، وبين أن تعْتَقِد عقيدَةً مُسْتَوْحاة من نَظَرِيَّة الفلاسِفَة، ماذا قال الفلاسِفَة: المَوْتُ شيء عَدَمي، حينما تنقطِعُ الحياة

يكون الموت، والموتُ شيء لا وُجود له وهو شيء سِلبي، ونَفْيُ الحياة يَجْعَلُ الكائِن ميِّتاً، لكنَّ الله عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

بحسب أحْدَث النَّظريَّات تبيَّن أنّ في الإنسان عوامِل المَوْت، لكنَّها ضعيفة، فإذا قويَت عوامِل الموت على عوامِل الحياة مات الإنسان، هذه العوامِل يبْدأ عملها في العَقْد الرابع أو الخامِس، وتتنامى إلى أن تتغَلَّب على عوامل الحياة، فَيَمُوت الإنسان، إذاً هناك شيء مَخْلوق في الإنسان، وهو عوامل الموت، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

لذلك فالموت صِفَة وُجوديَّة خِلافاً للفلاسفة ومن وافقهُم، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

ما مِن إنسان في الدنيا إلا والموت يُقْلِقُه :

العَدَم لا يوصَفُ بِكَوْنِه مَخْلوقاً، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ـ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ـ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ما مِن إنسان في الدنيا إلا والموت يُقْلِقُه، ولو كان في بَحْبوحة وعِزّ، وكلَّما لاحَ الموت جعل سعادَتَهُ شَقاءً، لذلك فإنّ الموت الذي يلوح للناس في الدنيا يُذْهِبُ عنهم سعادتهم؛ يُجَسَّد هذا الموت بِكَبْشٍ أملح، ويُذْبَحُ بين الجنَّة والنار، ونحن المسلمون دائِماً يجب أن نعْتَقِد أنَّ الله سبحانه وتعالى حينما يقول شيئاً في كتابه الكريم، أو حينما يقول النبي عليه الصلاة والسلام كلاماً فرُبَّما مُعْطَيات العَصْر لا تسْمَحُ لِفَهْم هذا النصّ، وإلى حين كان يُظَنّ بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِي الْآخَرِ دَاءً))

[مسلم عن أبي هريرة]

كان الناس يظنون أن هذا الحديث موضوع، حتى إنّ بعض عُلماء الدِّين وإلى فَتْرة قريبة كانوا يَفِرُّون من هذا الحديث، ويُرَجِّحون أنَّه ليس صحيحاً، ثُمَّ أثبَتَ العِلْم أنّ في أحد جناحَي الذباب داء، وفي الآخر دواء، فأنت إن لم تَسْتَوْعِب حديثاً، ولم يتوَضَّح في ذِهْنك، وكان العِلْم قاصِراً على أن يُثْبِتَه، فإيمانُك بالله يجب أن يدعوك إلى التَّسليم، لأنَّ الأمْر إذا كان واضِحاً جداً، وكانت نتائِجُه لديك واضِحَة كذلك، وأنت فعَلْتَهُ، ويغْلِبُ على فِعْلِك اتِّباعُ صالِحِك، أما حينما يَضْعُفُ إدْراكك عن إدْراك حِكْمَتِه، وتُبادِر إلى تنفيذِه، فإنَّ هذا الأمْر يُقوِّي جانب العُبودِيَّة فيك.

في احد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء

هناك أوامر في الدِّين المَقْصود منها امتِحان عُبودِيَّتك لله عز وجل ومدى إيمانك :

ضَرَبْتُ لكم مَثَلاً مرَّة، وهو أب أولاده على المائدة، فإذا أعْطى الأب أمْراً لأحد أوْلاده؛ أنْ نَظِّف أسنانك، فهذا لِصالِحِه، وكذا لا تتأخَّر عن المدْرسة، واكتب وظائِفَك، فالابن يتلقى من أبيه عشرات الأوامر، كُلُّها واضِحة، فالابن الذَّكِّي الذي يُبادِر في تطبيق أوامر أبيه البَيِّنَة حِكْمَتُها ونَفْعُها، فلا يُسَمَّى هذا خُضوعاً للأب، أما حينما يتلقَّى الابن أمراً غير معقول فهو في حالة جوع شديد، والطعام على المائدة ساخِن، ويقول الأب لابنه: لا تأكل! فإذا أطاع الابن كان دليلاً على تَرْبِيَتِه، فأحْياناً هناك أمْرٌ تَعَبُّدي، وأعظم أمْر تَعَبُّدي في كتاب الله أن يقول الله عز وجل لأحدِ الأنبياء الكِرام: اِذْبَح ابنك، شيء غير مَعْقول، وغير مَقبول، فَدَائِماً الأمْر فيه عُنْصران: مَضْمون الأمْر، والآمِر، فأحْياناً تكون العِلَّة في تطبيق الأمْر مَضْمونَ الأمْر نفْسِه، فإذا كان هناك إنسان عظيم في مَرْكَبَة، وأمامه حُفْرة لا يراها، وأدار المُحَرِّك، وهو في طريقه إلى الحُفْرة، لو أنَّ طِفْلاً صغيراً نبَّهَهُ يستَجيب! هل نقول: إنَّ هذا الإنسان العظيم يَعْبُد هذا الطِّفْل الصغير؟ الأمر واضِح، والنَّصيحة جَلِيَّة، إلا أنَّهُ متى يتَّضِحُ جانب العُبودِيَّة في الإنسان؟ حينما لا يتَّضِح له الأمر! ففي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ

الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

فالله تعالى أمرك بالصِّدْق، وأمرَكَ بأداء الحُقوق، وغضِّ البَصَر؛ كُلُّ هذه الأمور تُريح النفس، فإذا قال لك: لا تأكل، ولا تشرب الخمر، كان واضِحاً، فإذا قال لك: لا تأكل الخنزير كان أوْضَح، فالأمر إذ غابَتْ عنك حِكْمته، والأمر إذا كان شعائِرِياً، وليس واقِعِياً، فالصلاة، والصوم، والحج؛ من طواف، وسعْي، ووُقوف بعرفة، وقد قدِمْتَ من طرف الدنيا، ودَفَعْتَ آلاف الدراهم لِتَقِفَ بين يدي الله، فهذه أوامِر تَعَبُّدِيَّة نبْحث عن حكمتها، إلا أنَّه أحْياناً يغلب على الأمْر أنّ آمِرَهُ عظيم، يكفي، ولذلك قال بعض العلماء: عِلَّةُ أيّ أمْرٍ أنَّهُ أمْر، ألا يكفي أنَّه أمْر الله عز وجل، نحن مع فَهْم الحِكْمة، ومع التمْحيص، ومع التعليل من أجل أن ندْعُوَ إلى الله عز وجل، ولأن تكون الدَّعْوة مَعْقولة فهذا كُلّ شيء لا غُبار عليه، لكن حينما تُعَلِّق تنفيذ الأمْر على فهْم حِكْمتِه فأنت لا تعبد الله أبداً، لذلك هناك أوامر في الدِّين المَقْصود منها امتِحان عُبوديَّتك لله عز وجل، إذْ هناك أوامر المقصود منها إظهار مدى إيمانك بالله تعالى، ومدى تَسْليمك له.

الله تعالى يسوق للإنسان الأقدار لِيَمْتَحِن ثِقتَه به واستِسْلامه وعُبودِيَّتَه له :

قد يتلقى إنسانٌ من آخر مئة نصيحة، وكل نصيحة أكثر فائِدَةً من أُختها، ثمَّ ينصحُهُ نصيحَةً غير مَعْقولة، ماذا يفعل هذا الإنسان؟ يقيس على ما مضى، فأنت وطِّن نفْسَك أنَّك تطالعك أحياناً حالات غير واضِحَة، هناك أمْرٌ أوْضَح من ذلك؛ فلو أنَّ إنساناً جلسَ على كرسي علاج الأسنان، وأقْنَعه الطبيب أنَّ قلْع الضِّرْس مُؤلِم جداً، وأنَّهُ لا بدّ من مُخَدِّر، والإبرة فيها ألَم طفيف، فالأمْر واضِح جداً، وما دام كذلك فلا يُقال لِلمريض إلاّ اصْبِر، لأنَّ هذا لِصالِحِه، لكن إذا قال لك الله تعالى:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ)

[سورة القلم: 48]

معنى ذلك أنَّ هناك أمْراً ليس واضِحاً عندك، فلذلك يُمْتَحَنُ الإنسان أحْياناً بِقضاءٍ من الله تعالى وقَدَرٍ لا يرى حِكْمَتَهُ؛ مُسْتَقيمٌ وجاءَتْهُ مصيبة، ويُنْفِقُ مالهُ ليلَ نهار، وجاءَتْهُ ضائِقَة مالِيَة، كان بارّاً لِوالدِه، ووجَدَ من ابنه بعض المُشاكَسَة، فأنت عُرْضة لابتلاء الله عز وجل، إذْ سبحانه وتعالى قد يسوق لك الأقدار لِيَمْتَحِن ثِقَتَكَ به، واسْتِسْلامك له، وعُبودِيَّتَك له جلَّ جلاله. لذلك قال سيّدنا سَعْدُ: ثلاثة أنا فيهنَّ رجل، وفيما سِواهنّ أنا واحِدٌ من الناس: ما سَمِعْتُ حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسَلَّم إلا عَلِمْتُ أنَّهُ حقٌّ من الله تعالى، فَمَثَلاً حَبَّة البركة، أو الحَبَّة السَّوْداء تُقَدَّم لإنسان عاش في الصَّحْراء، والمُعْطَيات

العِلْمِيَّة ضعيفة جداً، ويقال له: فيها الشِّفاء، كيف؟! الكلام كبير جداً، والمَضْمون صغير، حَبَّة سَوْداء فيها شِفاء، نعَم، فقبْل سَنَتَيْن أو ثلاث سنوات عُقِد مؤتمر بالقاهِرَة، هذا المؤتمر من أجل الحَبَّة السِّوْداء، وكان من نتائِج هذا المؤتمر أنّ الحَبَّة السوداء تُقوِّي جهاز المناعة في الإنسان، وتَقْوِيَةُ جِهاز المناعة شِفاء من كُلِّ مَرَض، فَنَتَائِجُ هذا المؤتمر تتناسَب مع هذا الحديث الشريف.

كُلَّما ازْداد إيمانُكَ بالله تَشْعُر أنَّ الذي يَقُولُهُ النبي وَحْيٌ يوحى :

هناك آلاف الأحاديث فَمَثَلاً عِلْمُ المُسْتَحاثَات في الجزيرة العَرَبِيَّة يُؤَكِّد أنّ تحت الرُّبْع الخالي حضارة، ومُدُن مَغْمورة بالرِّمال، وبساتين، وجنَّات، وقُصور، وبُيوت، فكيف يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً))

[مسلم عن أبي هريرة]

معنى ذلك أنَّها كانت، ومعنى ذلك أنَّها ستَعود، ومعنى ذلك أنَّ خُطوط المَطَر تنتَقِل، والمُلاحظ بهذه السنوات الخمْس الأخيرة أنَّ نِسَب الأمطار بالشَّرْق أكثر من الغَرْب، وصار هناك قَحْط وجفاف مُمِيت بشَمال أوروبا، فلَعَلَّ النبي عليه الصلاة والسلام أعْلَمَهُ أنّ هذه البِلاد كانت جنَّاتٍ وانْهاراً، وستَعود في نِهاية الدَّوَران للزمن جنَّاتٍ وأنهاراً، فأنت كُلَّما ازْداد إيمانُكَ بالله عز وجل تَشْعُر أنَّ الذي يَقُولُهُ النبي عليه الصلاة والسلام وَحْيٌ يوحى، ولا علاقة لكلامِهِ بمُعْطَيات العَصْر، وقد تكون كُلّ مُعْطيات العَصْر العِلْمِيَّة لا تَكْفي لِتَوْجيه مُعطيات النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: وهو وإن كان عَرَضاً، فالله تعالى يَقْلِبُهُ عَيْناً، ما معنى عَيْن وعَرَض؟ العَرَض صِفَة طارئة فَيُمْكِنُني أن أضَعَ مادةً في هذا الماء، الذي لهُ وَزْنٌ، وحَجْم، وخصائص، فالماءُ عَيْنٌ، ولكن لو وَضَعْتُ في هذا الماء لوْناً أحْمَرَ، فصار لوْنُ الماء أحْمر، فاللَّوْن عَرَض، والطاولة عَيْن، ولكن هذا اللَّوْن الذي اِكْتَسَبَتْهُ عَرَض، وكذا اللَّون عرض، أما الشُّعاع عَيْن فقد يكون أحْمر، أو أصفرَ، فالمَوْتُ عَرَض في رأي عُلماء الفلاسفة، وإن كان عَرَضاً فالله تعالى قَلَبَهُ عَيْناً، هكذا قالوا! وأصْبَحَ شيئاً يُخْلَق، ووالله الذي لا إله إلا هو هذا المعنى في نَفْسي قديم، حول المرَض لا الموت، فأشْعُر أنّ الإنسان يُصاب بالمرَض إلى أن يَظُنّ، أو يتأكَّد أنَّهُ انتهى؛ فمِن أين تأتي الصِّحَة بعد ذلك؟ تَشْعُر وكانَّ الصِحَّة شيء خُلِق فيه، وكانت هناك عِلَلٌ كثيرة، فالله تعالى كما خلق المرَض يَخْلُقُ الصِّحة، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[سورة الشعراء: 78-80]

فالشِّفاء شيءٌ يُخْلَق، ولِذلك فهذا المعنى يدْفَعُ اليأس عن كُلِّ الناس.

الله سبحانه وتعالى يقلبُ الأعْراض إلى أعْيان يوم القِيامة :

كَما أنَّ الله تعالى خَلَق المَرَض فإنَّه يخْلُقُ الشِّفاء، وكما أنَّ الله تعالى خلّقَ الحياة يخْلق الموت قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

وقد ورد في العمل الصالِح حديثٌ عن براء بن عازب وهو حديث صحيح أنَّه يأتي صاحِبَه في صورة الشاب الحَسَن، والعَمَل القبيح يأتي في صورة الرجل القبيح، وقد ورَدَ في الحديث عن فضْل القرآن أنَّه يأتي على صورة الشاب الشاحِب اللَّون، أي قِراءَة القارئ، وورَدَ في الأعمال أنَّها توضَعُ في الميزان، والأعْيان هي التي تَقْبلُ الوزْن دون الأعراض، فحينما يوزَنُ الشيء الذي هو عَرَض معنى ذلك أنَّ الله تعالى قلَبهُ إلى عَيْن، ولِحِكْمةٍ بالغة فهذه الأشياء المَعْنَويَّة التي هي أعْراض في الدنيا يجْعَلُها الله عز وجل يوم القِيامة أعْياناً؛ أحْياناً يُعَلِّق الإنسان في بيتِه شهادة، ما معنى هذه الشهادة؟ عِبارة عن وثيقة تُثْبِتُ عِلْمهُ، ففعلُ اللهِ عز وجل أبلغُ من شهادة حينما يريدُ أن يُبَيِّن لِكُلِّ واحِدٍ من خلْقِهِ ماذا عَمِل! فقد يأتي العَمَل مُجَسَّداً، فَمُلَخَّصُ هذه الموضوع أنَّ الله سبحانه وتعالى يقلبُ الأعْراض إلى أعْيان يوم القِيامة، وهو على كُلِّ شيء قدير، وأنا أذكر لكم هذا وهو من باب التقريب، أنَّ بعض الإحْصاءات يَضَعون مُجَسَّداتٍ بيانِيَّة، ومُكَعَّبَات مُتَفاوِتَة في الارْتِفاع، فَيُمْكِنُ للفِكْرة أن تُصْبِحُ مُجَسَّدةً بِحَقيقة. فالفِكْرة ملخصة: أنّ الشيء غير المادِّي يُصْبِحُ يوم القِيامة مادِيّاً، وفي الصحيح أنّ أعْمال العِباد تصْعَدُ إلى السماء، وسيأتي الكلام عن البعْث والنُّشور إن شاء الله تعالى.

الفرق بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر وضوحه ودقته :

قال المُصَنِّف: ورد في القرآن مجازات بلاغية؛ منها ما يكون إيجازاً مُخلاً، فقد ورد في الحديث عن فضْل القرآن، فالأوَّل من هذه المجازات إيجازٌ مُخِلّ، لأنَّنا توَهَّمْنا خلاف المنطوق، فالله تعالى قال:

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى)

[سورة القيامة: 31]

فلو أنَّ الله تعالى قال: فلا صدَّق وصلى، كان معنى الكلام أنَّهُ لم يُصَلِّ، فَلِمَ أضاف هذه (لا) الزائِدَة؟ دَفْعاً لِتَوَهُّم أنَّهُ صلَّى، معنى ذلكم أنّ البلاغة أن تقول كلاماً إذا أرَدْتَ منه معنى مُحَدَّداً ينبغي ألاّ يُفْهَمَ على معنى آخر، فهذا سيِّدنا عمر مرَّ على قوْمٍ يُشْعِلون ناراً، فقال: السلام عليكم يا أهل الضَّوْء! ولم يقُلْ السلام عليكم يا أهل النار! لأنَّهُ لو قال: السلام عليكم يا أهل النار! قد تُفْهَم عبارته أنَّهم من أصْحاب النار، فلو أنَّ أحداً قال لأحدٍ: كيف حالك وهل أنت مُعافىً؟ فأجاب: لا عافاك الله، كان المعنى دعاء

عليه، ماذا ينبغي أن يقول؟ لا، وعافاك الله؛ بإضافة الواو، فـ (لا) إجابة عن السؤال، والجملة التي بعدها دُعاء له، والإنسان كُلَّما ارْتَقَى بِلُغَتِه يخْتار العِبارة المناسِبَة، التي لا يُمْكِن أن تُفْهَمَ فَهْمَيْن، والفرق بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر وضوحه ودقته؛ فأحْياناً يكون في ذِهْن الإنسان معنى مُحَدَّد، ولِضَعْف اللُّغَة، وعدم بلاغته الراقِيَة يستعْمل عِبارة تحْتَمِل عِدَّة معانٍ، وهو يريدُ معنىً واحِداً، وهنا نقول:

هذه العِبارة تحْتاج إلى شرْح، وعلينا أنْ نرْجِع إلى قائِلِها لنفهم ماذا يُريد بهذه العِبارة، أما الله تعالى إذا ذَكَر عِبارة احْتِمالِيَّة فالإله له شأن خاص، وهو يريد كُلَّ المعاني التي تحْتَمِلُها هذه العِبارة، لذلك سَمَحَ لنا أن نجْتَهد، وقد أوْرَدَ لنا ربُّنا عز وجل نُصوصاً، وذكرَ في القرآن آيات ظَنِيَّة المعنى، فأصْبح أحد خلاف العلماء في وِجْهات نَظَرهم أنَّ أصْل النصّ ظَنِّي الدلالة، والله عز وجل كلامه كامل، لكنه جاء ظنِّي الدلالة، فَمَعنى ذلك أنَّه تعالى أراد لنا أن نفْهَمَ هذا النصّ على معانٍ عِدَّة، وسَمَحَ لنا أن نجْتهد، والخصائص التي يرْقى بها الإنسان إلى أعلى درجات التكريم أنّه سمح له أن يجْتهد، وسمَحَ له أن يُبْدِع، وسَمَح له أن يكون فرْداً مميزاً، وسَمَح له أن يكون حُرّاً، وسمَحَ له أن يكون مُريداً، هذا مِن تكريم الله للإنسان، وجعله فرْداً لا مثيل له، والعلماء في زماننا اكْتَشَفوا أنّ في الكون اثنين ونصْف مليار زُمْرة نسيجِيَّة، أي أنَّهُ يوجَد في العالم شخص واحدٌ فقط يُشْبِهُ زُمْرتَكَ النَّسيجِيَّة، وأنا أتَوَقَّع أنْ يُكْتشف بعد حين أنَّ زُمْرة الإنسان النَّسيجِيَّة كَبَصْمة الإصبع لا تتكَرَّر، وما الذي يجْعل الإنسان فرْداً لا مثيل له؟ قال: قُزَحِيَّةُ العَيْن، والآن هناك أُصول إلكترونيَّة مَبْنِيَّة على قُزَحِيَّة العَيْن، تَضَع عَيْنَيْك على القِفْل، فَيُفْتَحُ الباب، وكذا رائِحَةُ الجِلْد، ونَبْرَةُ الصَّوْت، وبلازْما الدَّم؛ كُلّ هذه ينفرِدُ بها المرءُ عن كل الناس.

كل إنسان ينفرد بقزحية العين

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (09-20) : الصفات هل هي عين الذات؟
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب الخِلافات الكثيرة بين الفِرَق الإسلامِيَّة :

أيها الأخوة المؤمنون، وَصَلنا في موضوع العقيدة الطحاوِيَّة إلى موضوع بالغ الدِقَّة، وهو سَبَب خِلافات كثيرة بين الفِرَق الإسلامِيَّة، مسْألة الصِّفات؛ هل هي عَيْنُ الذات أم زائِدَةٌ على الذات؟ يقول الإمام الطحاوي: وكذلك مسألة الصِّفَة؛ هل هي زائِدَةٌ على الذات أم لا؟ فلفظها مُجْمَل، وكذلك لفظ: زائِدَة على الذات، أو غير زائِدَة على الذات، فإذا قلنا: زائِدَة على الذات، فهذا كلامٌ مُجْمَل، وإذا نَفَيْنا أنَّها زائِدَة على الذات فهذا أيْضاً كلامٌ مُجْمَل، وأحْيانًا الخُطورة في الإجمال، فإذا سُقْنا كلاماً مُجْمَلاً لا بدّ له مِن تَفْصيل، لأنَّكم كما تعلمون البلاغة بين الإيجاز المُخِلّ، والإطْناب المُمِلّ، فأحْياناً الإجمال والإيجاز يُؤَدِّيان إلى الإخلال بالمَعْنى، فقد يُراد بهما ما ليس مقصوداً منهما، وقد يُراد بهما ما جاز مُفارقتُه له، ففي موضوع العقيدة، وفي موضوع الإلهيَّات بالذات، وفي موضوع ذات الله تعالى، ولا سيما في موضوع الإلهيَّات، فالإيجاز أحْيانًا يُوقِعُنا في لبْسٍ شديد، فلا بدّ مِن التَّفْصيل، وهذا يحْمِلُني أن أقول لِسائِلٍ: هذا السُّؤال يحتاج إلى سَهْرة وإلى لِقاء مَفْتوح، تُريد أن أُجيبَك عن موضوعٍ دقيقٍ في القَضاء والقَدَر، بكَلِمة بعد خُطْبة الجُمعة؛ فهذا موضوع طَبيعَتُه التَّفْصيل، وضَرْب الأمثِلَة، وتقليب الوُجوه، والتَّعَمُّق، والتَّحليل، وإيراد الوقائِع، والأدِلَّة القرآنِيَّة، والسنَّة النَّبَويَّة، والأدِلَّة الفِطْرِيَّة، لذا أنْصَحُكم كَدُعاة أنَّكم غَداً تُسْألون فَبَعْضُ هذه الأسْئِلَة لا يجوز أن تُجيبوا عنها جواباً مُوجَزاً.

البلاغة لَيْسَت في الإيجاز ولا في الإطْناب إنَّما هي مُطابَقة الكلام لِمُقْتَضى الحال :

هناك معركة في هذه البَلْدة قبل أسابيع عِدَّة؛ خطيب مسْجد قال في خطبة الجمعة: نحتاج إلى فِقْهٍ جديد، وهناك مَن ردَّ عليه رَدًّا قاسِياً إلى أقْصى درَجَة، وجعلهُ جاهِلاً زِنْديقًا...الخ، ثُمَّ جرى لِقاءٌ، واسْتَمَعْتُ له في شريط، فهذا الذي قال هذا الكلام الموجَز كان يقْصِدُ كلاماً آخر، لكِنَّ الذي يسْمَعُ هذا الكلام يفْهَمُ عَكْسَ ما قال هذا القائِل، فأحْيانًا الإيجاز يوقِعُنا في مشكلة كبيرة جداً، لذا لا تُجِبْ بإيجاز عن سؤالٍ يحْتاج إلى تَفْصيل، وأن تُعالِج موضوعاً، وأنت تسير في الطريق، أو عَقِب درْس، فَهُناك موضوعات خطيرة لا تُعالَج إلا بالتأنِّي، وبوَقْتٍ مَفْتوح، وذَكَرْتُ هذا الكلام، لأنَّنا إنْ قلنا: الصِّفات عَيْنُ الذات ألْغَيْنا

الصِّفات، وإذا قلنا: إنَّها زائِدَة على الذات، صار المعنى أنَّ الصِّفات شيء، والذات شيء آخر، وهذا كُفْر! لِما فيه مِن التَّعَدّد، فَمِثْل هذا الموضوع يَحْتاج إلى تَفْصيل وشَرْح وإيضاح.

ليس كُلّ إيجاز بليغاً، إذْ هناك إيجازٌ مُخِلّ، وليس كُلّ إطْنابٍ مُخِلاً أو مُمِلاً، بل هناك موضوعات تَحْتاج إلى الإطناب، والذي أوتِيَ الحِكْمة يعرف كيف يوجز، وكيف يُفَصِّل، وفي مَوْضِعِ التَّفْصيل فالتَّفْصيل أوْلى، وفي موْضِعِ الإيجاز فالإيجاز أوْلى، ورَحِم الله مَن قال: البلاغة مُطابَقَة الكلام لِمُقْتَضى الحال.

برَبِّك لو كَلَّفْتَ طِفْلاً أن يَضَع رسالَةً في البريد، ألا تَشْرَح له كُلَّ شيء، تقول له: أمْسِك الرِّسالة بيَمينِك، واحْذَر أن تسقط من يَدِك، وإيَّاك أن تقول: طابع مطلق، وإنَّما طابع كذا وكذا، وضَع يدك عليه بشِدَّة في أثناء لصْقِه، واذْهب إلى صندوق البريد، وضَعْها في الفَتْحَة الأُفُقِيَّة، فهذا يُقال لِطِفْلٍ صغير، أما لو كان لك صديق عاقِل وراشِد، فأنت تطلب منه فقط أن يضَعَها في البريد، فالبلاغة لَيْسَت في الإيجاز، ولا في الإطْناب، إنَّما هي مُطابَقَة الكلام لِمُقْتَضى الحال.

أئِمَّة السنَّة لا يُطلقون على صِفات الله وكلامه أنَّه غيره ولا أنَّه ليس غيره :

ففي موضوع العقيدة، وفي موضوع الإلهيَّات، وفي موضوع صِفات الذات، هذا الموضوع لا يجوز أن نوجِز فيه، ولا أن نَخْتَصِر، ولا أن نَمُرّ مُرور الكِرام، فلا بدّ منَ التَّفْصيل، لأنّ (كلمة) لو سُقْناها بطَريقة غير صحيحة ربَّما فُهِمَ مِنَّا معنى لم نقصده إطلاقاً.

ولِهذا كان أئِمَّة السنَّة ـ رحمهم الله تعالى ـ لا يُطلِقون على صِفات الله وكلامه أنَّه غيره، لا يقولون صِفات الله غير الله، لأنّ هذا شِرْك ولا أنَّه ليس غيره؛ نكون بهذا ألْغَيْنا الصّفات، فإذا قلنا: الصِّفات هي عَيْنُ الذَّات معنى ذلك لا توجد صِفات، وإذا قلنا: الصِّفات زائِدَة على الذّات أصْبَحَ هناك تَعَدُّدِيَّة؛ وكِلاهما كفْر، ولهذا كان أئِمَّة السنَّة ـ رحمهم الله تعالى ـ لا يُطلقون على صِفات الله، وكلامه أنَّه غيره، ولا أنَّه ليس غيره، لأنَّ إطْلاق الإثبات قد يُشْعِر أنَّ ذلك مُباينٌ له، فهناك صِفات؛ إيجازاً وإطْلاقاً، فإطْلاق الإثبات بأنَّ للّه صِفاتٍ يُشْعِرُ أنَّ هذه الصّفات مُبايِنَةٌ له؛ هي غيره، وإطلاق النَّفْي أنَّ ليس له صِفات أو الصِّفات ليسَتْ زائِدَة قد يُشْعِرُ أنَّه هو هو، وأنْ ليس له صِفات، وأنَّ صِفاته عَيْنُ ذاته، إذا كان لفظ (غَيْر) فيه إجْمال، فلا يُطلق إلا مع البيان، والتَّفْصيل، فهذه أوَّل فائِدَة اسْتَفَدْناها في هذا الموضوع الدقيق، أنَّهُ لا يجوز أن نُطْلِق، بل لا بدّ أنْ نُفَسِّر، فإذا أثْبَتَّ الصِّفات فقد يُفْهَمُ التَّبايُن، وإذا نَفَيْتَها فقد يُفْهم الإنكار، وفي التَّعَدُّدِيَّة والإنكار كلامٌ كُفْرٌ، ما أراده الله سبحانه وتعالى.

فإنْ أُريدَ به أنَّ هناك ذاتاً مُجَرَّدَةً قائِمَةً بِنَفْسِها، مُنْفَصِلَةً عن الصِّفات الزائِدَة عليها، فهذا غير صحيح! ذات الله شيء، وصِفاته شيء آخر؛ هذا غَلَط! قال: وإن أُريد به أنَّ الصِّفات زائِدَة على الذات التي يُفْهَمُ مِن معناها غير ما يُفْهم مِن معنى الصِّفة، فهذا حقٌّ، فالله عز وجل له صِفاتٌ زائِدَة عن ذاته مِن دون أن تكون الذات، وصِفاتها شَيْئَين، ولكن ليس في الخارج ذاتٌ مُجَرَّدة عن الصِّفات، بل الذات المَوْصوفة بصِفات الكمال الثابِتَة لها، ولا تنْفَصِل عنها.

أكبر مَعْصِيَة على الإطلاق أن نقول على الله ما لا نعلم :

قد يقول أحدكم: ما علاقتنا بهذه المعاني الدقيقة؟ أحْياناً الإنسان إذا وَقف على المِنْبَر، أو جلَسَ على كُرْسيّ الدَّعْوة، وتكلَّم كلاماً عن ذات الله عز وجل ليس دقيقًا، وبالِغ في الدِّقَّة، فقد يُتَّهَمُ بالكُفْر، ولا تَنْسَوْا أنَّ أكبر مَعْصِيَة على الإطلاق أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ هناك فَحْشاء ومُنْكَر، وهناك إثم، وعُدْوان، ومَعْصِيَةٌ، وشِرْكٌ، ونِفاقٌ، وكُفْر، أما أكبر معْصِيَة أن تقولوا على الله ما لا تعلمون! لذلك يقول الإمام الغزالي عن العَوَام:

((لئِن يرْتَكِبوا الكبائر أهْوَنُ مِن أن يقولوا على الله ما لا يعلمون))

قبل أيَّام جَلَسْتُ مع صديق، والِدُهُ بعيدٌ عن الدِّين بُعْدَ الأرض عن السَّماء، فَهُوَ يأمُره أن يشْربَ الخَمْر، وأن يرتَكِبَ المعاصي والآثام، ويأمرُه بالقِمار، وغير ذلك، فالذي اسْتَفَدْتُهُ مِن هذه الجَلْسَة أنَّه قال لابنِه: أنا يا بُنَيّ قبل أربعين عاماً الْتَقَيْتُ بِشَيْخ في هذه البَلْدَة، وقال لي: لا تَطْلُبِ العِلْم فتُصبْحَ مَسْؤولاً! هذا الشَّيخ قال هذه الكلمة ومَشَى! فهذه الكَلِمَة أثْمَرَتْ في هذا الإنسان العاصي بأن رَفَضَ العِلْم، وتَحَرَّك وَفْقَ شَهْوَتِه، فرُبَّ كَلِمَة تتكلَّمُها قد تُسَبِّب إعْراضاً عن الدِّين، رجل محسوب على دينٍ يقول له هذه الكلمة، فإذا بها تتغلغل في قلبه، وتجد لها مكانًا مُتَّسَعًا! أربعون عاماً يرْفض أن يسْمَع خُطْبَة الجمعة، ويرْفض أن يُصَلِّي، لا يعرفُ شيئًا بل يعيشُ لِشَهْوَتِه.

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الله جلّ جلاله لا يُحاسِب الإنسان على حَجْم العَمَل بل على نتائِج العَمَل :

أيها الأخوة الكرام، أضَعُ بين أيديكم هذه الحقيقة، وإن كانت قاسِيَة؛ إنّ الله جلّ جلاله لا يُحاسِبُك على حَجْم العَمَل، بل يُحاسِبُك على نتائِج العَمَل، ذكروا أنَّ مَخْبَرَ تحليل بدِمَشق؛ إنسانٌ شَكَّ في ابنتِه، والبنتُ

بريئة، فأخَذَ جُزْءاً من دَمها ليُحَلِّلهُ، ليتبيّن ما إذا كانت حامِلاً أو غير حامِلٍ، لأنَّ مشكلة وَقعَت؛ فهذه العَيِّنَة وَقَعَت مِن يَدِ المُوَظَّف فانْكَسَرَتْ، فخاف مِنَ الطبيب صاحب المَخْبَر، فَكَتَبَ: الحَمْل إيجابي، ولم يَدْرِ ما فَعَل، فلمَا جاء الأبُ مساءً قال له الطبيب: مَبْروك، ابنتُك حامِل، فَرَجَعَ الأب لابْنَتِه وذَبَحَها، يا تُرَى كيف يُحاسَب صاحِبُ المَخْبَر؟ والله الذي لا إله إلا هو ليُحاسَبَنَّ على أنَّهُ قاتِل، دَقِّقوا في هذا الكلام: إنّ الله جلّ جلاله لا يُحاسِبُك على حَجْم العَمَل، بل يُحاسِبُك على نتائج العَمَل، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

[سورة يس : 12]

عدم انفصال ذات الله عن صِفاتِه لأنَّهُ ذاتٌ واحِدَة :

قال: فإنْ أُريدَ بِهِ أنَّ هناك ذاتاً مُجَرَّدَةً قائِمَةً بنَفْسِها مُنْفَصِلَة عن الصِّفات الزائِدَة عليها، فهذا غير صحيح، وإنْ أُريدَ به أنَّ الصِّفات زائِدَة على الذَّات التي يُفْهَمُ من معناها غير معنى الصِّفَة، فهذا حَقٌّ، ولكن ليس في الخارج ذات مُجَرَّدَةٌ عن الصِّفات، بل الذات المَوْصوفة بصِفات الكمال الثابِتَة لها لا تنفصِلُ عنها، فلا تنفصِلُ ذات الله عن صِفاتِه، لأنَّهُ ذاتٌ واحِدَة، وكما يقول علماء التَّوحيد: واحِدٌ في ذاته، وواحِدٌ في أسمائِه، وواحِدٌ في أفعاله، وواحِدٌ في صِفاته.

قال: وإنَّما يفرض الذِّهن ذاتاً وصِفَةً، أحيانًا العَقْل البشري يُحاول أن يُصَنِّف، فالعَقْل البشري يُحْدِث فواصل بين الأشياء، وهذه الفواصِل بين الأشياء لَيْسَت موْجودة، أنت تقرأ أن في التاريخ: العَصْر الأموي، والعَصْر العبَّاسي، وعَصْر الدُّوَل المُتتابِعَة، والعَصْر الحديث، فيا تُرى هل نحن نعيش بجِدار يفصل عَصْراً عن آخر؟ لا، هذا التَّقْسيم يُسَمُّونه مَدْرسة، وهو تقسيم عَقْلاني، أما الحياة فهي مُتَداخِلَة، وأشياء أخرى كثيرة، يقال لك: الصِّفات الفيزيائِيَّة، والصِّفات الكيماويَّة، فهذه التقسيمات هي عَقْلِيَّة مُتداخِلَة، فَكذلك الذِّهْن، فقالوا: يفرض الذِّهْن ذاتاً، وصِفَةً، كُلٌّ وَحْدَهُ، ولكن ليس في الخارج ذاتٌ غير مَوْصوفة، فإنَّ هذا مُحال، وهل هناك ذات ليس لها صِفَة؟ أقول: هذه الطاوِلَة متينة، فهل المتانة غير الطاوِلَة؟! وإذا قلتُ: هذه الطاوِلَةُ لونها بُنِّي، فهل الطاوِلَة غير اللَّوْن البُنِّي؟! لا، الواقِع أنَّه ما من مَوْجودٍ إلا وَصِفَتُه فيه، أما أن تتَخَيَّل أنَّ الصِّفَة شيء والذات شيء آخر، فهذا فَصْلٌ عَقْلاني وذِهْني مُجَرَّد.

الله سبحانه وتعالى لا يُشْبِهُ خلقه وليس كمثله شيء :

قال: ونقول: إنّ الله سبحانه وتعالى لا يُشْبِهُ خلقه، وليس كمثله شيء، هذا مَثَل تَوْضيحيّ، ذات الله عز وجل ليْسَت مُنْفَصِلَة عن صِفَتِه، فإذا قلنا منْفَصِلَة وَقَعْنا في التَّعَدُّدِيَّة، ومع التَّعَدُّد الشِّرْك، وإذا قلنا: صِفاته عَيْنُ ذاته فقد ألْغَيْنا الصِّفات، ونكون بهذا ألْغَيْنا شيئًا ذكَرَهُ القرآن، ولا يَخْفى عليكم أنَّ إنكارَ شيء من كتاب الله تعالى كُفْرٌ، وأنا أقول لكم: إنَّ أكبَر عَقْل بَشَري لا يستطيع أن يعرفَ شيئاً بسيطاً عن ذات الله عز وجل.

سُؤال بسيط: هل عرفَ العَقْل البَشَري حُدود الكَوْن؟ لا، ما عرفَ، فإذا كان العَقْل البشري يعْجز عن إدراك الكون المادِيّ، فَهُوَ أشَدُّ عَجْزاً عن معرفة الذات التي خَلَقَت هذا الكون! لكن كما يقول سيِّدنا عليّ رضي الله عنه:

((أخْذُ القليل خيرٌ مِن تَرْك الكثير))

! إلا أنَّه لا بدّ أن تعْرِف أنَّ موضوع ذات الله عَيْنُ العِلْم به هي عَيْنُ الجَهْل به، وكلَّما قلتَ: لا أعرف، فأنت عالم، وكلَّما قلتَ: أعرف، معنى ذلك أنت جاهِل.

لو قلتَ لأحدهم: هذا البحر ؛ كم لتراً فيه؟ يقول لك: ثلاثة وتسعون ملياراً وستّة وأربعون وأربعة! هذا يعني أنَّه جاهِل، لكن لو قال لك: لا أعلم ! معنى ذلك أنَّه عالِم، لأنَّ هذا بحْر!

قال: ولو لم يكن إلا صِفَةُ الوُجود، فإنَّها لا تنْفَكّ عن المَوْجود، وإن كان الذِّهْن يفرض ذاتًا ووُجوداً لتَصَوَّروا هذا وَحْده وذاك وَحْده، ولكن لا ينفكّ أحدهما عن الآخر في الخارج، المَوْجود هو الذَّات، أما الوُجود فَهُوَ صِفَة، فَهُناك مَوْجود ينْفَكُّ عن صِفَة الوُجود، فأقْربُ صِفَة للمَوْجود هي الوُجود، كما قلتُ قبل قليل: نحن عندنا جَوْهَر وعَرَض، فالماء جَوْهَر، أما أنَّه لا لَوْنَ له فهذا عَرَض، لأنَّه يمكن أن يكون له لَوْن، وأما لا طَعْمَ له ولا رائِحَة له، فهذا عرض، لكن هل تستطيع أن تفصِل هذه الصِّفات عن الماء؟! لا، وقد يقول بعضهم: الصِّفَة لا عَيْنُ المَوْصوف ولا غيره! فإذا قلنا: عَيْنُ المَوْصوف أنْكَرْنا الصِّفة، وإذا قلنا: غيره وَقَعْنا في التَّعَدُّدِيَّة والشِّرْك، وهذا له معنى صحيح، وهو أنَّ الصِّفَة لا هي عَيْنُ المَوْصوف ولا غيرُهُ، وهو أنَّ الصِّفَة غير عَيْن ذات المَوْصوف التي يفْرِضُها الذِّهْن مُجَرَّدَةً بل هي غيرها، وليْسَت غير المَوْصوف بل المَوْصوف بصِفاتِه شيءٌ واحِدٌ غيرُ مُتَعَدِّد؛ هذا هو الكلام الدقيق.

محاسبة الله تعالى على النَّوايا :

احْفَظ التَّعاريف الدقيقة حَرْفِيًّا عن ذات الله، لأنَّ أيَّ كلام دون دِقَّة يوقِعُكَ في الكُفْر دون أن تشْعُر، وإن كان الله تعالى يُحاسِبُ على النَّوايا، فهذا الذي قال كما ورد في الحديث: يا ربّ أنا ربَّك، وأنت عبدي،

لم يكفر، لذا قال أحدُ العلماء كلاماً رائِعاً: ليس كُلُّ مَنْ وَقَعَ في الكُفْر وَقَعَ عليه الكُفْرُ، فأحْياناً يتَكَلَّم الإنسان كلاماً فيه الكُفْر، فَهُوَ ما أراد الكُفْر، ولكن فيه الجَهْل، وفيه تسَرُّع، فَتَراجَعَ عمَّا قال، لذا كما قلنا: ليس كُلُّ مَنْ وَقَعَ في الكُفْر وَقَعَ عليه الكُفْرُ، فإنْ قُلتَ: أعوذ بالله، فقد عُذْتَ بالذات المُقَدَّسَة المَوْصوفة بصِفات الكمال، والمُقَدَّسَة الثابِتَة التي لا تقْبَلُ الاتِّصال بوَجْهٍ مِن الوُجوه، فهل إن قلتَ أعوذ بعِزَّة الله أشْرَكْتَ؟ فقدْ عُذْتَ بصِفَةٍ من صِفات الله تعالى، ولم أعُذ بغَيْر الله، صِفات الله ليس منفَصِلة عن ذات الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى يُفْهَمُ مِن لفْظ الذَّات؛ ففي أصْلِ معناها لا تُسْتَعْمَلُ إلا مُضافَةٍ، تقول: ذات وُجود، وذات قُدْرَةٍ، وذات عِزٍّ، إلى غير ذلك من الصِّفات، فذات كذا أي صاحِبَة كذا، والذّات تأنيث ذا و ذو، فهذا أصْل معنى الكلمة، فَعُلِمَ أنَّ الذات لا يُتَصَوَّر انفِصال الصِّفة عنها بوَجْهٍ من الوُجوه، وإن كان الذِّهْن قد يفرضُ ذاتًا مُجَرَّدَةً عن الصِّفة، وعَنْ عُثْمَانَ بْن أبي الْعَاص الثَّقَفِيِّ أنَّهُ:

((شَكَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ))

[مسلم عَنْ عُثْمَانَ بْن أبي الْعَاص الثَّقَفِيِّ]

وعن بُسْرَ بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ))

[مسلم عن بُسْرَ بْنَ سَعِيدٍ]

ولا يعوذ النبي عليه الصلاة والسلام بغَيْر الله تعالى، ونحن الآن فَهِمْنا أنَّ هذه الاسْتِعاذة للنبي عليه الصلاة والسلام شيء صحيح وتَوْحيدٌ ولا غبار عليه، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يُمكِن أن يعوذ بغَيْر الله، وفي بعض أدْعِيَتِه عَنْ عَلِيِّ بْن أبي طَالِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي وِتْرِهِ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))

[الترمذي عَنْ عَلِيِّ بْن أبي طَالِبٍ]

طول الأمَل أخْطَرُ شيء يُصيب الإنسان :

والرضا صِفَةٌ مِن صِفاتِه، والله تعالى يرْضى ويغْضَب، فعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بعَظمَتِكَ أنْ أغْتَالَ مِنْ تَحْتِي))

[مسلم عن جُبَيْر بْن مُطْعِم]

أحْياناً يكون الإنسان ماشياً، فإذا به يَقع، وينفجر من تحته شيء، أو يسقط عليه شيء، فأخٌ تُوُفِّي قبل أسبوعَيْن، وله أصْهار، فأحَدُ أصهاره مُقيمٌ بحَلَب، فأرْسَلَ زَوْجَتَه كي تحضر التَّعْزيَة، وبعد أسْبوعَيْن قدِم إلى دمشق لِيَأخذها، فإذا بحادِث بالطريق جعله في عِداد المَوْتى! شاب في مُقْتَبَل العُمر، هل خَطَر ببَالِه أنَّه يموت بهذا السنّ؟! فالإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، وعليه أن يُجَهِّزَ نفْسَهُ، ويقوم بوَاجِباته، وجميع حُقوقه، وهذه حِكْمةٌ بالغَة، أخْطرُ شيء يُصيب الإنسان هو طول الأمَل، فقد تُنْسَجُ أكْفان المرء وهو لا يدْري، أعوذ بنور وَجْهك الذي أشْرَقَت له الظلمات.

الاسم تارَةً يدلّ على المُسَمّى وتارَةً يدلّ على الاسم :

وكذلك قوْلهم الاسم عَيْنُ المُسَمَّى، وغيرهُ، وطالما غَلِط كثير من الناس في ذلك وَجَهلوا الصَّواب فيه، كيف عَيْنُ المُسَمَّى؟ الاسم يُراد به المُسَمَّى تارَةً، فإذا قلتَ: يا الله ! تُنادي مَن؟ تُنادي ذات الله عز وجل، وإذا قلتَ: سَمِعَ الله لِمَن حَمِده، أو نحوُ ذلك كان المُراد المُسَمَّى نفسه، أما إذا قلتَ: الله تعالى اسمٌ عَرَبيّ، وكذا الرحمن من أسماء الله تعالى، ونَحْوُ ذلك، فأنت الآن أرَدْتَ بكَلِمَة (الله) الاسم، وليس المُسَمَّى، فكلمة (الله) أحْيانًا تُريد بها المُسَمَّى، وأحيانًا تريد بها الاسم، فكلمة (الرَّحمن) اسم مُشْتَق من الرَّحْمة، أو مُشْتَقَّة مِن الرَّحِم، فأنت ما أردْت من كلمة (الرحمن) الله، وإنّما اللّفظ، فالاسم تارَةً يُراد به المُسَمَّى، وتارَةً يُراد به اللَّفْظ بالذّات، فالاسم هاهنا المُراد لا المُسَمَّى، ولا يقال غيره، لِما في لفْظ الغير من الإجمال، فإن أُريد بالمُغايَرَة أنَّ اللَّفظ غير المعنى فَحَقّ، فإذا قلنا مثَلاً: طالب ؛ طاءٌ ولامٌ وألف وباءٌ ! وهناك إنسان يطْلب العِلْم، طَبْعاً كلمة (طالب) غير هذا الإنسان، إذْ هي في الأصْل حُروف، وهي كلمة تَدُلّ على ذات، فالاسم شيء، والمُسَمَّى شيء آخر، لكن في الاسْتِعمال قد تلفظ كلمة طالب، وأنت تعْنيها، وقد تلفِظها وتعْني اللَّفْظ، تقول: طالب، اسم مُشتَق من طلب، فالاسم تارَةً يدلّ على المُسَمَّى، وتارَةً يدلّ على الاسم.

قال: إنْ أُريد أنَّ الله سبحانه وتعالى كان، ولا اسم له، حتى خلق لِنَفْسِه اسْماً، أو حتى سمَّاه خلقه بأسْماء من صُنْعِهم، فهذا مِن أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى، إذا قُلْتَ: إنَّ الله تعالى لم يكن له اسم، ولكن هو الذي سَمَّى نفْسَهُ (الله)، أو أنَّ خلقه هم الذين سَمَّوْهُ، فهذا ضلال كبير.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل مُتَّصِف بصفاتِهِ قبل خَلْقِهِ :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا في الدَّرْس الماضي إلى قول الإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: "مازال بصِفاته قديماً قبل خلقِه" إلى آخر كلامِه من الردّ على الجَهْمِيَّة والمعتَزِلَة ومن وافَقَهم مِن الشِّيعَة.

أيها الأخوة، اليوم أُريد أن تُصْغوا إليَّ إصْغاءً شديداً لأنّ هذا مِن أدَقِّ الموضوعات، لن أُعْطِيَكم كَمِيَّة كبيرة إلا أنَّني أُحاوِل أن أُعَمِّق هذه الصَّفَحات التي نحن بصَدَدها.

الله عز وجل له صِفات، وله صِفات أفْعال، يا ترى قبل أن يفْعَلَ ما يفْعَل لم يَكُنْ مُتَّصِفاً بهذه الصِّفات؟ مازال مُتَّصِفًا بهذه الصِّفات قديماً قبل خلقِه، فكَلِمَة (خالِق)، مثلاً قبل أن يَخْلُقَ العالَم ألم يكن خالِقًا؟ فالعَالَم حادِث سَبَقَهُ عَدَم، فَقَبْلَ أن يُخْلَق هذا العالَمَ فالله عز وجل ألَمْ يَكُنْ قادِراً على أن يَخْلِق ثمَّ صارَ خالِقًا؟! هذا المعنى كُفْر.

يقول الإمام الطحاوي: ما زال بِصفاتِه قديماً قبل خلقِهِ، طبْعاً المعتزلة والجَهْمِيَّة ومَن وافَقَهم مِن بعض الشِّيعَة يقولون: إنَّ الله تعالى صارَ قادِراً على الفِعْل والكلام بعد أن لم يَكُن قادِراً عليه، لِكَوْنِهِ صار الفِعْل والكلام ممكنًا، بعد أن كان مُمْتَنِعاً، وأنَّه انْقَلَبَ مِن الامْتِناع الذاتي إلى الإمْكان الذاتي؛ هذا كلام المعتزلة والجَهْمِيَّة وبعض فِرَق الشِّيعَة.

فالله عز وجل لم يَزَل مُتَّصِفًا بصفاتِهِ قبل خلقِه، فَهُوَ تعالى خالِقٌ قبل أن يخْلُق، ومُتَكَلِّمٌ قبل أن يتكلَّم، مُعْطٍ قبل أن يُعْطي؛ هذا هو موضوع الدرْس اليوم.

الله تعالى قديم وما سِواه حادِث :

بعضهم أيْضاً يقول: إنَّ الفِعْلَ صارَ مُمْكِنًا بعد أن كان مُمْتَنِعاً منه، إذًا كيف تَوَصَّل هؤلاء إلى هذه الحقيقة التي لا تتَّفِقُ مع أُصول العقيدة؟ قالوا: إنَّ دوام الحوادِث مُمْتَنِع، طبْعاً الإنسان يفْعَلُ شيئًا وينتهي الفِعْل، فَدَوامُ الحوادِث مُمْتَنِع، أنت تَصْنَع طاوِلَة وينتهي صُنْعُها! لم تَكُنْ مَصْنوعَة ثمَّ صُنِعَت، وانتهى صُنْعُها، فما دام الشيء الحادِث لهُ بداية وله نِهايَة، فَهَؤُلاء يقولون: دوام الحوادِث مُمْتَنِع، وأنَّهُ يجب أن

يكون للحوادِث مَبْدأ، لامْتِناع الحوادِث ألاّ يكون لها أوَّل، إذا وُجِدَ حادِث لا أوَّل له فليس هذا بحادِث، وأصْبَحَ قديماً، ومِنَ ثَمَّ صارَ خالِقاً، فَنَحن عندنا فرْق دقيق؛ فالله تعالى قديم وما سِواه حادِث، فهو تعالى لا أوَّل له، أما الحادِث فَسَبَقَهُ عَدَم، والحادِث لا يستَمِرّ إلى ما شاء الله، له بِداية وله نِهاية، وهؤلاء قالوا: إنَّ دوام الحوادِث مُمتنِع، وإنَّه يجب أن يكون للحوادِث مَبْدأ، لامْتِناع حوادِث لا أوَّل لها، فَيَمْتَنِعُ أن يكون الباري عز وجل لم يَزَل فاعِلاً مُتَكَلِّماً بِمَشيئتِه، فَيَسْتحيل على الله أن يكون دائِماً فاعِلاً، ودائِماً مُتَكَلِّماً، بل يَمْتَنِعُ أن يكون قادِراً على ذلك، لأنَّ القُدْرَة على المُمْتَنِع مُمْتَنِعَة، هذا هو الوَهْم الخطير الذي تَوَهَّمَهُ المعتزلة والجَهْمِيَّة، ومَن وافَقَهم من الشِّيعَة، فالشيء الحادث ليس قديماً، سَبَقَهُ عَدَم فله بِدايَة، وليس مُسْتَمِراً أي ينتهي وما دام الحادِثُ مُنْتَهِياً، والله عز وجل هو الذي خلق هذه الحوادِث فَفِعْلُهُ له بِدايَة وله نِهايَة، قبل البداية وبعد النِّهايَة، اِمْتَنَعَ عليه أن يفْعَل فَكَيْفَ نحلُّ هذا الإشْكال؟ قال: إنّ هذا فاسِد، لأنَّه يدلّ على امْتِناع حُدوث العالَم، وهو حادِث! والحادِث إذا حدَثَ بعد أن لم يَكُن مُحْدَثًا فلا بدّ أن يكون مُمْكِنًا.

الله عز وجل قادِرٌ دائِماً على كُلّ مُمْكِن :

الآن سَنَدْخُل في مَوضوع، فالإمكان شيء، والحُدوث شيء، فأنا مَثَلاً دائِماً بإمكاني أن أنقُل هذا الكأس مِن هذا المكان إلى ذاك المكان، فقد نَقَلْتُه في وَقْتٍ مُعَيَّن، وقبل أن أنْقُلَهُ فأنا قادِر عليه، وبعد أن نَقَلْتُه أنا قادِر عليه، فأنا دائِماً يُمْكِنُني أن أفْعَلَ ذلك، لكِنّ الفِعْل مرتبط بوَقْت مُعَيَّن، ومكان مُعَيَّن، والآن دَخَلْنا في موضوع حلّ الإشْكال، فالإمْكان يعني أنَّ الله عز وجل دائِماً قادِر على أن يفْعَل ما فَعَل؛ قبل أن يفْعَل، وبعد أن يفْعَل فهو قادِرٌ على فِعْل ما فَعَل، فالقُدْرة المُسْتَمِرَّة تُلْغي معنى الحُدوث الطارِئ فيما هو خَلَقَهُ عزَّ وجل.

قال: فلا بدّ أن يكون مُمْكِنًا، والإمكان ليس له وَقْتٌ مُحَدَّد، أما الحُدوث فلَهُ وَقت، وما مِن وَقْتٍ يُقَدَّر إلا والإمكان ثابت فيه، مهما أغْرَقْتَ في القِدَم، ومهما أغْرَقْتَ في المُسْتَقْبَل فإنّ الله سبحانه وتعالى قادِرٌ على أن يَفْعَلَ الذي فَعَلَهُ.

قال: فليس لإمكان الفِعْل، وجوازه، وصِحَّتِه مَبْدَأٌ، ولا نِهايَة، فالله عز وجل كامِلٌ في قدْرَتِه، والعالَم حادِث، أما الله تعالى فهو قادِر على كُلّ مُمْكِن، والعالَم مِن المُمْكِن، فَقَبْلَ أن يخْلِقَهُ فهو قادِرٌ عليه، وبعد أن خَلَقَهُ فهو قادِرٌ على مِثْلِهِ، فَقُدْرَتُهُ ليْسَت مُمْتَنِعَة، بل مُسْتَمِرَّة، أما الحادِث فلم يُسَمَّ حادِثًا إلا لأنَّ له بِداية، وله نِهايَة، فَيَجِب إذاً أنَّهُ لا يزال الفِعْل جائِزاً مُمْكِنًا صحيحاً، فَيَلْزَمُ أنَّه لا يزال الربّ قادِراً عليه،

فَيَلْزَمُ جواز حوادِثَ لا نِهاية لأوَّلِها، كيف حَلَلنا الإشكال؟ الله تعالى له أفعال، وأفعاله حوادِث، وسَبَقَها عَدَم، وانْتَهَت، إلا أنَّ الله عز وجل قادِرٌ دائِماً على كُلّ مُمْكِن.

ثمَّ إنَّ أسماء الله تعالى وصِفاتُه قديمة قِدَمَ وُجودِه، وكان الله عليماً، وكان الله على كلّ شيء قديراً، فقُدْرَتُه لا تنْفَكُّ على وُجودِه، فَهُوَ تعالى مَوْجود، وهو تعالى قادِر، وأسماؤُهُ كُلُّها قديمة أزَلِيَّة أبَدِيَّة، فالحادِث سَبَقَهُ عَدَم، وينتهي بعَدَم، أما الله تعالى فقادِر على كُلّ مُمْكِن، فالقُدْرَة على المُمْكِن ليس لها وَقْت، فَهِيَ مُمْتَدَّة في القِدَم ومُمْتَدَّةٌ في المُستَقْبَل، لكنَّ الحادِث سَبَقَهُ عَدَم، وينتهي بِعَدَم.

قُدْرَة الله تعالى لا علاقة لها بالزَّمَن بل إنَّ الزَّمَن بعض خلقِه :

حينما تتَحَدَّث عن الآخرة فليس لك إلا الخبر الصادِق، يا ترى ما نوع الجَنَّة؟ خلْق مُتَجَدِّد، طبْعاً العلماء أجابوا، عندنا شيء اسمه التَّسلسل، وهو أن تقول: هذه الدَّجاجة من هذه البيْضَة، والبَيْضة من الدجاجة، فهذا إلى متى؟ العَقْل لا يقبل هذا التَّسلسل اللانِهائي، فلا بدّ مِن خالِقٍ خلق أوَّل دجاجة، ثمَّ بدأتْ دجاجة وبيضة الخ... فالتَّسَلسل مُمْتَنِع في الماضي، والتَّسلسل مُمْتَنِع في المستقبل، إلا أن يكون تسَلْسلُ الماضي ينتهي بالله عز وجل، وأن يكون تَسلسل المُستقبل ينتهي بالله عز وجل، فالله عز وجل قادِر أن يخلق في الجنَّة كلّ يومٍ شيئاً جديداً إلى ما لا نِهاية، إلا أنّ آخر شيء هو ذاتُه، فالتَّسلسُل من دون إله مُمْتَنِع، أما إن كان الله تعالى هو الأوَّل، وبعده خَلْقٌ مُتَسَلْسِل فهذا مُمْكِن، هو الآخر وقبله خَلْق مُتَسلسل فهذا مُمْكِن، متى قلتَ: الله، أي لا بِداية ولا نِهاية! والزَّمن خالِقُه الله تعالى، والمُشْكِلة أنَّ القَضِيَّة تَفوق العُقول، وعندما يريد العَقْل الحادِث أن يفْهَم الذات الإلهيَّة، والأبَدِيَّة السَّرْمَدِيَّة، فهذا شيء فوق طاقَتِه، لكن إذا قلت: (الله) عز وجل كان المعنى ألاّ بِدايَة له، فإذا قُلْتَ: له بِدايَة أصبَحَ حينئذٍ مَخْلوقًا! فَكَلِمَة حادِث أي سَبَقَهُ عَدَم، وينتهي بعَدَم، فإذا قلتَ: متى كان الله عز وجل؟ نقول لك: ومتى لم يَكُن؟! والحديث عن ذات الله عز وجل نُفَوِّض للّه معنى هذه الآيات الدَّقيقة المُتَعَلِّقَة بذاتِه، والحقيقة المُطْلَقَة عن الله لا يعلمها إلا الله تعالى.

فَيُقال لهم: هَبْ أنَّكم تقولون ذلك، لكن يُقال: إنْ كان جنس الحوادِث عندكم له بِدايَة، فإنَّه صار جنس الحوادث عندكم مُمْكناً بعد أن لم يكن مُمْكِناً، وليس لِهذا الإمكان وَقْت مُعَيَّن، بل ما مِن وقْتٍ يفرض إلا والإمكان ثابتٌ قبله، فالله تعالى خلق العالم قبل مليار سنة، وهو تعالى قادِر على خلقه قبل مليار مليار سنة! وقبل ذلك، والله عز وجل دائِماً قادِر على خَلْق العالم، إذاً فقُدْرَتُه تعالى لا علاقة لها بالزَّمَن، بل إنَّ الزَّمَن بعض خلقِه.

الله تعالى قادِر على خَلْق العالم وقُدْرَتُهُ على الخَلْق لا علاقة لها بالزَّمَن :

الفرْق كبير بين أن يكون الإنسان مُحاطاً بالزَّمان والمكان، وبين أن يكون الله عز وجل هو خالقَ المكان والزَّمان، فيَلْزَمُ دوام الإمكان، وإلا لَلَزِم انْقِلاب الجنس، فالإمكان مُسْتَمِرّ، وإلا لَلزِم انقِلاب الجِنس من الامْتِناع إلى الإمكان، مِن غير حُدوث شيء، فأنت إذا قلتَ: لم يكن الله تعالى قادِراً، ثمَّ أصْبَحَ قادِراً، يُمكن أن نَنْفي العالم كلَّه بهذه المَقولة الضَّالة! فما دام الله تعالى غير قادِر فَكَيف خلق العالم؟! فالله تعالى دائِماً قادِر على خَلْق العالم، وخلقهُ في وَقْتٍ مُعَيَّن، وقُدْرَتُهُ على الخَلْق لا علاقة لها بالزَّمَن، أما الحُدوث فله زَمَن، وسَبَقَهُ عَدَم، وينتهي إلى عَدَم، أمَّا الإله مع أنَّه خلق فلا يجوز أن نقول: قبل أن يخْلُق كان مُمْتَنِعاً على الخَلْق، أو غير قادِرٍ على الخلْق.

صفات الله عز وجل ليْسَت مُتَعَلِّقة بالحوادِث فالله تعالى فعَّال قبل أن يفْعَل :

هناك رأيٌ دقيق عن التَّسَلْسل، قال: وهو أيْضاً انْقِلاب الجِنْس مِن الامْتِناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، فإنّ ذات جِنْس الحوادِث عندهم تصير مُمْكِنَة بعد أن كانت مُمْتَنِعة، وهذا الانْقِلاب لا يَخْتَصّ بوَقْتٍ مُعَيَّن، فإنَّه ما مِن وقتٍ يُقَدَّر إلا وإمكانٌ ثابتٌ قبله، فيَلْزَم أنَّه لم يَزَل هذا الانْقِلاب مُمْكِناً، فالحوادث ذاتيًّاً مُمْتَنِعة قبل أن تكون، وممْكِنة بعد أنْ كانت، والله سبحانه وتعالى دائِماً وسابِقاً ولاحِقًا وأزَلاً وأبَداً قادِرٌ على خلقِها، إذاً صفاته ليْسَت مُتَعَلِّقة بالحوادِث، فَهُوَ تعالى فعَّال قبل أن يفْعَل، وخلاَّق قبل أن يخلق، ومُحْيِي قبل أن يُحْيِي، ومُميت قبل أن يُميت، وأرْجو الله تعالى أن أكون قد وَضَّحْتُ لكم هذه الحقيقة: أنّ الحادث له بِداية ونِهاية، وسبَقَهُ عدم وينتهي بعَدَم، فإذا ربَطْتَ الحادثَ مع قدرة الله عز وجل ينتج معك كلامٌ فيه كُفْر، وهو أنَّ الله عز وجل قبل أن يخْلق لم يكن قادِراً على الخَلْق! وبعد أن خلَق لم يكن قادِراً بعد أنْ خلَق! فإذا ربَطْتَ فِعْل الله تعالى مع الحادِث، فهذا غلط كبير، صِفات الله تعالى الكاملة جلَّ جلاله هي كامِلَة، ولا علاقة لها بالحوادث، وصِفات أفعاله كلّها أبَدِيَّة أزَلِيَّة، لكن لِحِكْمَةٍ أرادها الله تعالى خلْقَ العالم بعد أن لم يَكُن، وربَّما أنْهى الأرض بِقِيام الساعة، وهذا مُمكن لأنَّها مِن خلقِه.

الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يُحيط به مَخْلوق :

قال: فيَلْزَم أنَّهُ لم يَزَل المُمْتَنِعُ مُمْكِنًا، وهذا أبْلَغُ في الامْتِناع من قولنا لم يزَل الحادِثُ مُمْكِنًا، فالشيء المُمْتَنِع مُمْكِن، منَعَهُ لِحِكْمة، فقدْ لزمهم فيما فرُّوا إليه أبْلَغ مما لزمَهم فيما فرُّوا منه، وهذه نقطة دقيقة

جداً، فالإنسان إذا أقْحَمَ عقله في غير اخْتِصاص العَقْل، وأدْخَلَ عقْله في الذات الإلهيَّة، وبدأ يُفَكِّر، كُلَّما فرَّ مِن فِكْرة خاف منها وَقَعَ في فِكْرة أكبر منها، ويقع في متاهات، لذلك قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 1-4]

فمِمَّا يُريح الإنسان أن يَقِفَ عند حُدوده، ويَعُدَّ أنَّ جَهْلَهُ بِذات الله هو عَيْن العِلْم به، وأنَّ عِلمه بِكُلّ شيء عن الله هو عَيْن الجَهْل به! لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يُحيط به مَخْلوق، بما في ذلك النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: فإنَّهُ يُعْقَل كَوْنُ الحادث مُمْكِنًا، ويُعْقَلُ أنَّ هذا الإمكان لم يَزَل، وأما كَوْنُ المُمْتَنِع مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْتَنِعٌ في نفسِه، فكَيف إذا قيل: لم يَزَل إمكان هذا المُمْتَنِع، وهذا مَبْسوط في مَوْضِعِه.

فليس الشيء الذي لم يحدث ـ المُمْتَنِع ـ ممكن عند الله عز وجل، ليس الحادث ممكن أن يخلقه الله، وإنَّما الشيء الذي لم يخْلقه هو عند الله عز وجل قادِر على أن يخلقه، لذا قال سيِّدنا عليّ رضي الله عنه: "علِمَ ما كان وما لم يكن لو كان كيف كان يكون".

ثلاثة أقوال معروفة لأهل النَّظر من المسلمين وغيرهم في نوع الحوادث :

نوع الحوادث، هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي أم لا؟ أم في المستقبل فقط؟ أم في الماضي فقط؟ قال: فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النَّظر من المسلمين وغيرهم، فأضْعفها قَوْل من يقول: لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل، فالتَّسلسل من الماضي إلى ما لا نهاية لا يُمكن! والعقل لا يقبل ذلك، فلا بدّ مِن حدّ.

وثانيها: قَوْلُ من يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كَقَوْل كثير من أهل الكلام، ومَن وافَقَهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث: قَوْل مَن يقول: يُمكن دوامها في الماضي والمستقبل كما يقول أئِمَّة الحديث، مع بعض التَّوْجيهات، وهي من المسائل الكبار، ولم يقل أحدٌ يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل، ولا شكّ أنَّ جمهور العلماء مِن جميع الطوائف يقولون: إنَّ كُلّ ما سِوى الله تعالى مَخلوق، كائِنٌ بعد أن لم يَكُن، وهذا قَوْل الرُّسُل وأتْباعِهم مِن المُسلمين واليهود والنَّصارى وغيرهم، ومِن المَعْلوم بالفِطْرة أنَّ كَوْن المَفْعول مُقارِنًا لِفاعِلِه لم يزَل ولا يزال معه مُمْتَنِع المُحال، فالله عز وجل خلق العالم، فإذا كان هذا العالم الذي خلقه الله عز وجل مُقارِن لله تعالى أصْبَحَ العالم مثل الله عز وجل! أزَلِيّ أبديّ!! هذا الكلام فاسِد، فالمَفْعول ليس بالضَّرورة مُقارن للفاعِل، ولمَّا كان تَسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الربّ سبحانه وتعالى هو الآخر، الذي ليس بعده شيء، فكذا تَسلسل الحوادث في الماضي لا يمنَعُ أن

يكون الله سبحانه وتعالى هو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، فنَحن نقول: التَّسلسل ممكِن بِشَرط، والماضي ممكن بِشَرط أن ينتهي إلى الله، وإلى الأوَّل الذي ليس له بداية، والتَّسلسل مقبول في المستقبل بِشَرط أن ينتهي إلى الله تعالى الآخر الذي ليس له نِهاية، أما مِن دون الله تَسلسل مُستقبلي مُسْتَمِرّ فالعَقْل لا يقبله! فإنَّ الربّ سبحانه وتعالى لم يزل، ولا يزال يفعل ما يشاء، ويتكلَّم إذا شاء، قال تعالى:

(كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

[سورة آل عمران: 40]

وقال تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

[سورة البقرة: 253]

وقال تعالى:

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

[سورة البروج: 15]

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

[سورة لقمان: 27]

وقال تعالى:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

[سورة الكهف: 109]

فالله عز وجل خالق خلقًا مُسْتَمِرًّا، بِمَعنى أنَّه قادِرٌ قدرة لا تتعلَّق بالزَّمان، فهو تعالى فعَّال لما يريد في أيّ وقت، ومشيئته لا يحدّها شيء، والمُثْبَتُ إنَّما هو الكمال المُمْكن الوُجود، وحينئذٍ فإذا كان النَّوع دائِماً، فالمُمْكن والأكمل هو التَّقدّم على كلّ فرْد من الأفراد، فالله عز وجل خلَق هذا الإنسان بالذَّات، إلا أنَّه تعالى دائِماً قادِر على خَلْق نَوْع هذا الإنسان، بحيث لا يكون في أجزاء العالم شيء يُقارنُه بوَجْهٍ من الوُجوه، فالله عز وجل دائِماً وأبَداً قادِر على خَلْق النَّوع، بلا زمان وبلا مكان.

وأما دوام الفِعْل فَهُوَ أيْضاً من الكمال، فإنّ الفِعْل إذا كان صِفَة كمال فَدَوامُهُ دوامُ الكمال، ودوام الفِعْل يعني دوام الإمكان.

التَّسلسل لفْظ مُجمل ينقسم إلى :

1 ـ التسلسل الواجب :

قالوا: والتَّسلسل لفْظ مُجمل لم يَرِد في نَفْيِهِ كتاب ولا سنَّة، ويجب مُراعاة لفْظه، وهو ينقسم إلى واجب ومُمْتَنِعٍ وممكن، فكان التَّسلسل في المُؤَثِّرين مُحال مُمْتَنِع لذاته، إذا اعْتبرنا أنَّ الله غير موجود فالشيء نفسه، هذا يُؤَثِّر في الذي بعده، وذاك في الذي بعده، فالله عز وجل يخلق البَيْضة ويخلق منها الدَّجاجة، أما أن نعتَقِد أنّ البيضة وحدها هي التي تخلق، أو العكس فهذا شيء مُستحيل.

والتَّسلسل الواجب ما دلَّ عليه العقل والشَّرع مِن دوام أفعال الربّ تعالى إلى الأبَد، وأنَّه كلَّما انقضى لأهل الجنَّة نعيمٌ أحْدَث لهم نعيماً آخر لا نفاذ له، معنى هذا أنَّ التسلسل قائم في الجنَّة، والله تعالى قال:

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

وكذا التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزَل، وأنَّ كلّ فِعْل مَسْبوق بآخر فهذا واجب في كلامه، فإنَّه لم يزَل مُتَكَلِّماً إذا شاء، أي قادِراً على التَّكلّم متى شاء، فالموضوع كله على هذه الفِكْرة وهو أنَّ الله عز وجل دائِماً وأبَداً قادِرٌ على كلّ شيء، فَصِفات أفعاله لا علاقة لها بالعلم الفاني والذي سَبَقَه عَدَم، والبديل أنَّ الله تعالى قادِر على كلّ ممكن، والقُدرة على الممكن ليس لها وقتٌ تحَدّ به، فإنَّه لم يزل متكَلِّماً إذا شاء، ولم تحدث له صِفَة الكلام في وقْتٍ، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإنَّ كل حيٍّ فعَّال، والفرق بين الحي والميِّت الفِعْل، ومعنى أنَّه تعالى دائِماً فعَّال أي دائِماً قادرٌ على الفِعْل.

لو فرضْنا أنَّ أحَدًا دخل إلى القِطار، وإلى أحد الغرف فيه، وخلال ربع ساعة تجده يستَوْعب ما في القِطار ؛ طاولة مُتَحَرِّكَة، ومقعد، وتَكْييف، وتدفئَة، وإعلانات، فلو أنَّ النوافذ مغلقة لضاق نفسه، أما لو كان القِطار يمْشي، والنوافذ مَفْتوحة، وينظر مِن خِلالها إلى الطبيعة، فما دام هناك تَجدّد لا يشعر بمَلَلٍ، لذا أفْخَم قِطار مِن دون تَجَدّد تملّ فيه، وأبسَط قطار لو ترى مِن خلاله المناظر تُسَرّ، فلا يمكن إلا أن تكون الجَنَّة مُتَجَدِّدة باستِمرار، ما معنى: وهم فيها خالدون؟ إذا ألِفَ الإنسانُ شيئًا يضجر منه ويمَلّ منه، ولكن من أجل أنَّ الجنَّة مُتَجَدِّدَة فإنَّهُ يخْلُد إليها، فَمَعنى الخُلود الميول، تقول: خَلَدَ إلى الشيء أيْ مال إليه، أما البقاء فيها دوماً فهذه هي الأبَدِيَّة، فهي فيها جمال مُتَجَدِّد، فهذا التَجَدُّد يجعلك تخلد إليها، وهذا هو معنى قوله تعالى

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

[سورة التوبة: 100]

أما الدَّوام الذي لا نهاية له فَهُوَ مُستفاد من كلمة أبَداً، أما التَّجَدُّد فهو مُستفاد من كلمة خالدين فيها.

2 ـ التسلسل الممكن :

قال: أما التَّسلسل المُمْكن، فالتَّسلسل في مفعولاته من هذا الطَّرَف كما تتسلسل في طرف الأبد، فإنَّه إذْ لم يزَل حَيَّاً قادِراً مُريداً ومتَكَلِّماً وذلك من لوازم ذاته، فالفِعْلُ مُمْكن له بِمُوجب هذه الصِّفات له، وأن يفْعَل أكمل من ألاّ يفْعَل، ولا يلْزَمُ من هذا أنّه لم يزل الخلْق معه، فإنَّهُ سبحانه مُتَقَدِّمٌ على كلّ فَرْدٍ مِن مَخلوقاته تَقَدُّماً لا أوَّلَ له، فَلِكُلِّ مَخلوقٍ أوَّل، والخالق سبحانه وتعالى لا أوّل له، فَهُوَ وَحْده الخالق وما سِواه مَخْلوق كائِن، بعد أن لم يكن، والتَّسلسل المُمْكن نحو الماضي، والواجب نحو المستقبل، والمستحيل أن تعتقد أنَّ الشيء في التسلسل يخلق الذي بعده.

3 ـ التسلسل الممتنع :

قال: وكلّ قوْل سوى هذا فصَريحُ العَقْل يرُدُّه ويقضي ببُطْلانه، نحن عندنا تَسلسل مستحيل، أنَّ الشيء في التسلسل يخلق الذي بعده، والواجب هو تَسَلْسُل المستقبل، والمُمْكِن تسلسل الماضي، والتَّسلسل في الأصل ممْتَنِع عقْلاً إلا أن يكون الله نِهايَة التَّسلسل المستقبلي، والله جلَّ جلاله بداية الأوَّل، وكلّ قوْلٍ سوى هذا فصَريحُ العقل يرُدُّه ويقضي ببُطْلانه، وكلّ من اعْتَرف أنّ الربَّ لم يزل قادِراً على الفِعْل لَزِمَهُ أحَدُ أمْرَيْن لا بدّ له منهما: فإمَّا أن يقول: إنَّ الفِعْل لم يَزَل ممكنًا، وإما أن يقول: لم يزَل واقِعاً، وإلا تناقَضَ تناقُضاً بيِّنًا، فَنَحْنُ عندنا ممكن وعندنا واقِع، أما لم يَزَل ممكنًا فهذه لا مشكلة فيها، فكُلّ شيء وَقَع فالله تعالى قادِر على إيقاعه متى شاء.

المَقصود أنَّ الذي دلَّ عليه العقل والشَّرع أنَّ كلّ ما سوى الله تعالى مُحْدَثٌ كائِنٌ بعد أن لم يكن. وموضوع لم يزَل ممكنًا أوْسَع من موضوع لم يزل واقِعاً، وهو موضوع الدَّرس كلّه، فالله تعالى قادِر على كلّ ممكن، أما أفعاله التي هي حوادث، وقد سبقها عدَم، وتنتهي بعَدم، فالإمكان أوْسَع من الحُدوث. وأمَّا كَوْنُ الربّ تعالى لم يَزَل مُعَطَّلاً عن الفِعْل، ثمَّ فَعَل، فليس في الشَّرْع ولا في العَقْل ما يُثْبِتُه، بل كلاهما يدلّ على نقيضِه، وهذه الفِكْرة من أعْقَد أفكار الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تَسَلْسُل الحوادث في الماضي ممتَنِع وهو في المستقبل ممكن :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا في دروس العقيدة الطحاويَّة إلى قوْل الإمام رحمه الله تعالى: "ليس منذ خَلَق الخلق اسْتَفاد اسمَ الخالِق، ولا بإحْداثِهِ البَرِيَّة استَفاد اسم الباري"، فأسماؤه تعالى قديمة ولا علاقة لها بأفعاله، وقد تَحَدَّثْنا عن هذا مَلِيًّا في الدرس الماضي.

ظاهِرُ كلام الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ أنَّه يمْنَعُ تَسَلسُل الحوادث، والتَّسلسل كما تعلمون شيء يرْفضه العقل، فلا بدّ مِن بداية، والله سبحانه وتعالى قديم وأزَلِيّ أبَدِيّ، لكن الخَلْق الحادِث لا يَقبَلُ التَّسلسل إلى ما لا نِهايَة، وقد وَضَّحْتُ هذا بمَثَل تقريبًا لأذْهانكم؛ الدَّجاجة من البَيْضة، والبَيْضَة من الدَّجاجة...إلى متَى ؟ فلا بدّ مِن دجاجَة خَلَقَها الله عز وجل، ثمَّ جاءَت البَيْضة، وهكذا.

ويأتي في كلامِهِ ما يَدُلّ على أنَّه لا يَمْنَعُهُ في المستقبل، والسبب لأنّ الجنَّة إلى أبَدِ الآبدين، وهي مِن خَلْق الله عز وجل، والله تعالى قال:

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

[سورة الحجر: 48]

وهو قوْله: "والجنَّة والنار مخلوقتان لا تَفْنَيَان أبداً ولا تبيدان"، إذاً تَسَلسُل الحوادث في الماضي ممتَنِع، وهو في المستقبل ممكن، وهو مذهَبُ الجمهور كما تَقَدَّم.

ولا شَكَّ في فساد مَن منعَ التَّسلسل في الماضي والمستقبل، وبها تفسُد عقيدته، كما ذهَب إليه جَهْم وأتْباعه، وقال بِفَناءِ الجنَّة والنار، لِما يأتي من الأدِلَّة إن شاء الله، والجنَّة والنار لا تَفْنَيَان، لأنَّ الله تعالى قال:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

[سورة الجن: 23]

العقيدة الإسلاميَّة لا تؤخَذُ من الفلاسفة بل من كتاب الله و سنة رسوله :

هناك نقطة دقيقة أيها الأخوة، وأنا ألِحُّ عليها أشَدَّ الإلحاح، وهي أنَّ العقيدة الإسلاميَّة لا تؤخَذُ من الفلاسفة، وأكبر خطأ ارْتَكَبَهُ بعض العلماء أنَّهم التَجَؤوا إلى عِلْمِ الكلام، وعِلْم المنطق، وإلى الفلسفة

الإغريقِيَّة، لِيأْخُذوا منها العقيدة الإسلامِيَّة! نحن عقيدتنا نأخذها من كتاب الله، وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وبما أنَّ الجنَّة والنار مِن خلْقِه سبحانه وتعالى، والله تعالى يقول في كتابه الكريم:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)

[سورة الجن: 23]

إذاً الجنَّة والنار لا تَفْنيان.

دَوام الجنَّة للإنسان دليل أنَّها راضيَة عنه :

وقال تعالى:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الغاشية: 21]

لِمَ لمْ يقل الله تعالى: مَرْضِيَّة؟ الإنسان أحْيَاناً يَرْضى عن بيته؛ واسِع، ويَرْضى عن زوْجَتِه؛ كما تروق له، ويَرْضى عن دَخْلِه، ومَرْكَبَتِه، وأولاده، إذاً هذه الأشياء مرْضِيٌّ عنها، والله عز وجل يقول:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الغاشية: 21]

والمعنى أنَّ هذه العيشة إذا رضيتَ عنها أنت، وقبِلْتَها، فهي قد تزول عنك، أو لا ترْضى أن تَبْقى لك، وهذا الأسلوب في اللغة العربية اسمه أسلوب التَّجْسيد، ونحن عندنا في البلاغة أسلوب اسمه التَّجْسيد، أو التَّشْخيص، مَثَلاً قال تعالى:

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

[سورة الكهف: 77]

أسْبَغَا على الجِدار صِفات الإنسان؛ وهي الإرادة، فهذا التَّشْخيص والتَّجْسيد في قول الشاعر:

فما جازه جود ولا حلَّ دونَهُ ولكن يسير الجود حيث يسير

***

فالجود أمر مَعْنوي، وهو صِفَة، فنحن في هذا البيت خَلَعْنا صِفاتٍ مادِيَّة على أشياء مَعْنَوِيَّة، بينما التَّشْخيص خَلَعْنا صفاتٍ مَعْنَوِيَّة على أشياء مادِّيَّة.

فرَبُّنا عز وجل قال:

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

[سورة الغاشية: 21]

أي أنَّ هذه العيشة تَبْقى له، وعَبَّر الله تعالى عن بقائِها له إلى أبَدِ الآبدين لأنَّها راضِيَةٌ عنه فإذا كنتَ راضِياً عن شيء فلا بدّ أن تبْحَثَ أنَّ هذا الشيء راضٍ عنك، كيفَ أنَّهُ راضٍ عنك؟ لأنه يبقى لك! فَدَوام الجنَّة لك دليل أنَّها راضِيَةٌ عن أهْلِها.

الله تعالى فَعَّال لِما يُريد :

وأما قَوْل من قال بِجَواز حوادث لا أوَّل لها مِن القائِلين بِحَوادث لا آخر لها، فأظْهَرُ في الصِّحة مِن قَوْل مَن فرَّق بينهما، فإنَّه سبحانه وتعالى لم يَزَل حَيًّا والفِعْل مِن لوازم الحياة، فَلَم يَزَل فاعِلاً لما يُريد كما وصَفَ بذلك نفسه تعالى، حيث يقول:

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ* فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج: 15-16]

أحياناً الإنسان بِهذا الموضوع يَقَع في خَطأ، يقول لك: الله عز وجل قادِر أن يَضَعَ من أفْنى عمره في طاعته في جَهَنَّم! هذا كلامٌ مُنَفِّر، فالله تعالى حقيقةً قادِر لكن هل يفعل هذا؟! إذًا لِمَ لا يفعل ذلك سبحانه؟ لأنَّه ألْزَمَ نفسه بالاسْتِقامة، والدليل قوله تعالى:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

أوْضَح معنى، إذا كان الإنسان لا ينجب أولاداً، وبعد عشر سنين أنْجَبَ ولداً! فهل يستطيع الأب أن يذبح ابنه هذا؟! نحن نتكلَّم مِن حيث القُدْرة، لذا، ولله المَثَل الأعلى، قُدْرَتُه شيء، وكماله شيء آخر، فالله تعالى قادِر أن يضَع الأنبياء في جَهَنَّم، ويضَع الفراعنة في الجنَّة، لكن الله تعالى كما قال:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

مرَّةً ناقشني أحدهم في البيْت، فقال لي: لا يُسأل عمَّا يفعل ! فقُلتُ له: صحيح، هذه الآية لِفَرْطِ عدالته، عَدْلُهُ يُسْكِتُ الألْسِنة، والأمر الآخر أنَّ الإنسان حينما يفعل شيئًا فهو مَقْهور بالعِلَّة الغائِيَّة، فأنا لا أصِلُ إلى غايتي إلا بِسَبب، وأنا أتمنَّى أن أذْهب إلى حلب، فأنا مَقْهور إلى أن أركَبَ الوسيلة، وأنا أُريد الماء، فأنا مَقْهور بِحَفْر البئر، وأُريد القمح، فأنا مَقْهور بزراعَتِه، فالإنسان مَقْهورٌ بالعِلَّة الغائِيَّة، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا يليق به ذلك، إنَّما أمْره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُن فَيَكون، فَلِذلك ما دامَتْ الحياة، والتي هي صِفَة من صفات الله تعالى، هو الحيُّ الباقي، ومِن لوازم الحياة الفِعْل والإرادة، فالله تعالى فَعَّال لِما يُريد، وهو الذي سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفْسه.

الآية التالية تطمين من الله عز وجل لعباده :

وفي القرآن الكريم آيَة تُطَمْئِن العباد، وهي تليق بهم لا بالله تعالى، قال تعالى:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

نحن نَعُدّ الكتابة أقوى، فأنت إذا أردْت شراء بيت لا بدّ من عقد، فلِذلك من أجل نَزْعَتِنا المادِيَّة وهو الذي خَلَقنا، فالله عز وجل أحياناً يُقرِّب لنا الحقائق، إلا أنَّ الذي قاله لا ينطبقُ على الحقيقة.

الآية التالية تَدُلّ على أمورٍ منها :

1 ـ أن الله تعالى يَفْعَلُ بإرادَتِه ومشيئتِهِ ما يشاء :

ثم قال سبحانه وتعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس : 82]

هناك زَمَن بين كلمة كُن وبين كلمة يكون ! هناك ساعات تضبط الوقت بنسبة واحِد بالمئة من الثانِيَة، لكن الحقيقة أنَّه لا زَمَنَ بين كُن ويكون، مثل الهَنْدسة، ما هو تعريفها الدَّقيق للنُّقطة؟ هي نَظَرِياً لا مَساحة لها، أما عَمَلِياً لو وضَعْتَ نقطة بِأدَقِّ قلم، وأتَيْتَ بِمُكَبِّر، لَوَجَدْتَ لها مساحة، فإنْ تحرَّكت النّقطة رسَمَتْ مستقيماً أو مساحَة، وإذا تَحَرَّكَت المساحة رسَمَتْ حجْماً، وإذا تَحَرَّك الحجْم شَكَّل زَمَنًا، وهو ما جاء به (أينشتاين) وسمّاه البُعْد الرابع، فالزَّمَن مُتَعَلِّق بالحركة.

الآية تَدُلّ على أمورٍ ؛ أحَدِها: أنَّه تعالى يَفْعَلُ بإرادَتِه ومشيئتِه، والله أيها الأخوة، لقد وَرَدَ في الصَّفحة التاليَة حقيقة بِكَلِمَتَين أو ثلاث، لو أيْقَنْتُم بها لانْقَلَبَتْ الحياة جنَّة، ولانْعَدَمَت المشاكِل.

أوَّلُها: أنَّه تعالى يَفْعَلُ بإرادَتِه ومشيئتِهِ.

2 ـ أن الخالِق قديم و المخلوق حادث :

والثانِيَة: أنَّه لم يَزَل كذلك، لأنَّه ساق ذلك في معْرِض المَدح والثَّناء على نفسِه، وأنَّ ذلك من كمالِهِ سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادِماً لِهذا الكمال في وَقْتٍ من الأوْقات، وقد قال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة يس: 17]

ولمَّا كان من أوْصاف كماله، ونُعوت جلاله، لم يَكُن حادِثاً بعد أنْ لم يَكُن، فالله تعالى قال:

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة يس: 17]

المخلوق حادِث، والخالِق قديم، أنت تتكلَّم أحْيَانًا أمام أشْخاص مُثقَّفين، فقد قُلتُ البارحَة لِشَخْص: لا يُعْقَل أن يُحيط الحادِث بالقديم ! كلمة حادِث أي سبقهُ عدَم، وسَيَأتي بعده عَدَم، القديم ليس له بداية، وليس له نِهايَة، أما الحادِث فله بداية، وله نِهايَة، وأنا أحْيانًا أشعر بحُدوث الإنسان بحالاتٍ نادِرَة؛ أحْيَانًا يقع تحت يدِي كتاب مَطبوع في سنة ألف وتسعمئة وخمسة وعشرين، وأنا ولادتي بعد هذا التاريخ ! فقُلْتُ حينما أُلِّفَ هذا الكتاب، وحينما صُفَّتْ حروفه، لم أكُنْ وَقْتَها شيئًا مَذْكوراً.

3 ـ أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فعله :

الثالث: أنَّه إذا أراد شيئًا فَعَلَهُ، فهل أنت كذلك أيها الإنسان؟ نحن بني البشر بنسبة تسعة وتسعين بالمئة لا يُحَقَّق لنا ما نُريد ! أليْسَ كذلك؟ هل هناك مَن لا يحبّ البيْت الواسِع والزَّوْجة المُريحة والتِجارة والدَخْل والأولاد الأبْرار؟ إلا أنّ الإنسان ليس فعَّالاً لِما يُريد، ما معنى فعَّال لِما يريد؟ أيُّ شيءٍ يَخْطر في بالِك قادِر على فعله ! إلا أنَّ الإنسان لا يستطيع تحقيق ما يريد، لذا يقول أحَدُ العلماء: الله عز وجل أعْطى الإنسان الاخْتِيار، ومع ذلك بأيٍّ لحظة يأخذه منه، والدليل قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة البقرة: 142]

كلمة سُفهاء سُباب، فأنت أيُّها السَّفيه سوف تقول كذا وكذا، فإذا أراد هذا السَّفيهُ إبْطال نصٍّ في القرآن الكريم، فماذا يفعل؟ ما عليه إلا السُّكوت ! فَهُوَ إن سَكَتَ أبْطَل كلام الله عز وجل، وفِعْلاً السَّفيه قال: ما وَلاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وهذه مِن طلاقةِ الإرادة الإلهيَّة، فَهُوَ تعالى خَيَّرَك، ولكن في أيِّ لحظة يأخذ اخْتِيارَك، فأبو لهب سَيَصلى ناراً ذات لَهَب، وامرأته حمَّالة الحطَب، فلو فَكَّر أبو لهبٍ بهذا، وجاء أمام الناس، وقال: أشْهد أنّ محمَّداً رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يكون بهذا ألْغى الآية، ألَيْس كذلك؟ فعلى الرَّغْم من أنَّك مُخَيَّر يُمكِنه تعالى أن يأخذ منك اخْتِيارَك، والله تعالى إذا أراد أن يُعالِج إنسَانًا، قال: إذا أراد ربّك إنفاذ أمْرٍ أخَذَ من كلّ ذي لُبٍّ لُبَّه، أحياناً يجعل الله تعالى الذَكِيّ يَرْتَكِب حمَاقَةً

ما بعدها حماقة، وأخطاء فاحشة، فلذلك فإنّ الله عزَّ وجل طليق الإرادة، فإذا أراد فَعَل، فمشيئة العِباد لا تمنعه.

الإنسان مُخَيَّر ومُسَيَّر :

لذلك قلتُ لكم مرَّةً: الإنسان مُخَيَّر ومُسَيَّر ! مُسَيَّر مَرَّتَين؛ مُسَيَّر قَبْل أن يُخلق، فهل منكم مَن بيَدِه ولادَتُه مِن فُلان أو من فُلانة؟ أو أنْ تكون ولادته بالعام الفُلاني؟ فنحن وُلِدْنا بالشَّام، فهل لنا خيار بهذا الشيء؟ لا خيار لنا، فالإنسان مُسَيَّر قبل أن يخلق، لكن يجب أن تعلموا عِلْمَ اليَقين أنَّ هذا التَّسْيير هو أكْمَلُ شيء لإيمانِك، ليس في إمْكانِك أبْدَعُ مِمَّا أعْطاك، ثمَّ جاء بعده الاخْتِيار، فأنت ضِمن دائرة التَّكْليف، قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

[سورة الإنسان: 3]

فهو اختار، والآن هو مُسَيَّر مرَّةً ثانِيَة؛ مُسَيَّر لِتَحقيق اخْتِياره، والفِعل فِعْل الله، ومرَّة ثانِيَة مُسَيَّر لِدَفْع ثَمَن اخْتِياره، فلو أنّ رجلاً اختار غشّ الناس، واخْتار أن يأكل أموالهم بالباطل، ومَكَّنه اللهُ تعالى من ذلك، ثمَّ يسوق له مَن يُذيقه ألوان العذاب، فلو كان نِظام السَّيْر يقتضي حَجْز الإنسان سبعة أيام؛ الإشارة حمراء، وأنت مُخَيَّر، فأنت عندما اخْتَرتَ خَرْق النِّظام فقَدْتَ اخْتِيارَك، وسُيِّرْتَ إلى السِّجْن، فنحن عندنا ثلاثة أنواع من التَّسْيير: تَسْيير الخَلق مِن فلان وفلانة، وفي المكان والزمان الفلاني، والتَّسْيير الثاني لِتَحقيق اخْتِيارك، والتَّسْيير الثالث: لِدَفْع ثمن اخْتِيارك.

الله تعالى له إرادة مُتَعَلِّقة بفِعْله وله إرادة متعلِّقة بفِعْل العِباد :

قال: إنَّه إذا أراد شيئًا ما فَعَلَهُ، فإنَّ (ما) موصولة عامَّة، أي يفعل كلّ ما يريد أن يفعله، أما الإنسان فلا يفعل مِمَّا يُريد إلا المِعْشار، وهذا في إرادته المتَعَلِّقة بفِعْلِه، وأما إرادته المُتَعَلِّقة بفِعْل العَبْد فَتِلْكَ لها شأنٌ آخر، فالله تعالى له إرادة مُتَعلِّقة بفِعْله، وله إرادة متعلِّقة بِفِعْل العِباد، ولله المَثَل الأعلى، فأنت في البيت أب مِلء السَّمع والبصر، تقوم مِن مَجْلسِك لِتَأكل، أو لِتَنام، أو لِتَشْرَب، ولك ابن ما أراد أن ينام، فأنت تُلزِمه بالنَّوم، فأنت لك إرادة مُتَعلِّقة بِفِعْلك؛ تقوم، وتقعد، وتنام، وتخرج، وتدخل، وتقف، وتقرأ، و تستمِع، وابنك إرادته متَعلِّقة بِفِعْلِك أنت، فأحْيانًا تسْمَحُ له أن يتحَرَّك، وتَسمح له أن يلعب، وأحْيانًا تُلْزِمُه أن يلعب.

قال: فإن أراد فَعَل العَبْد، وإن لم يُرد من نفسِه أن يُعينه عليه، ويجعله فاعِلاً لم يوجَد الفِعْل، لذلك النقطة المُهِمَّة جداً: يا ترى هل يعلم الله ما أفْعَل؟ هناك جواب مُسْكِت؛ وهو كيفَ لا يعلم وفِعْلُك من خلقِه؟ أنا أُراقِب، وجاء إنسان ووضَع هذا الكأس هنا ورائي، فأنا أعلم ما فعل، ولكن لو كنت أنا الذي أمسكها وأضَعها، كان هذا أبْلَغ، فَكَيْف لا يعلم الله عز وجل، وأفعال العباد تحت سَمعه وبصره، إن صحَّ التعبير، ولكن مِن فعلِهِ، فهو تعالى الفَعَّال، له إرادة مُتَعَلِّقَة بِفِعْلِهِ، وله إرادة مُتَعَلِّقَة بِفِعْل العَبْد، فلو أيْقَنَ الإنسان بهذا الكلام هل يمكن أن يُخيفك أحَد؟ أبَداً، وهناك ألف قِصَّة وقِصَّة تُؤَكِّد هذا الكلام، وحتى العِباد الأقوياء الشَّرِسون، والجبَّارون، والطغاة، كان في بلادنا أخ من أخواننا من إفريقيا، فَمَرَّةً أخَذ إجازة، وسافر إلى بلده، وبلده في غرب إفريقيا، ووُجِد شخصٌ ملقَى على سِكَّة الحديد مقتولاً، والقريَة التي هو فيها مُتَّهَمة بِقَتْل هذا الإنسان، والحُكومة قويَّة جدًا، وأرادَت أن تُرَبِّي هذا المجتمع كلَّه بهذه القريَة، فما كان من رجال الشرطة إلا أن جمَعوا كلّ ذكَرٍ في هذه القريَة، وساقوهم إلى ساحة عامَّة لِيُذيقوهم ألوان العذاب، ولِيَعْتَرِفَ القاتِلَ؟ وهذا الأخ الكريم في اليوم الذي وصَل فيه وقع حادثُ القتل هذا، وسيقَ مع مَن سيق، وهذا الأخ مِمَّن نحسبهم من أهل الإيمان، وأنا أُصَدِّقُه، فالضابط المُوَكَّل بِتَعْذيب هؤلاء الناس أشار إليه وقال له: أنت اِذْهَب إلى البيت، فَفِعْلُ العَبْد بيَد الله تعالى، فهذه الحقيقة إذا أيْقَنْتَ بها لم يكنْ ثمّة خوْف إطْلاقًا.

الله تعالى يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا شأنُ إرادته المتَعَلِّقة بِفِعْلِه :

قال: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا شأنُ إرادته المتَعَلِّقة بِفِعْلِه، وأما إرادته المُتَعَلِّقة بِفِعْل العَبْد فَتِلْكَ لها شأنٌ آخر، فإن أراد الله تعالى فعَلَ العَبْدُ، ولم يُرِد من نفسه أن يُعينه عليه، ويجعله فاعِلاً، لم يقع الفِعْل أصْلاً، وكلُّ شيء وقع أراده الله، لذلك قالوا: لِكُلّ واقِعٍ حِكْمة، فقد يكون الذي أوْقَعَ هذا الفِعْل أحْمق وأرْعَن، وقد يكون جاهِلاً، ولكن لأنَّ هذا الفِعْل وَقَع، فإنَّه يكون فيه حِكْمة بالغة.

قال: وإن أراده حتى يُريد من نفسِه أن يجعله فاعِلاً، وهذه هي النُّكْتَةُ، وبالمناسبة نحن نقول: احكِ لنا نُكْتَة أي طُرْفَة، ولكن النُّكْتَة في اللُّغَة الشيء الدقيق الخَفِيّ؛ تقول: نُكْتَة بلاغيَّة، أو نُكتة لُغَويَّة، فالنُّكات الأشياء الدقيقة الخَفِيَّة، لا بِمَفْهومِها المُعاصِر !.

قال: وهذه هي النُّكْتَةُ التي خَفِيَت على القَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة، وخَبُثوا في مسألة القَدَر لِغَفْلَتهم عنها، وفرْق بين إرادته أن يفعل العَبْد، وإرادته أن يجعله فاعِلاً، فالله تعالى ما أجْبَر الإنسان، إلا أنّه إذا اختار شيئًا فإمَّا أن يسْمَحَ الله له أن يفْعله، أو لا يسْمَح، فإذا فَعَلَه فقد سَمَح.

وهنا سؤال: هل يريد الله الكفر مِن الناس؟ أراده ولم يرْضَه، وأراده ولم يأمُرْ به، ومعنى أراده أيْ: سَمَح به، لماذا سَمَح به ؟ لأنّ الإنسان مُخَيَّر، وأوْضَح مثل: أن تكون صَيْدَلِيًّا، وتحتاج إلى موظّف مُثَقَّف لكن تُحِبّ أن تَمْتَحِنَهُ، فَتضَعُ له على الطاولة مجموعة أدْوِيَة مُنَوَّعَة، ثم طلَبْتَ أن يُصَنِّف هذه الأدْوِيَة، كيف يَصِحُّ الامتِحان؟ إذا سَمَحْتَ له أن يغْلط؛ ألَيْس كذلك؟ فإن لم تَسْمح له أن يغْلط، فما امْتَحَنْتَه، إذا أراد الله للعَبد الكفْر فإنَّه سَمَح له تَحْقيقًا لاخْتِياره.

تلازم إرادة الله عز وجل و فعله :

الأمْر الآخر أنَّ إرادته وفِعْلَهُ متلازمان، فما أراد أن يَفْعَل فَعَل، وما فَعَلَهُ فقد أراده، هذا أقوله كثيراً ؛ كُلُّ شيءٍ وَقَع أراده الله، وكلّ شيء أراده الله تعالى وَقَع، أفْعالُهُ مُتَلازِمة مع إرادته، وهذا بِخِلاف المَخلوق فإنَّه يريد ما لا يفْعل، ويفْعَلُ ما لا يريد، أحْياناً يقول لك أحدهم: لقد أجْبروني حتَّى تَكَلَّمْتُ، وهذا أمْرٌ ليس بيَدي ! فالإنسان يفعل ما لا يريد، أما الله تعالى فهو فَعَّالٌ لِما يريد، وإذا أراد شيئًا وَقَع، وإذا وَقَعَ الشيء فقد أراده الله عز وجل.

قال: إثبات إرادات مُتَعَدِّدَة بِحَسَبِ الأفعال، وأنَّ كلّ فِعْلٍ له إرادةٌ تَخُصُّه، وهذا هو المَعقول في الفِطَر، وشأنه سبحانه وتعالى أنَّهُ يريد على الدَّوام ويفْعَل ما يريدُ، فالله عز وجل له إرادات كثيرة جداً، وإرادتُهُ مُسْتَمِرَّة، والدليل قوله تعالى:

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[سورة الرحمن: 29]

وأوْضَح مَثَل: أنّ الطبيب يمرّ على المريض، وينظر إلى ضَغْطه، فَيَقُول للمريض: تَجَنَّب المِلح، فَكُلّ شيء يجعل الطبيب يُعطي أوامِر، فهذه الإرادات مُتَبَدِّلَة بِتَبَدُّل حال الإنسان، فالله تعالى شأنُهُ مع المُستقيم الإكرام، ومع المُنْحِرَف التأديب، وشأنُه مع المُتَوَكِّل الدَّعْم، ومع المُتَكَبِّر القَصْم، ومع المُبَذِّر الإقْفار، ومع المُقْتَصِد الغِنى، ومع المُنيب الإكرام، ومع المُدْبِر الإعراض.

الأمر الآخر: أنَّ كلَّ ما صَحَّ أن تتعلَّق به إرادتُه جاز فِعْلُه، فإذا أراد كلّ ليلةٍ أن ينزل إلى السماء الدنيا، وأن يجيء يوم القيامة لِفَصْل القضاء، وأن يُري لِعِباده نفسَه، وأن يتَجَلَّى لهم كيف يشاء، وأن يُخاطبهم، ويضْحك إليهم، فقد ورَدَت صِفة الضَحك لله عز وجل، وغير ذلك لما يريد سبحانه، لم يَمْتَنِع فِعْلُه، فإنَّه تعالى فعَّال لِما يُريد، وإنَّما يتَوقَّف صِحَّةُ ذلك على الخبر الصادِق به، فإذا كان الخَبَر صادِقًا، وأخبر به فقد وَجَب التَّصْديق، وكذلك مَحْوُ ما يشاء، وإثبات ما يشاء، وكُلَّ يومٍ هو في شأن سبحانه وتعالى.

الله تعالى فعَّال بقُدْرَتِه و قادِر على أن يفْعَل ما يشاء دائِماً :

قال: والقَوْل إنَّ الحوادِث لها أوَّل يَلْزَمُ منه التَّعْطيل قبل ذلك، وأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يَزَل غير فاعِلٍ، ثمَّ صار فاعِلاً، وهذه أجَبْنا عنها في الدَّرْس الماضي، وقلنا: إنَّ الله تعالى فعَّال بقُدْرَتِه، وهو تعالى قادِر على أن يفْعَل ما يشاء دائِماً، فقُدْرَتُهُ لا علاقة لها بفِعْلِه، فقد يَفْعَلُ الإنسان هذا الشيء في وَقْتٍ مُحَدَّد، أما الله تعالى فهو دائِماً وأبداً قادِرٌ أن يفْعل ما يشاء.

قال: ولا يلْزَمُ من ذلك قِدَمُ العالَم، لأنَّ كلّ ما سِوى الله تعالى حادِث ومُمْكِن الوُجود، ومَوْجود بإيجاد الله تعالى له، وليس له مِن نفْسِه إلا العَدَم، والفَقْر، والاحْتِياج، والاحْتِياج وَصْفٌ ذاتي لازِمٌ لِكُلّ ما سِوى الله تعالى، وشَرْحُ اسم العزيز أنَّه يحْتاجُه كلُّ شيء في كُلّ شيء.

قال: والله تعالى واجب الوُجود بذاتِه، غَنِيّ بذاتِه، والغِنى وَصْفٌ ذاتي واجِبٌ له سبحانه وتعالى.

أقوال الناس في العالم

وللناس قولان في هذا العالم؛ هل هو مَخْلوق مِن مادَّة أم لا؟ واخْتَلَفوا في أوَّل هذا العالم ما هو؟ قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

[سورة هود: 7]

وروى البخاري في صحيحه عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ:

((إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَبِلْنَا جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ قَالَ كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ يَا عِمْرَانُ أَدْرِكْ نَاقَتَكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا وَايْمُ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ))

[البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

فقَوْلُهُ كتَبَ في الذِّكْر أي اللَّوْحُ المحفوظ كما قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[سورة الأنبياء: 105]

الذِّكْر اللَّوح المَحفوظ، ويُسَمَّى ما يُكْتَبُ في الذِّكْر ذِكْراً، كما يُسَمَّى ما يُكتَب في الكتاب كتاباً، والناس في هذا الحديث على قوْلَين: منهم من قال: إنَّ المَقصود إخباره أنَّ الله تعالى كان مَوْجوداً وَحْدَهُ، ولم يَزَل كذلك دائِماً ثمَّ إنَّه ابْتَدأ إحْداث جميع الحوادِث فَجِنْسُها وأعْيانُها مَسْبوقةٌ بالعَدَم، وأنَّ جِنْسَ الزَّمان حادِثٌ لا في الزَّمان.

أحْيانًا يقول لك أحدهم: الله تعالى لا يعلم ما سيَكون ! الأيام والشُّهور والسنون، كأنّ الله تعالى مَخلوق ضِمْن الزَّمن، وهو ينتظر سبحانه أن تأتي الأيَّام بِتَواريخ جديدة، أعوذ بالله من هذا الكلام ! هذا الزَّمَن مِن خلْق الله، وبعض خلقِهِ الزَّمنُ، ويسْتَحيل على عقلنا أن نفهم حقيقة الذات الإلهيَّة، فَيُمْكِنُنا أن نصِل إلى الله، وأن نسْعَد به، لكن لا يمكن أن نُحيط به، فالوُصول شيء، والإحاطة شيء آخر.
قال: وأنّ جنس الزمان حادِثٌ لا في الزَّمَن، وأنَّ الله تعالى صار فاعِلاً بعد أن لم يكن يفْعل شيئًا مِن الأزَل إلى حين ابْتِداء الفِعْل، ولا كان الفِعْل مُمْكِنًا.

والقَوْل الثاني: المُراد إخبارُه عن مَبْدأ خلْق هذا العالم المَشْهود الذي خلَقَهُ الله في سِتَّة أيَّام ثُمَّ اسْتوى على العَرْش، كما أخْبَرَ القرآن بذلك في غير مَوْضِع.

أُحِبُّ وأُفَضِّل دائِمًا لك أن توكِلَ فهْم آياتها إلى الله كما فَعَلَ السَّلَف الصالِح، ولك أن تُؤَوِّلها تأويلاً يليق بالله تعالى كما فَعَل الخَلَف الصالِح، وليس لك أن تُلْغِيَها كما فَعَل المُعَطِّلة، ولا أن تُجَسِّدَها كما فعَل المُجَسِّدَة، فهؤلاء انْحَرَفوا.

دليل صحة قول النبي عليه الصلاة و السلام التالي :

وقد أخْبَرَ النبي صلى الله عليه وسلَّم أنَّ تَقْدير هذا العالم المخلوق في سِتَّة أيَّام كان قبل خلقهِ بِخَمسين ألف سنة، وأنَّ عَرْش الربّ تعالى كان على الماء، ودليل صِحَّة هذا القول الثاني مِن وُجوه:
أحدها: أنَّ قول أهل اليَمَن جِئْناك لِنِسْألك عن أوَّل هذا الأمْر، وهو إشارة إلى حاضِرٍ مَشْهود موجود، والأمر هنا بِمَعنى المأمور، أي الذي كَوَّنَهُ الله تعالى بِأَمْره، فقد أجابهم النبي صلى الله عليه وسلَّم عن بدْء هذا العالم المَشْهود، لا عن بدْء المخلوقات، لأنَّهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حالَ كَون عرْشِهِ على الماء، ولم يُخْبِرهم عن خَلْق العرش الذي هو مخلوق قبل السماوات والأرض.

وأيْضاً قال: كان الله تعالى ولم يكن شيء قبله، وقد رُوي معه ورُوِيَ غيره والمجلس كان واحِداً، فَعُلِمَ أنَّه قال أحد اللَّفظين، والآخران رُوِيا بالمعنى ولفْظ (قبْل) ثبت عنه في غير هذا الحديث.

فكلمة غيره، ومعه، وقبْله كانت بِمَجْلس واحد، ففي حديث مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَالظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَالْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ]

واللّفظان الآخران لم يثبت واحِدٌ منهما، ولهذا كان كثير من أهل الحديث يرْويه بلَفظ غَيْر كالحُمَيدي، وإذا كان كذلك لم يكن في هذا الحديث تَعَرُّض لابْتِداء الحوادِث، ولا لأوَّل مخلوق.

وأيضاً فإنَّه قال: كان الله ولم يكن شيء قبله ومعه أو غيره، وكان عرشه على الماء، وكتَبَ في الذّكْر كلّ شيء، فأخْبَرَ عن هذه الثلاثة بالواو، وخلق السماوات والأرض، ورُوِيَ بِثُمَّ، فظهَر أنَّ مَقْصودَهُ إخبارهم إيَّاه بِبَدْء خلْق السماوات والأرض وما بينهما، و هي المخلوقات التي خلقَت في سِتَّة أيام لا ابْتِداء الخلق ما خلقه الله قبل ذلك، وذَكَر السماوات والأرض بما يدلّ على خلقهما، وذَكَر قبلهما بما يدُل على كوْنِه ووُجودِه، ولم يتَعَرَّض لابتِداء خلقِه له.

وأيْضاً، فإنَّه إذا كان الحديث قد ورَدَ بهذا وهذا، فلا يُجْزَم بأَحَدِهما إلا بدليل، فإذا ترجَّحَ أحدهما على الآخر فَمَن جَزَمَ بأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلَّم أراد المعنى الآخر فهو مُخطئٌ قطْعاً، ولم يأتِ في الكتاب ولا في السنَّة ما يدلّ على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته لِما يُظَنُّ أنَّه معنى الحديث، ولم يُرِد كان الله، ولم يكن شيءٌ معه مُجَرَّد، وإنَّما ورَدَ هذا على السِّياق المَذْكور، فلا يُظَنُّ أنّ معناه الإخبار بِتَعطيل الربِّ تعالى دائِماً عن الفِعْل إلى خلق السماوات والأرض، أيْ: قبل أن يخلق، فهُوَ تعالى خَلاَّق، وقبل أن يفْعل هو فعَّال، وقبل أن يُريد هو مريد، وهذا هو المعنى، فَدَائِماً الله تعالى قادِر على أن يفْعَل، ولو لم يفْعل.

الله تعالى موجود و لا شيء قبله أو معه أو غيره :

آخر فقْرة: وقوله صلى الله عليه وسلَّم: كان الله، ولا شيء قبله، أو معه،أو غيره، وكان عرْشُه على الماء لا يَصِح المعنى أن يكون الموجود وحْده، ولا مخلوق أصْلاً، لأنَّ قوله تعالى: وكان عرْشه على الماء يرُدُّ ذلك، فإنَّ هذه الجملة؛ وكان عرشه على الماء إمَّا حالِيَة، أو مَعْطوفَة، وعلى كِلا التَّقْديرَيْن، مَخْلوقٌ ومَوْجود في ذلك الوقت، فَعُلِمَ أنَّ المعنى أنَّه لم يكن شيء من هذا العالم المَشْهود يوْمَ خلْق، إلا أنَّه كان هناك عرْش، ولا يعلم حقيقة العرْش إلا هو، والإنسان كلَّما تأدَّب قال: لا أدري.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (12-20) : الله عز وجل له معنى الربوبية ولا مربوب .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى له معنى الربوبيَّة ولا مَرْبوب ومعنى الخالق وما مخلوق :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا فيما أعْتَقِد إلى قوْل الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى: "له معنى الربوبيَّة ولا مَرْبوب، ومعنى الخالق وما مخلوق".

إنّه سبحانه وتعالى قبل أن يخلق كان له معنى الخالِق، وقبل أن يكون ربًّا كانت له الربوبيَّة، فهو تعالى موصوف بالربّ قبل أن يوجَد مَرْبوب، وَمَوْصوف بكونه خالِقاً قبل أن يكون مَخْلوق، هذه الفِكْرة هي مِحْور دَرْسَين أو ثلاثة، فالله سبحانه وتعالى لا تُنفَى صِفاته قبل أفعاله، بل هي مُسْتَمِرَّة قبل فِعْلِهِ وبعد فِعْلِه.

قال أحد المشايخ الشَّارحين: وإنَّما قال: له معنى الرُّبوبيَّة، ومعنى الخالق دون الخالِقِيَّة، لأنَّ الخالِق هو المُخْرِج للشيء من العَدَم إلى الوُجود لا غير، والربّ يقتضي معانيَ كثيرةً، وهي المُلْك.

الربّ أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان :

بالمناسبة أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان هو الربّ، لذلك الحمد لله ربِّ العالمين، قال: هو المُلْك، والحِفظ، والتَّدْبير، والتَّرْبِيَة، وهي تبليغ الشيء كماله بالتَّدْريج، فأنت لك مُرَبٍّ هو الله تعالى، فإذا ربَّاك إنسان فهو يُرَبِّيك بإلْهامٍ من الله عز وجل، ولِكُلِّ شيء حقيقة وما بلَغَ العَبْدُ حقيقة الإيمان حتَّى يَعْلَم أنَّ ما أصابه لم يكن لِيُخْطِئه، وما أخْطأهُ لم يكن لِيُصيبَهُ، فلا جَرَم أنّه أتى بلَفْظٍ يشْمل هذه المعاني، وهي الرُّبوبيَّة.

وفيه نَظَر، فكما أنَّ الربوبيَّة لها معانٍ كثيرة، فالخَلْق أيْضاً له معانٍ كثيرة، فَمِن معانيها التَّقْدير، فالله عز وجل يَخْلُق، وقبل الخَلْق هناك إرادَة، وقبل الإرادة يوجد عِلْم، فَمِن لوازم الخَلْق وُجود إرادَةٍ، ومن لوازم الإرادة وُجود العِلْم، فالإنسان كما تعلمون جميعاً يعتريه نقصٌ، وكُلُّ إنسانٍ يؤخَذ منه، ويرَدُّ عليه.

أكبر خطأ ارتكبه المسلمون اليوم أنَّهم قاسوا الخالق على المخلوق :

قَوْلُهُ: وكما أنَّهُ مُحيي المَوْتى بعدما أحْيا، اسْتَحَقَّ هذا الاسم قبل إحْيائِه، كذلك اسْتَحَقَّ اسم الخالِق قبل إنشائِه، وأنت تشعر أنَّ هناك فِئة صارَت ومشكلة في عُصور تأليف هذه الكُتب، وهذه الفِئة جاءَت من تَحْكيم عِلم الكلام المُسْتَوْرَد إلى الشَّريعَة الإسلامِيَّة، وأكبر خطأ وَقَع به علماء المسلمين أنَّهم اقْتَبَسوا عُلوماً من مُجْتَمَعاتٍ وَثَنِيَّة وَطَبَّقوها على دينهم، فَأوْقَعُوا الناس في حَرَجٍ شديد، لذلك هذه الكتب تريد أن تُعيد للإسلام صفاءَهُ، ولِهذا الدِّين نقاءَهُ، وكما أنَّهُ مُحيي المَوْتى بعدما أحْيا، اسْتَحَقَّ هذا الاسم قبل إحْيائِه، كذلك اسْتَحَقَّ اسم الخالِق قبل إنشائِه، أكبر خطأ قياس الخالق بالمَخلوق، مَثَلاً: لو فرَضْنا أنَّه بعدما انتهى الدَّرْس أغْلَقْنا الباب جميعاً، وعُدنا بعد حين فإذا هذه الطاوِلَة في مكان آخر، سَتَقولون جميعاً: مَن الذي نَقلها إلى هذا المكان؟ لأنَّه مُرَكَّبٌ في أعْماقِنا أنّ هذه جماد، ولا تنتقل إلا عن طريق إنسان، لكن لو وَجَدْتَ زميلاً لك واقِفاً هنا، تَكَلَّمْتَ مع آخر، ثم التفتَّ فإذا بك تجده هناك ! هل تقول: مَن نقلَهُ؟ لا، لأنَّ فيه الحركة، ومِن السُّخف أو الخبث أن تقيس صِفات هذا الإنسان الحيّ، والمريد، والمتنَقِّل، على هذه الطاوِلة الجامِدَة، لذلك يَبْدو لي أنَّ أكبر خطأ أنَّهم قاسوا الخالق على المخلوق، لذا لما قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء: 1]

كلمة (سبحان) تعني: أنْ يا عِبادي هذا الحَدَث الذي سوف أذْكُرُه لكم لا تقيسوه بمِقْياسِكم، ولا بأرضِكم، ولا بمَكانكم، ولا بزَمانكم، إنَّما هو مِن فِعْل الله تعالى المباشِر، وهو فوق المكان والزَّمان، وفوق القوانين، فما عليك إلا أنْ تطمئنّ، وترتاح، وما بعد الموت هناك قوانين لا علاقة لها بما بعد الموت، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: 169]

فهذا أكبر إشْكال في عِلْم التَّوحيد ؛ قِياس الخالق على المخلوق.

الله تعالى قادِرٌ دائِماً على إحياء الموتى :

وكما أنَّهُ مُحْيي الموتى بعدما أحْيا اسْتَحَقَّ هذا الاسم ـ وهمزته أيْ همزة اسم ـ همزة وَصْل، فالإنسان قد ينسى كتابة همزة القطع، وهذا يُفَسَّر بالسَّهو، أما إن كتب همزة الوصل همزةَ قطع فهذا يُفَسَّر بالضَّعْف، فإهْمال ما حقُّه الإثبات يُفَسَّر بالسَّهْو، أما إثبات ما حقُّه الإهْمال يُفَسَّر بالضَّعْف، فلو كَتَبْتَ

أخذ بهمزة الوصل؛ (اخذ) نقول: سها، أما لو وَضَعْتَ همزةً على (اسْتيقظ) هكذا (إسْتَيْقَظ) فلا نقول: سَها، أو كان مُسْتَعْجِلاً، هذا جَهْل ! - ولو أردنا أنْ نَتَعَمَّقَ أكثر؛ نسأل ونقول: ما فلْسَفَةُ همزة الوَصْل؟ الأصْل أنَّ هذه الهمزة حرف مزيد، لماذا؟ لأنَّ العرب لا تبدأ بِساكِن، فإذا كانت الكلمة تبدأ بِحَرْف ساكن نضيف زائِداً مَكْسوراً، والقاعِدَة المختصرة: أنَّ أيَّة كلمة تبدأ بِهَمْزة أضِفْ لها واواً فإن بَقِيَتْ فأَبْقِها، وإن سَقَطَتْ فأسْقِطْها، هذا الكلام ذكرناه لأنَّ كلمة (اسم) كتبَت في الكتاب على شكل (إسم)، وهو خطأ.

قال رحمه الله: وكما أنَّهُ مُحْيِي الموتى بعدما أحْيا اسْتَحَقَّ هذا الاسم قبل إحْيائِهم، كذلك اسْتَحَقَّ اسم الخالِق قبل إنشائِه، يعني أنَّه سبحانه وتعالى مَوْصوف بأنَّهُ يُحيي الموتى قبل إحْيائِهم، وقادِرٌ دائِماً على إحياء الموتى، فكَذلك يوصَف أنَّه خالقٌ قبل خلقِهِ إلْزَاماً للمعتزلة ومَن قال بِقَوْلِهم، كما حَكَيْنا عنهم فيما تَقَدَّم، وتَقَدَّم تقرير أنَّه تعالى لا يزال يفعل ما يشاء، والمعتزلة فِرْقَةٌ حَكَّمَت عَقْلَها في كُلّ شيء، وجَعَلَتْ عقْلَها هو الحكَم، مع أنَّ الدِّين في الأصْل نَقْلٌ، والعَقْلُ لِفَهْم النَقْل، لا لإلْغائه، فإذا ألْغَيْتَ النَّقْل بِعَقْلِك، فأنت مُعْتَزِلي، وهي فِرْقَة ضالَّة اعْتَمَدَت على عَقْلِها فأصابَتْ حينًا وأخْطَأَتْ أحْيانًا.

الإنسان نِسْبي أمَّا الإله فمطلق فكلّ شيء وَقَعَ أراده الله وكل شيء أراده الله وقع :

قوله: ذلك بأنَّه على كلّ شيءٍ قدير، وكل شيء إليه فقير، وكلّ أمْرٍ عليه يسير لا يحْتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء، وهو السَّميع البصير، وذلك إشارَةٌ إلى ثُبوت صِفاته في الأزَل قبل خلقِهِ للعالم، والكلام على كُلٍّ؛ على كُلِّ شيءٍ قدير، وشُمول كلّ في كلّ مقامٍ على حَسَب ما يحْتَفُّ به مِن القرائِن.

نحن عندنا قاعِدَة وهي أنَّ الإنسان نِسْبي أمَّا الإله فمطلق، والإنسان ممكن أن يُصيب تسعاً وتسعين مرَّة، ويغلِط مرَّة، هذا عالِمٌ كبير أما الإله فالخطأ من جهته مَنْفِيّ، وهو تعالى مُنَزَّهٌ عن الخطأ صغيره وكبيرِهِ، لذلك كلّ شيء وَقَعَ أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله تعالى مُتَعَلِّقَةٌ بالحِكْمة المطلقة، وحِكْمَتُهُ المطلقةُ مُتَعَلِّقَة بالخير المطلق، وهذه الحقيقة إذا اسْتَوْعَبْناها لم يبْقَ في الأرض هَمٌّ ولا حَزَن.

قُدْرَةُ الله مُتَعَلِّقة بِكُلّ شيء ولا شيء يعْجِزُهُ :

وقد حَرَّفَتْ المعتزلة المعنى المَفْهوم مِن قوله تعالى:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الحشر: 6]

أي قُدْرَةُ الله مُتَعَلِّقَة بِكُلّ شيء، ولا شيء يعْجِزُهُ، فقالوا: إنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ ما هو مَقْدور له، وأما نفْسُ أفعال العِباد فلا يقْدِرُ عليها عندهم، فالله تعالى خلَقَ الإنسان، وأعْطاهُ قُوَّةَ فعْلٍ، فلا علاقة بالله مع الإنسان في شؤونه !! وهي نَظَرِيَّة غَرْبِيَّة، يقولون: الله خَلاَّق وليس فعَّالاً! وهناك ألف ردّ وردّ على هؤلاء، فلو أنَّ الله تعالى أعْطى القُدْرات بالتَّساوي، فهو تعالى خلق الفقير والغنيّ، والقويّ والضَّعيف، فإذا قلتَ: الله تعالى فعَّال، معنى ذلك أنَّ من أعْطى للظالِمِ قُوَّةً فهُوَ أظْلَمُ منه، الآن ماذا تفعَلُ دولةٌ أمام سِلاح نَوَوِي ؟! مَقْهورة إنْ لم يكن لله تعالى دَخْل؛ بل خَلَقَ وتَرَكَ كما يقولون ! والآيات التي تردَّ عليهم مقالتَهم واضحةٌ كالشَّمس، قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

وقال تعالى:

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف : 54]

الله عز وجل خلاق و فعّال معاً :

الغَرْبُ كلُّهم يؤمنون أنَّ الله تعالى خلاَّق فقط، وليس فعَّالاً، بل الفعلُ فعلُ الإنسان! أما الدِّين الحنيف، وعقيدته الصَّحيحة تقول: إنَّ الله تعالى خلاَّق، وفعَّال، والإنسان لا يمْلِكُ إلا الكَسْب فقط أو الانْبِعاث إلى العَمَل، وقد ضَرَبْتُ مرَّةً مثلاً للتَّوْضيح، فهذه المصابيح لو كان لها مِفتاح سرِّي، وأنا الذي أتَحَكَّم بها عنْ بُعْد، وقلت لأحد الأخوان أطفِئْ بعضاً منها، فقام، ولبَّى الطَّلب، ثمَّ أمرتُ آخر بالطَّلب نفسِه فرفض أن يُلَبِّي، فماذا فَعَلْتُ بهذا؟ كَشَفْتُ طاعَةَ الأوَّل، ومَعْصِيَةَ الثاني، والفِعْلُ ليس فعْل الأوَّل، ولا الثاني، هذه هي الحقيقة: عندها لا بها، وهذا هو التَّوْحيد، فأنت أمام وَحْش قويّ، ووَحْش، وعَدُوّ لئيم، قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود: 55]

وتنازَعوا، هل يقدر على مِثْلِها أم لا؟ فلو كان المعنى على ما قالوا لَكان هذا بِمَنْزِلَةِ أن يُقال: هو عالِمٌ بِكُلِّ ما يعْلَمُهُ، وخالِقٌ لِكُلِّ ما يخْلقه، ونحو ذلك مِن العِبارات التي لا فائِدَة منها، فسَلَبوا صِفَةَ كمال قدْرته على كلّ شيء، فإذا كان يَعْلَم يخْلُقُ الذي خَلَق، ويعْلَمُ الذي عَلِمَ، هذا كلام اسمه تَحْصيل حاصِل، ولا معنى له! أما كمال قُدْرَتِه أن يخلِقَ الذي خَلَق، وهو على كلّ شيء قدير، على الذي خَلَق وعلى ما لم يخْلق، وقُدرته مُتَعَلِّقَة بكلّ شيء.

وأمّا أهل السنَّة فَعِنْدهم أنَّ الله على كلّ شيء قدير، وأنَّ كلّ ممْكِن مُنْدَرِج في هذا وضمْنه، فهو قدير على خَلَق هذا العالَم، وهو خلقه فهل يقدِر أن يخْلِق عالَماً مُضاعَفًا ضِعْف الحَجْم ؟! نعم، فالفَرْق بين المعتزِلة وأهْل السنَّة؛ أنَّ المعتَزِلة قالوا: إنَّ الله على كلّ شيء قدير، على خَلَق ما خلَقَ، أما أهْل السنَّة فهُوَ قدير على خلْق كلّ شيء، فهو تعالى خَلَقَ هذا الخَلْق بهذا الحجْم لِحِكْمَةٍ أرادها، أما لو أراد أن يخلق حجْماً أكبر لخَلَقَ، فَهُوَ تعالى لا شيء يَحُدُّ قُدْرَتَهُ، ولا شيءَ يَحُدُّ عِلْمَهُ قال: وأما المُحالُ لِذاتِهِ مثلُ كَوْن الشيء الواحِدِ مَوْجوداً مَعْدوماً في حالٍ واحِدَة ؛ فهذا الشيء مُستَحيل!

الله تعالى يعلمُ ما يكون قبل أن يكون ويكْتُبه وقد يذْكره ويُخْبِرُ به :

كلُّكم يعْلَم أنَّ هناك واجِب الوُجود، ومُمْكِن الوُجود، ومُسْتَحيل الوُجود، وعندنا طائِفَة من المُسْتَحيلات لطيفَة؛ فالمُسْتَحيل كَوْنُ الشيء مَوْجوداً ومَعْدوماً في حالٍ واحِدَة! وهذا لا حقيقة له، ولا يُتَصَوَّر وُجوده، ولا يُسَمَّى شيئًا باتِّفاق العقلاء، ومثل هذا الباب خَلْقُ مِثْل نفْسِه، أو إعْدامُ نَفْسِه، وأمْثال هذا مِن المُحال، والأصل الإيمان برُبوبِيَّتِهِ العامَّة، فإنَّه لا يؤمن بأنَّهُ ربُّ كُلِّ شيء إلا مَن آمَنَ أنَّهُ قادِرٌ على تِلْك الأشياء، ولا يؤمن بربوبِيَّتِه وكمالِها إلا مَن آمَنَ أنَّه على كلّ شيءٍ قدير، وإنَّما تنازَعوا في المَعْدوم المُمْكِن؛ هل هو شيءٌ أم لا ؟ فالله تعالى خلق خمْسة ملايين من البشر، فهل يستطيع أن يخلِق خمسة ملايين أخرى؟ هو قادِر على ذلك تعالى، ولكن هذا المَعْدوم المُمْكِن فهل هذا شيء أم لا ؟! قال: وإنَّما تنازَعوا في المَعْدوم المُمْكِن؛ هل هو شيءٌ أم لا ؟ التَّحقيق أنَّ المعدوم ليس بشيءٍ في الخارِج، ولكنَّ الله يعلمُ ما يكون قبل أن يكون، ويكْتُبه، وقد يذْكره ويُخْبِرُ به، كَقَوْلِهِ تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

[سورة الحج: 1]

فهو تعالى قال: شيء ! فيَكون شيئًا في العِلْم، والذِّكْر، والكتاب، لا في الواقِع، ولا في الخارِج، مثلاً: ساحَة عامَّة فارِغَة إذا أرَدْنا أن نُقيم فيها احْتِفالاً، نضع كراسي، وصناديق، وأغْطِيَة، وتَزْيينات، ولكن لمَّا نُخَطِّط على الوَرَق نكون تَصَوَّرنا هذا الشيء، ولم نعْمله، فالشيء المعدوم الممكن هو شيء، لِقَوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

[سورة الحج: 1]

وكما قال تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

وقال تعالى:

(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

[سورة مريم: 9]

أي لم تكن شيئًا في الخارج، وإنّما كان شيئًا في عِلْمِ الله تعالى، وقال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

[سورة الإنسان : 1]

فالمُمْكِن غير المعدوم، هذا شيء، وهو مَوْجود في عِلْمِ الله، وغير موجود في الواقِع، وفي الخارج.

الله تعالى له نَفْس وله عين وصِفات الذَّات نُفوِّض فَهْمَهَا إلى الله :

وقوله:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

[سورة الشورى: 11]

رَدٌّ على المُشَبِّهَة، وقوله:

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

ردٌّ على المعطّلة، فالمُشَبِّهَة هم الذين شبَّهوا الله تعالى بِخَلْقِه، والمُعَطّلة هم الذين اعْتَقَدُوا أنّ صِفاته هي عَيْنُ ذاتِه، وقد سَمِعْتُ في بلدٍ عربي خطيباً يخطب على المنبر، وقال: إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربُّكم، ونَزَلَ الخطيب درجة، وقال: كما أنزل أنا! وهم موَحِّدون، ولقد رَفَضُوا المَجازَ في القرآن! فهذا أحد المشايخ سأل طالباً يَمْتَحِنُه، فقال له: هل تؤمن بالتَّشبيه؟ فقال له: نعم، وما الدليل ؟ قال الطالب: قوله تعالى:

(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

[سورة الإسراء: 72]

فإذا لغى المجاز كان السائِل بِجَهَنَّم، أما إذا قلنا: هناك مجاز في اللُّغَة، فهو أعْمى القلب، وإذا لم يكن ثمة مَجاز فهو أعمى العَيْن، طبْعًا لم ينجَح الطالب! خَطَبْتُ مرَّةً خطبة، وهناك أخ كريم؛ والله أُحِبُّهُ كثيراً، وهو غَيور على هذا المَسْجِد، فقال لي: لقد قلت: نفس الله عز وجل! فقلتُ له: الله تعالى يقول:

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[سورة المائدة: 116]

فالله له نَفْس وله عين، وصِفات الذَّات نُفوِّض فَهْمَهَا إلى الله، وأقلُّ من ذلك نُؤَوِّلُها تأويلاً يليق بالله تعالى، إلا أنّنا لا نُعَطِّل ولا نُشَبِّه.

نهي النبي الناس عن التفكر بذات الله حتى لا يدخلوا بمتاهات تؤدِّي بهم إلى الكُفر :

هناك نقطة، وهي أنَّ الذي ينفي عِلْمَ الله عز وجل أو يُحَكِّم عَقْلَهُ بذات الله، يَدْخُل بمَتاهات وَعِرَة جداً، وكلّما حلَّ مشكلة تنشأ له مئة مشكلة، ويُكلّفُ نفسَهُ ما لا يُطيق، ويُحَمِّل عقله المحدود حملاً كالجبال، ويسحق عقله لأنَّك أنت تُخاطِب إنسانًا فما هو الذي يدفعك لكل هذه المتاهات؟ أنا أُجيب عنك؛ الذي يَدْفَعُك لهذه المتاهات تَبْرِئَةُ الله عز وجل مِن الذلّ، الله تعالى لا يظلمنا لا فتيلاً ولا قطميراً، ثُمّ تُدْخل عقلك بذات الله، والنبي عليه الصلاة والسلام نهاك، حتى لا تدخلَ بمَتاهات تؤدِّي إلى الكُفر بعَيْنِه.

ما مِن حَدَث يقع إلا ووراءه سبب وحِكْمة :

ثمَّ إنّ هناك نقطة دقيقة جداً، وهي أنَّك لا تستطيع أن تثبت عدالة الله بعَقْلِك إلا بحالةٍ واحِدَة؛ وهي أن يكون لك عِلْم كَعِلْمِ الله، حكى لنا أخ من أخواننا، وهو يعمل عند أخيه، أُصيب أخوه بمَرَض خبيث، وأمُّه جاهِلَة، قالت له: اكتب المَحَل، والسيارة، والمعمل، باسم أخيك، فقال لها: وَزَوْجَتي! فقالت له: غداً يأتي غيرك، ويتزَوَّج امرأتك، ويأخذ كلّ شيء! فأُمُّه جاهلة، وهو أجْهَل مِن أمِّه، فهذا الأخ الذي يعمل عند أخيه بعد شهرين تزَوَّج ـ طبعاً ماتت الأمّ و مات الأخ كذلك ـ فأخذ هذا الأخ السيارة والمعمل، ولم يعْط قِرْشًا للوَرَثَة، فتقول له زوْجته: أين المعمل؟ فيقول لها: باعه لأخيه، أين ثمنه؟ لا نعرف! سنة بكامِلِها، وبعدها أصيبوا في حادِث سيرٍ، المغتصب وعائلته ماتوا كلّهم، فرجع الحق لأصحابه، واسْمَحوا لي أن أقول لكم: إنَّه ما مِن شيء يقع من آدم إلى الآن إلا ووراءه أسباب، كل شيء وَقَعَ أراده الله، وكما أراده الله وقع، وإرادته مُتَعَلِّقَة بالحِكْمة المطلقة، وحِكْمَتُهُ المطلقة مُتَعَلِّقَة بالخير المطلق، هناك عَدل مطلق من الله تعالى، في كُلّ الخَلْق والبشَر لا يوجد إنسان مَظْلوم.

قال: ليس كمثله شيء رَدٌّ على المُشَبِّهَة، وقوله: وهو السميع البصير ردٌّ على المعطّلة، فهو سبحانه وتعالى موْصوف بصِفات الكمال وليس له فيها شبيه، فالمَخْلوق وإن كان يوصَفُ بأنَّهُ سميعٌ بصير فليس سَمْعُهُ وبَصَره كَسَمْع الربّ وبصره.

استَوْقفَني أحد الأخوة التجار، وقال لي: فلان مِن الناس جاء لِيَفْتَحَ مَحَلَّهُ فإذا برَصاصَة تأتي في عموده الفقري فَجعلَتْهُ مَشْلولاً ! ثم قال لي: ماذا فَعَلَ هذا؟ أليس هذا مكانِ عَمَله؟ بعد عشرين يوماً حدَّثني أخٌ، فقال: لنا جار اغْتَصَبَ أموال الأيتام؛ أولاد أخيه ! واشْتَكوا للشَّيْخ حسين خَطَّاب، فَجَمَعَهم الشَّيْخ كي يتَّفِقوا، فرَفَضَ هذا المُغْتَصِب أن يعطيهم شيئًا! فقال الشيخ حسين خطَّاب حينها: إيَّاكم أن تَشْكوه إلى القَضاء، ولكن اشْكوه إلى الله تعالى! وكانت القِصَّة في الساعة الثامِنَة مساءً، وفي الساعة التاسِعَة صباحاً كان المغتصِبُ مَشْلولاً، فأنا أقول لكم مرَّةً ثانِيَة: ما مِن حَدَث يقع إلا ووراءه سبب وحِكْمة، فأنت

إذا أرَدْتَ أن تُنَزِّه الله تعالى فلا يجعلك هذا تنفي عنه العِلم، فإنّ الله لم يكلّفك بهذا، ونَزِّهْني كما أُريد، وليس كما تريد! لذلك لا تُحاوِلوا بِعُقولِكم أن تدخُلوا في مَتاهات الذات الإلهيَّة، ولا تُفَكِّر أن تَحُل القضايا بعَقْلِك، فأنت حادِث ومَحْدود، فالأوْلى بالنسبة للآيات التي ذَكَرت صِفات ذاته تعالى؛ إما أنْ تُفَوِّض معناها إلى الله تعالى، وإمَّا أن تُؤَولها تأويلاً يليق بالله عز وجل، إلا أنَّك لا تُعَطِّل، ولا تُجَسِّد، ولا تُحكِّمْ عقلِك، فهؤلاء هم المعتزلة الذين حَكَّموا عُقولهم في كلّ شيء.

العقل و النقل :

يقولون: من دون العَقْل لا نفهم النَّقْل! الجواب: نعم فالعَقْل له دور خطير في النَّقْل:

أوَّلاً: مُهمَّةُ العَقْل قبل النَّقْل إثبات صِحَّة النَّقْل، ومُهمَّة العقل بعد النَّقْل فَهْمُ النَّقْل، إلا أنَّه ليس للعَقْل إلغاء النَّقْل، فلو فَرَضْنا أنَّنا قلنا لك: لك مُهمَّة تقديم رواتب هؤلاء المُوَظَّفين، فإذا بك تقول: دَعونا من الرواتِب ! أنت مُهمَّتُك تقديم الرواتب لا إلغاؤُها، ومَثَلٌ أوْضَح مِن ذلك: أنت وكيل لإنسان عظيم، وأعْطاك مُهمَّة وقال لك: أمامك اثنا عشَرَ بنداً عليك أن تُنَفِّذها، والعَمَلِيَّة تُكَلِّف مليونًا، وأنت معك الملايين مِن مالِهِ، فبما أنَّك وكيله فعليك أن تتأكَّد مِن صِحَّة النَّقْل، فلعَلَّ هذا ليس توقيعه، لأنَّه إذا لم يكن توْقيعُه يقول لك: لِمَ تصرَّفتَ هكذا؟ فادفع المليون من جَيْبك، فإنَّه ليس توقيعي! فأنت مُكَلَّف أن تَتَحقَّق من صِحَّة التَّوْقيع، فلو قال لك: أعْطِ فلانًا ألف دينارٍ ونصفه! يا ترى هل هو ألف دينار ونصف دينار، أو ألف وخمسمئة؟! سَلْ علماء اللُّغَة: على مَن يعود هذا الضَّمير، وهذا عِلم الأصول؛ استنباط الحُكْم الشرعي من النَّص الكُليّ فَعَقْلُكَ مَسْموح له أن يتأكَّد من صِحَّة التوقيع، أو مَدْلول النَّص.

فلما يُلْغي عقلُك النَّقلَ، لم تعُد تعبد الله، أما عقلك من حَقِّه التأكُّد مِن صِحَّة النَّقْل، وفَحْواه، فالعَقْل عن طريقه نفهم أصْل النَّقْل، وعن طريقِهِ نُثْبتُ صِحَّة النَّقْل، وعن طريقِه نفْهَمُ النَّقْل، إلا أنَّ العَقْل غير مسْموح له أن يُلْغي النَّقْل.

مثَلٌ آخر، مريض مصاب بالتهاب بالمعِدَة، بِعَقْلِه يبْحث عن أحْسَن طبيب، وعن أكثرهم خِبْرَةً، لكن عندما يصِل إلى هذا الطبيب، ويدخل عنده فهل يستخدِم عقله؟! هنا انْتَهَت مُهمَّة عَقْلِكَ، فَهُوَ أوْصَلَك إلى الطبيب، أمّا الآن فَدَوْرُكَ التلقِّي، وليس المُحاكمة والتَّدقيق! فأنت كذلك: عَقْلُكَ أوْصلَك أنَّ هذا كون له خالِق، والله تعالى هو الخالِق، وهذا القرآن كلامه، وهذا الإنسان رسوله صلى الله عليه وسلَّم؛ فهذا هو دورُ العَقْل، ثمَّ جاء دَوْر النَّقْل، أمَرَك الله بالصلاة والصِّيام والزكاة والحج.

فالعَقْل والنَّقْل متكامِلان، والعَقْل لا يُمكن أن يختلف مع النَّقْل، لماذا ؟ لأنَّ العَقْل مِقياس أوْدَعَهُ تعالى فينا، والنَّقْل كلامه، والمَصْدر واحِد، والكَوْن خلقُه، لذلك قالوا: لا يُمْكِنُ لِصَريح المعقول أن يُخالِفَ

صحيح المنْقول، وقد أُلِّفَت كُتُب في هذا، تَوافُق المَعْقول مع المنْقول حَتْمٌ واجِب، مثال: هناك عشرة أقْمِشَة قِسْتُها وكَتَبْتُ على كلّ منها عدد أمتارها، فهل يُعْقَل أن أعْطيكَ مِقياساً أكون مخطئًا فيه؟! كذلك هل يُعْقَل أن تكون الحقائق التي في القرآن مناقِضَة للعَقْل؟ وهل يمكن أن يصِل العَقْل إلى نتائِج خاطئة مع القرآن؟

وهذا الموضوع خطير، فأُناس أخذوا بالعَقْل كالمعتزلة، وآخرون وقفوا عند ظاهر النص، وجَمَّدوا عُقولهم، وكلاهما خطأ، فالعَقْل له دَوْر، والنَّقْل كذلك.

عِلْم الحديث وعِلْمُ الأصول علمان أساسيان في الدين :

هناك علوم كثيرة في ديننا، إلا أنَّ عِلْمَيْن منهما هما الأساس: عِلْم الحديث، وعِلْمُ الأصول، فالأوَّل تعرف به صِحَّة النَّقْل، والثاني يدُلُّك على الفَهْم الصحيح للنَّص، ومشكِلَتنا مصدرها إما الأحاديث الموضوعة، أو الغلط في الفَهْم، فنحن إذا أمْكننا أن نضبط النَّقل والتأويل اتَّفَقْنا، وأنا أقول: لو ألْغَيْنا الأحاديث الضَّعيفة، والفَهْم العَشْوائي للنُّصوص، نَجْتَمِع على مذهبٍ واحد، فعلى الإنسان أن يتأكَّد من الحديث، أو يرْويه بصيغَة التَّمْريض.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الترضي يكون إما من باب الدعاء أو الإقرار :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا في كتاب العقيدة الإسلاميَّة للإمام الطحاوي عند قوْل الإمام الطَّحاوي رضي الله عنه، والتَّرَضي هنا من باب الدُّعاء لا الإقرار، فالصَّحابة نتَرَضَّى عنهم من باب الإقرار، والله تعالى قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)

[سورة الفتح: 18]

أما إن ذكَرْنا رَجُلاً صالِحاً وتَرَضَّيْنا عليه فهذا تَرَضٍّ دُعائيٌّ لا تَرَضٍّ تَقْريري، كأن تقول لإنسانٍ فقير: أغْناك الله! أي أرْجو الله أن يُغْنِيَكَ، أما إذا قلتَ لإنسانٍ غَنِيٍّ: لقد أغناك الله؛ كان هذا من باب التَّقرير، وإن كان أخوكم المُتَحَدِّث يميل إلى قول: رحمه الله تعالى عند ذِكْر الأئِمَّة، حتَّى يكون هناك فرْقٌ واضِح بين الصَّحابة الكِرام، والعلماء الذين جاؤوا بعدهم. خَلَقَ أي أنْشأ وأبْدَعَ وأوْجَدَ، ويأتي خَلَقَ بِمَعنى قدَّر، والخَلْق مَصْدر خَلَقَ الخَلَق بِعِلْمِه.

أيها الأخوة، هذا موضوع دقيق دقيق، وحَسَّاسٌ حسَّاس، لأنَّ فِئاتٍ كثيرة ضَلَّت وأضَلَّتْ، وزَلَّتْ أقْدامُها في هذا الموضوع، فأرْجو الله سبحانه وتعالى أن تُعْطوني آذانكم وإصْغاءكم لِما سأقول قبل أنْ أقْرأ وأشْرَح.

العقل أداة مَعْرِفة الحقائق ولكن له طاقة مَحْدودة :

كُلُّكم يَعْلم أنَّ العَقْل مَحْدود الإمْكانات وذلك لِحِكْمةٍ أرادها الله تعالى، فأَنْ تَعُدَّ عَقْلَكَ كُلَّ شيء، وأنَّهُ بِإمْكانه أن يفْعَلَ كلّ شيء؛ هذه فِكْرة ساذِجة، ويعتقِدُها الأطفال، فَعَقْلُكَ أداة مَعْرِفَة الحقائق، ولكن له طاقة مَحْدودة فَحَيْثُما وَجَّهْتَهُ إلى المادَّة لِتَخْتَبِر مُنْشأها، وإلى الخَلْق لِتَعْرفَ خالِقَهُ، وإلى النِّظام لِتَعْرِفَ نِظامَهُ، وإلى الفِطْرة لِتَعْرف من فَطَرَها فحَيْثُما تَوَجَّهْتَ إلى المادَّة بِعَقْلِكَ كَشَفَ لك ما وراء المادَّة، وهذه المُهِمَّة سَمَّاها العُلَماء الاسْتِدْلال، وهذه هي صَلاحِيَّة العَقْل؛ تنْظر في الكون فتَرى المُكَوِّن، وتنظر في النِّظام فتَرى المُنَظِّم، وتنظر في الإبداع فتَرى المُبْدِع، وتنظر في الجمال فتَرى الجميل، وتنظر في

الحِكْمة فَتَرى الحكيم، وإيَّاكم ثمَّ إيَّاكم أن تُحَمِّلوه ما لا يُطيق، وأن تُقْحِموه في عالَم الغَيْب؛ عِنْدَئِذٍ يأتيكم بِنَتائِج مُضْحِكَة، لذلك الذين ضَلُّوا وأضَلُّوا ماذا فعَلوا؟ سَلَّطوا عُقولهم على موضوعات غايتها في الدِّين الإخْبار، فأنت في حلْقَة الإحْساس، أو حَلَقَة العَقْل، أو حَلَقَة الإخْبار: ذاتُ الله عز َّوجل وأسْماؤُه وصِفاتُه، الماضي السَّحيق والمستقبل البعيد، عالَمُ الغَيْب وعالَم الملائكة وعالَم الجنّ؛ هذه مَوْضوعات إخْبارِيَّة لا نَمْلِك فيها إلا الخَبَر الصادِق، وأيَّةُ زِيادَةٌ على الخَبَر الصادِق هي زِيادَة وَهْمِيَّة وظَنِيَّة، ولَيْسَت قَطْعِيَّة، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ))

[الكشاف عن عبد الله بن عباس]

لذا وَطِّن نَفْسَك على أن تَخوض في آيات الله التي تتحدث عن خَلْقِه، وأن تُمْضي حياتَكَ كُلَّها في التأمُّل في مَخْلوقات الله وعَظَمَتِها، وكُلَّما زِدْت في الكَون تَفَكُّراً كلّما زِدْت بالله تعالى مَعْرِفَة بأسمائِه وصِفاته الفضلى، أما إذا زَلَّتْ قَدَمُك وسَلَّطْتَ عَقْلَك على معْرِفَة ذات الله، فَهُنا المشكلة، ومِن هنا أخطأ المعتَزِلة، وزلَّتْ أقْدامهم؛ حينما جَعَلوا عَقْلَهم حَكَماً على الغَيْبِيَّات، فَكَّروا في ذات الله بهذا العَقْل المَحدود، وأرادوا به أنْ يسْتَوْعِبوا هذا الخالِق القديم، فَلِذلك هنا المُنْزَلَق؛ موضوع عِلْمُ الله عز وجل، فالإنسان بِمُحاكَمَة ساذِجَة يقول لك: الله تعالى لا يعْلَم، ولو عَلِمَ لكانَ ظالِماً إذاً هو لا يعْلَم؛ أرَدْنا أنْ نُبَرِّئَهُ من الظُّلْم فأوْقَعْناهُ في الجَهْل، والله تعالى ما كَلَّفَكَ أن تُدافِع عنه بهذه الطريقة، فالله عز وجل قال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة التغابن: 11]

وسَنَرى بعد قليل تَفاصيل هذه الآية.

الزَّمَن مِن خَلْق الله والله عزَّ وجل مُحيط بالخَلْق :

لكن؛ سبحان الله! هناك باب واسع يُمْكِن أن يرْقى بِكَ إلى أعلى عِلِيِّين، فلو تأمَّلْتَ حِكْمَة الخالِق فيما خَلَق لرأيتَ عِلْماً ما بعْدَهُ عِلْم، فأنا لا أريد أن أُبْعِدَكم عن موضوع حسَّاسٍ جداً؛ ولكني أضرب مثلاً، لو رَكِبْتَ سيَّارةً حديثة سَتَكْتَشِف أنَّ وراء هذه السيَّارة عقولاً لِمُهَنْدِسين، وخُبَراء، وأذْكِياء، وكُلّ شيء في المَرْكَبَة يدُلّ على أنّ الذي صَمَّمَها وقفَ أمام مُشْكلة، وحَلَّها، فالإنسان ينزل بِمُنْزَلَق مُنْحَدِر جداً، فَيَضَعُ رِجْلَهُ على المِكْبَح سهواً، فيُمْكِن لِهذا المِكْبَح أن يحْتَرِق، إلا أنَّ المِكْبح الحديث فيه بَخَّاخ يحوي هواء بارداً، معنى ذلك أنّ الإنسان حلَّ مشكلة، لأنّك تضْطرّ إلى اسْتِعْمال المِكبح بصورة مسْتَمِرَّة، وأحْياناً يتَعَطَّل شريط مهمّ في السيَّارة، أما الآن فهناك شريط مزْدَوج، إذا انْقطَعَ الأوَّل بقِيَ الثاني ساري المَفْعول، كلَّما أمْعَنْتَ النَّظر في السيارة تجد أنَّ الذي صَمَّمَها على دِرايَة، وعلى عِلْمٍ شديد، ولو فَكَّرْنا

في عِلْم الله تعالى بهذه الطريقة، ودَقَّقنا في خَلْق الله تعالى، وفي النبات، والحيوان، والإنسان، وفي عِلْم الأجِنَّة، وفي الكَوْن، لَوَجَدْنا في عِلْم الله تعالى الشيء الذي لا يُصَدَّق! ألَيْس هذا الموضوع أجْدى وأوْلى مِن أن نقول يَعْلَم أو لا يعْلَم، وهل الزَّمَن يُحيط بالله عز وجل؟ أم أنَّ الله عز وجل مُحيطٌ بالزَّمَن؟ الزَّمَن مِن خَلْق الله، فَنَحن كَبَشَر مَحْدودون، نقول: اليوم السَّبت، وغداً الأحد، ونقول: هناك شَهْر كذا وكذا، ونقول في عام ألْفَيْن! فنحن لأنَّنا ضِمْنَ الزَّمَن نقول هكذا، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلَقَ الزَّمَن وهو من بعض خلقه، والعلماء قالوا: إنَّ الأجسام المادِيَّة لها طول، وعرْض، وارْتِفاع، وهي الأبعاد الثلاثة، أما إذا تَحَرَّكَت أصبحَ هناك بُعْدٌ رابع هو الزَّمَن، فالزَّمَن هو البُعْد الرابع، وحَرَكَة الأفلاك هي سبب تَشَكُّل الزَّمَن، فالزَّمَن بُعْدٌ مِن أبعاد الخَلْق، والله عزَّ وجل مُحيط بالخَلْق، حتَّى إنَّ هناك أشياء كما تعلمون كشَفَها أينشتاين، نحن أجْسام عاكِسَة للضَّوء، فَكَيْف أنّ المُذيع أمام الكاميرا تَظْهر صورته على الشَّاشَة؟ يُسَلَّط عليه عشْرة آلاف شَمْعة من الكهرباء القَوِيَّة، ويُصْبِحُ جَسَدُه عاكِساً للضَّوء، وتخْرُج منه مَوْجات ضَوْئِيَّة، فَنَحن عندَنا مَنْبَع ضَوْئي وعاكِس ضَوْئي؛ فهذا المِصْباح مَنْبَع ضَوْئي، وهذا الكتاب مثلاً عاكِس ضَوْئي، فالمَنْبَع الضَّوئي والعاكِس الضَّوْئي يُصْدِران أمْواجاً ضَوْئِيَّة، وهي تسير بِسُرْعَة ثلاثمئة وستِّين ألف كيلومتر في الثانِيَة! يقول أينشتاين: لو قُدِّرَ لإنْسانٍ أن يمْشي بِسُرْعَة الضَّوْء لما بَقِيَ هناك زَمَن!

عَيْنُ العِلْم بالله تعالى هي عَيْن الجَهْل به وعيْن الجهل به هي عين العِلْم به :

لو فرضْنا أنَّهُ لا يوجد سَقْف، وكانت هناك إضاءة، ونحن أجسام عاكِسَة تَصْدر عنها أمواج ضَوْئِيَّة نحو الفضاء الخارجي سرعتها ثلاثمئة وستُّون ألف كيلومتر بالثانِيَة، فلو ركِب إنسانٌ مَرْكَبَةً وسار مع هذه الأمواج، ماذا يحْدُث؟ يرى هذه الجَلْسَة إلى أبَدِ الآبدين، معنى ذلك أنَّ الزَّمَن تَوَقَّف، ويكون أخواننا كَبِروا، وجاءهم الأولاد، وأصبحوا دعاة، وأصْبَحوا أجداداً، وأخونا الذي يمْشي مع الضَّوْء يرى هذا المنظَر هو هُوَ! أما لو سَبَق الضَّوء لتراجَعَ الزَّمَن، والآن هناك دِراسات تقول: إنَّهُ يُمْكِن أن نرى معْرَكَة اليَرْموك! فلو أنَّ معركة مضى عليها مثلاً ألف سنة، فلو سَبَقْنا أمواج الضوء، واسْتَطَعْنا أن نُسَجِّل هذه الأمواج، فلو كان لنا جهاز يعْكس هذه الأشياء لرأيْناه، لذا كلّ شيءٍ يعمله الإنسان مُسَجَّل عليه، فأصْبح لدينا أنَّنا إن سبَقْنا الزَّمَن فإنَّه يتراجَع، أو إن نَسْبِقَ الضَّوء يَتَوَقَّف الزَّمَن، وإن نُقَصِّرَ عنه تَراخَى الزَّمن! فَمِنَ السَّذاجَة وضيق الأُفُق أن نَجْعَلَ الزَّمَن مُحيطاً بالله عز وجل، وأن تقول: الله لا يعلم ما سيَكون! هذا الكلام بالنِّسْبة لنا، أما بالنِّسْبة لله تعالى فلا حقيقة له؛ لا يعلم ما سيَكون! إنَّما قوله لشيء إذا أراده: كُن فيَكون، والزَّمَن بعض خَلْقِه، فالذي أُريد أن أصِل إليه أنَّهُ لا ينبغي أبَداً أن نُسَلِّط عُقولنا

على موضوعات إخْباريَّة أخْبَرَنا الله بها؛ هذه بدايَة موضوعنا، فإذا دَعَوْتَ إلى الله فإيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تَخُوض في موضوعات ذات الله عز وجل مُسْتَعيناً بعَقْلِك، إذْ العَقْل هنا لا يُجْدي، ويجب أن تعرف حُدودك، فالعاقِل هو مَن يعرف أين يقِف؟ ومتى ينبغي أن يقِفَ؟ لذلك عَيْنُ العِلم بالله تعالى هي عَيْن الجَهْل به، وعيْن الجهل به هي عين العِلم به، وكلمة لا أعلم في ذات الله تعالى هي قِمَّةُ العِلم، فلو قال لك أحد: كم متراً بين البحر الفلاني والبحر الفلاني؟ فلو أجَبْتَهُ لكان هذا عَيْنَ الجَهْل، والعَجْز عن الإدراك إدراك، وهو كلام سيِّدنا الصِّدِّيق، فلِذلك أيها الأخوة، أنت تبقى في أعلى درجات العِلم، والوَقار، والهَيْبَة، والمكانة إذا قلتَ عن موضوع مُتَعَلِّقٍ بذات الله تعالى: لا أعلم! أما أن تَجْعَلَ مِن عَقْلِكَ أداةً تحكم به على كلّ شيء، ولو كان مُتَعَلِّقاً بذات الله وأسْمائِهِ وصِفاتِه، فهذا تطاوُلٌ وتَألٍّ على الله تعالى، ما أنزل الله به من سلطان.

عِلْمُ الله تعالى لازمٌ :

قوله: خلقَ الخَلقَ بعِلمِه، أي أوْجَدَ، وأبْدع، وأنشأ، ويأتي خلقَ بِمَعنى قدَّرَ، والخَلْقُ مَصْدر، وهو هنا بِمَعنى المَخْلوق، خلقَ يخْلِق خلقاً؛ وبالمناسبَة ما هو المَصْدر؟ المَصْدر ما دلّ على حُدوث عَمَل؛ عَمَلِيَّة التَّمْزيق اسمُها شَقَّ يشُقّ شَقاً، فالشَّق هو المَصْدر، فَحُدوث العَمَل مُجَرَّداً عن الزَّمن هو المَصْدر، والاسم شيء: فهو ما دَلَّ على إنسان، أو حيوان، أو نبات، أو جماد، أو أيّ شيء آخر، والفِعْل: ما دلّ على حُدوث عَمَل في زَمَن مُعَيَّن، فالاسم خالٍ من الحركَة، أما المصدر ففيه حركَة، والأمثلة في ذلك كثيرة، وهناك صِنْف رابع، ولكنَّه بسيط؛ صِنْف يدلّ على زَمَن بلا حدوث عَمَل؛ الفِعْل الناقِص، الآن خَلَق يخْلق خلْقاً، عَمَلِيَّة الخَلق بلا زَمَن، لكن أحْيَاناً يتطابق المصْدر مع الاسم، فالخَلْق اسم، وهو نفسه مَصْدر، لذلك (خَلَق) بمعنى أنْشأ، وأبدع، وأوْجدَ، ويأتي (خَلَق) بِمَعنى قدَّر، والخَلق هنا مَصْدر، وهو بِمَعنى المَخْلوق، فتأتي كلمة الخَلق تارَةً مصْدَراً، وأخرى اسْماً، أما قولك: شَقَّ يَشُقّ شَقاً وشِقاً، وفرق بينهما، فالشَّق غير الشِّق، وتوضَّأ وُضوءاً ووَضوءاً، وأفعال كثيرة، فالوَضوء اسم، أما الوُضوء فهو مَصْدر، وكذا الماء الذي يُضاف للحليب اسمها عَمَلِيَّة (غِشّ)، أما فعلُ إضافة الماء للحليب اسمها (غَشّ)، وأن تسْتَيْقِظ لتأكل الطعام في رمضان اسمُها سَحُور، أما الطَّعام الذي أمامك اسمهُ سُحور، فَفَرْقٌ كبير بين الاسم والمَصْدر، فاللُّغة دقيقة جداً.

إذاً الخلْق هنا بمعنى المخلوق، وقوله: بعِلْمِه: في مَحَل نَصْب على الحال، أي خَلَقهم عالِماً بهم، وقد ذَكَرْتُ لكم موضوعاً دقيقاً، وهو حينما يأتي أخٌ مِن أخواننا الكرام لِيُمْسِكَ هذا الكأس، ويَضَعه هنا، وأنا أعرف ماذا يفْعَل فهذا علمٌ، لكِنَّني إذا أمْسَكْتُهُ أنا، ونَقَلْتُه، فهذا فعلٌ لا علم، ومِن وراء الفعل علمٌ، هذا

من باب أوْلى، وهو أبْلَغ، فالفِعْل فِعْلُ الله، فَكَيْف لا يعْلم مَن خلَق؟ ولا يمكن أن يكونَ شيء إلا بالله، وهو الحيّ القَيُّوم، فالحَرَكات، والسَّكنات، وكل شيء في الكون لا يقوم إلا بالله، فالإنسان إذا عَلِمَ فَهُوَ طرَفٌ مُتَفَرِّج، لكنَّ الله تعالى كيف يعْلَم؟ لأنَّه لا يقَعُ شيء إلا بِفِعْلِه، فَعِلْمُ الله تعالى إذاً لازِمٌ، فَمَعنى قول الإمام الطَّحاوي " خَلَق الخلق بعِلْمِه" أي خلقَهُم عالِماً بهم، والدليل القرآني قوله تعالى:

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

[سورة الملك: 14]

الغَيْب لا يعْلَمُهُ أحد إلا الله :

لو أنَّ أحدكم فرشَ بيْتَهُ، واشْترى غرفة النَّوم، وغرفة الضُّيوف، وانتَقى، وبحث في المَحَلاَّت، فهل من المَعقول أن يقول أحَدٌ: هل يعلم ماذا اقْتنى؟! هو الذي اشْترى، وهو الذي نَقَلَ، ورَتَّب. قال تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة الأنعام: 59]

تعرفون جميعاً أنَّ كلمة: وعنده مفاتِحُ الغَيْب، تختَلِف عن قول: ومفاتِح الغَيْب عنده! فالثانِيَة تعني أنَّ مفاتِحَ الغيب عنده وعند غيره، أما الأولى فهيَ حَصْراً له تعالى، لذا إيَّاك أن تتورَّط في حديث عن المستقبل، فإنّ الغَيْب لا يعْلَمُهُ إلا الله، ولا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلَّم يعلمه، فإن عَلِمَ غيْباً فَمِن إعلام الله له، فقد حَدَّثنا النبي عليه الصلاة والسلام عن قِيام السَّاعة، وعلامات آخر الزَّمان، أما أن يعلم الغَيْب لذاته فهذا مُستحيل قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً)

[سورة الجن: 26]

فالله تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة الأنعام: 59]

يعلم دبيب النَّملة السَّمراء على الصَّخرة الصَّماء في الليلة الظَّلماء:

يا من ترى مدَّ البعوض جناحهـا ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويا من ترى نياط عروقها في نحرها ... والمخّ في تلك العظام النُّحَّل

***

فَبَاب العِلْم يُعطيك راحة نَفْسِيَّة، والله عز وجل يعلم السرّ وأخفى.

على الخَلْق أن يُثبتوا ما أثْبَتَهُ الله لِنَفْسِهِ وأن ينفوا ما نفاه وأن يُمْسِكوا عمَّا أمْسَك عنه:

قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة الأنعام: 59]

في الآية ردّ على المعتزلة، لماذا؟ لأنَّهم يقولون: إنَّ الله لا يعْلم، ولا يعْلم الشيء إلا بعد أن يقع! فَعِنْدَئِذٍ ما الفرق بينك وبين الله؟!! فأنتم ترَوْن أنَّني أتَكَلَّم الآن، فأنتم متى علِمْتُم ذلك؟ بعد أن تَكَلَّمْتُ، فإذا كان الله عز وجل لا يعْلم إلا بعد الوُقوع، فما الفرق بيننا وبينه تعالى؟! ليس كمثله شيء سبحانه، وكلّ شيء خطر بِبَالِك فهو تعالى خلاف ذلك.

قال الإمام عبد العزيز المكيّ صاحب الإمام الشافِعيّ رحمهما الله تعالى في كتاب الحَيْدَة، الذي حكى فيه مناظرتَهُ بِشْراً المَريسِيّ عند المأمون، حينما سأله عن عِلْمِهِ تعالى، فقال: بِشْر، أقول: لا يَجْهل تعالى، فَجَعَلَ يُقَرِّر السؤال عن صِفَة العِلْم تقْريراً له، وبِشْرٌ يقول: لا يَجْهَل، وهو لا يعْترف له تعالى بالعِلْم، فقال الإمام عبد العزيز: نَفْيُ الجَهْل لا يكون صِفَة مَدْحٍ فإنَّ قَوْلي: هذه الأسْطوانة لا تَجْهل، وليس صِفَة مَدْحٍ لها، ولقد مَدَح الله تعالى الأنبياء والملائِكَة والمؤمنين بالعِلْم، وليس بِنَفْي الجَهْل، ومن أثْبَتَ العِلْم فقد نفى الجَهْل، ومن نَفى الجَهْل لم يُثبت العِلْم، وعلى الخَلْق أن يُثْبِتوا ما أثْبَتَهُ الله تعالى، وأن يُنْفوا ما نفاه الله تعالى، وأن يُمْسِكوا عمَّا أمْسَك الله عنه تعالى؛ يا الله! ما أجْمل هذا الكلام! ذَكَر لي أخ اليوم بالجامِع: ما اسم أولاد سيِّدنا فلان من الأنبياء؟ فقلْتُ: الله أعلم، ولا ينبغي لي أن أعرفها، فالله تعالى سَكَت عنها، فينبغي لي أن أسْكُتَ عنها، فأنا أضْرب مثلاً دائِماً: الكلام نموذجي عن ذاك الذي يبْحث عن تفاصيل وجُزئِيَّات لم تَرِد في كتاب الله، لأنَّه يريد أن يُفْسِدَ على الله تعالى حكْمته.

الحكمة من عدم ذكر الله تعالى للكثير من تفاصيل القصص :

فأنا أضْرب مثلاً دائِماً: الكلام نموذجي عن ذاك الذي يبْحث عن تفاصيل وجُزئِيَّات لم تَرِد في كتاب الله، لأنَّه يريد أن يُفْسِدَ على الله تعالى حكْمته! لماذا المولى عزَّ وجل في أكثر القِصص ما ذَكَر تفاصيلها؟ وما ذَكَر الأسْماء، والبلاد، كأنْ يقول: في دمياط، أو الإسْكَنْدَرِيَّة، أو في دمشق مثلاً! قال: لأنَّ الله عز وجل ما أراد من هذه القِصص أن تكون تاريخاً، أرادَها أن تكون قانوناً فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى أكْثَر من التَّفاصيل، والأسْماء والأمْكِنَة والأزْمِنَة توَهَّمْنا أنّ هذه قِصَّة وَقَعَت ولم تقع مرَّة ثانِيَة!

أرادها أن تكون نموذجاً بَشَرِيّاً مُتَكَرِّراً، لذلك لا تسأل عن تفاصيل القِصص فإنَّك إنْ فَعَلْتَ هذا أفْسَدْتَ على الله تعالى حِكْمَتَهُ، فإنَّ الله تعالى أراد من تلك القِصص أن تكون نموذَجِيَّة لا تاريخِيَّة، ولذلك فالمولى عز وجل كثيراً ما يقول:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 88]

وقال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة القصص: 14]

وقال تعالى:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأنبياء: 87]

الله تعالى قلب هذه المعاني إلى قانون، لذا على الخَلْق أن يُثْبتوا ما أثْبَتَهُ الله عز وجل لِنَفْسِه، وأن ينفوا ما نفاه، وأن يُمْسِكوا عمَّا أمْسَكَ عنه.

الدليل العقلي على عِلْمِه تعالى :

هذا كله بالنسبة للدليل النَّقلي، أما العقلي فسأضْرِبُ لكم مثلاً صارخاً؛ مَرْكَبَة فضائِيَّة اسْتطاعَت أن تتخلَّص من جاذِبِيَّة الأرض، هذا يعني أنَّ سرعتها فائقة وخيالية، أخواننا الرِّياضِيِّون يعلمون كيف تتفلَّت المركبة من جاذِبِيَّة الأرض، فالطائرة العادِيَّة لا يمكن أن تخرق الغِلاف الجَوِّي فالأرض تجْذِبُها، أما مركبَة الفضاء التي تذهب للقَمَر فهذه انْدَفَعَت بِسُرْعَة، ولا أذْكر الآن بالضَّبْط التفاصيل إلا أنّ الأمْر على أساس الوَقود السائل؛ أكسجين سائل يشْتَعِل فجْأةً فَتَنْدَفِع المركبة انْدِفاعاً مُذْهِلاً، ولا بدّ من سرعة حتَّى تتغَلَّب هذه المركبة على جاذِبِيَّتِها للأرض، فأنت لم تَلْتَق إطْلاقاً بِأُناسٍ صَمَّموا هذه المرْكَبَة إلا أنَّهُ ثبتَ لَدَيْك أنَّ هناك مرْكبة انْطَلَقت من قاعِدَة إطْلاق الصَّواريخ بِأمْريكا، وسارَت باتِّجاه القَمَر، وتحتاج إلى ثلاثة أيَّام، هذا يعني أنَّ الذي وَجَّهها نحو القَمَر، أو إلى ما بعد القَمَر هذا يعني أنّه درَسَ سرعة الاتجاه نحو القمر، ودرس السرعة التي تتفلَّت المركبة من الجاذِبِيَّة، وأثناء السَّير صار هناك تصحيح مسار، وهناك اتِّصال بين الأرض والمركبَة لا سِلْكي، ووصَلَت هذه المركبة إلى القَمَر، ومَشَت عليه، وتَجَوَّل الرُّواد عليه، فهل تَحْكم وأنت لم تَرَهم ولم تر خِبْراتِهم، هل تحكم بِعِلْمِهم أم بِجَهلهم؟ فأن تركب طائرة تَسَع لأربعمئة راكب، عقلك لا يستوعب أن تسع هؤلاء الركاب! تراها وكأنَّها مدينة، ويُقَدَّم لك

الطعام والشراب، وتجلس بمقاعِد مُريحة، وعلى ارْتِفاع أربعين ألف قَدَم؛ شيء غريب، فهل تَحْكم على مَن صَمَّم هذه الطائِرَة بالعِلْم أم بالجَهْل؟ هذا دليل عَقْلي فالذي صَمَّمها لم ترهُ، لكن ألا تحْكم له بالعِلْم وأنت تصعد الطائرة، وهناك بخار ماء، والحرارة فوق كَم؟ وقائد الطائرة قال لنا: الحرارة خمسون تحت الصِّفر! لذا بخار ماء وجليد يعني تجمّد الجهاز، وعلى هذا فهناك أجْهزة تَسْخين في الطائرة، فإذا رأى انخفاض الحرارة خمس درجات يسخِّن الأجهزة كلّها، الأمر الثاني؛ هل يُعْقَل على ارْتِفاع خمسين ألف قَدَم أنْ يتنفَّس الإنسان، المفروض أنْ يخرج الدَّم مِن رِجْلَيْه ويخْتَنِق! لكنَّ الطائرة مَضْغوطة ثمانِيَة الأمْثال هواءً، حتى يتوافق الضَّغط على ارْتِفاع أربعين ألف قَدَم مع الضَّغط الذي على الأرض، ولو تَعَطَّل جهاز الضَّغط على الطائِرَة لوَجَب أن تَهْبط اضْطِرارِيّاً، وقد جَلَسْتُ مرَّةً مع طيَّار، فذَكَر لي أشياء لا تُصَدَّق؛ فالآن هناك بعض الطائرات تنزل بفعلٍ أوتوماتيكيٍّ، فهي تَصعد، وتَنزل على الرادار! فالقَصْد من كلامي أنَّ الذي صَمَّم هذه الطائرة ما رأيْتَهُ، وما رأيْتَ شهاداته، أفلا تَحْكم عليه بأنَّه عالِم يقيناً! أفلا تقول: إنّ وراء هذه المهارات أدْمِغَة؟ قرأتُ كتاباً مُتَرْجَماً عن الطُّيور، إلا أنَّه لفَتَ نظري فيه أوّل عبارة وهي: إنَّ أعْظَمَ طائِرَةٍ صنَعَها الإنسان تبْدو تافِهَةً أمام الطائِر، فالطائر يطير سبْع عشرة ساعَة من دون تَوَقُّف! ويرى ثمانية أمْثال الإنسان، يا ربّ لماذا خَصَصْتَ هذا الطائر بالبَصَر الحادّ؟ لأنَّه يلْزَمُه كي يأكل حين ينزل من السَّماء إلى الأرض، وربما لا يجد، ثمّ يُعيد الكرَّة فلا يَجِد مثلاً لكن لمَّا أوْدع الله تعالى فيه قُوَّة الإبْصار، فهذه تَجْعَلُه يرى الأكل من بعيد؛ هذه هي الحِكْمة! وله غِشاء شَفّاف مُقاوِم للهواء حينما يطير بِسُرعة هائِلَة، وما دام الطائر في حركة دائِمَة فهل تُصَدِّقون أنّ الهواء الذي يسْتَنشِقُه الطائِر يسْري إلى جِسْمِه كُلِّه، فالهواء المُسْتَنْشَق يجري في قصبات هوائِيَّة تَصل لِجَميع الجسَد، وذلك من أجْل تَبْريد العَضَلات، والله أيها الأخوة، لو قرأتُم عن الطُّيور لَوَجَدْتُم شيئاً لا يُصَدَّق، وإنَّ الطائرة لتبْدو تافِهَة أمام هذا الطائِر، لذا عندما ترى طائرةً على متنها أربعمئة راكِب مثل المدينة، فَخالِقُ الطُّيور أبْدعَ أموراً وأشياء لا تُقاسُ بأيّ اخْتِراع.

الاتجاه إلى معْرِفة عِلْم الله من خِلال التَّفَكُّر فيه لا مِن خِلال تَسْليط العَقْل على ذاته :

الدليل العَقْلي على عِلْمِه تعالى أنَّه يسْتحيل إيجادُه الأشياء مع الجَهْل! يسْتحيل أن يُصنَّعُ دواء فعَّال جدّاً من قِبَلِ رجلٍ جاهِل! ولأنَّ إيجادهُ الأشياءَ بإرادَتِه، والإرادة تَسْتَلْزِمُ تَصَوُّر المُراد، وتَصَوُّر المُراد هو العِلْم بالمُراد، فكأنَّ الإيجاد مُسْتَلْزِماً للإرادة، والإرادة مُسْتَلْزِمَة للعِلْم، فأصْبَحَ الإيجاد مُسْتَلْزِمٌ للعِلْم، والعقل يقول هذا.

هناك عالِم ألماني قال: هل تؤمن أنّ انْفِجاراً حصل بِمَطبعة فَصَدَر منه قاموس: لاروس، (LAROUSSE)! واللهِ، فالذي يؤمن أنّ هذا الكَوْن جاء بالصُّدْفة كمَن يؤمن أنّ هذه الكتب الآن جاءَت عن طريق انْفِجار مَطْبَعَة، فالفِكْرَة أنّ الوُجود يَقْتَضي العِلْم، وأنا بِحُكم تجوالي زرْت بعض بلاد الخليج، فهناك جُسور فيها منَبِّهات أجراس، إن زادَت الحُمولة على الوزن المُقرَّر فإنَّ رنيناً يُنَبِّهُك! هذا فِكْرٌ صَمَّم هذه التَّرْتيبات، فالإنسان إذا فَكَّر وجَدَ وراء هذا التَّصْميم عَقْلاً وعلماً.

قلتُ لكم مرَّةً: أحْياناً الإنسان لا تكون له علاقة بالموضوع، ولكن تكون لك حاجَة عَقْلِيَّة، فأنا كنت ألاحظ شاحنات فيها صهاريج؛ فيها وقود الطائرات، ووقودُ الطائرة يشْتعل بالحرارة، ففي أيَّام الصَّيْف الحارَّة هناك حوادِث اشْتِعال صهاريج الوقود، فأنت تَجِد سيَّارة تمْشي ووراءها قطعة حديد تضرب الأرض، فما هي؟ ولماذا؟ مِن أجل امْتِصاص الشحنات السَّاكنة، فالعَقْل البشري له مَبْدأ السَّبَبِيَّة، والغائِيَّة، وعدم التناقض، هذه مبادئ العَقْل وهي وَفْق مبادئ الكَوْن.

ولأنَّ الفِعْلَ المُحْكَم المُتْقَن يَمْتَنِعُ صُدوره عن غير العالِم، ولأنَّ مِن المَخْلوقات ما هو عالِمٌ، ولأنّ العِلْمَ صِفَةُ كمالٍ، ويَمْتَنِعُ ألاّ يكون الخالِق عالِماً، وهذا له طريقان، فهذا دليل عَقْلي، فَكُلّ شيءٍ مُتْقَن يَحْتاج إلى عِلْم، الطريق الأول: ما يُقال: نحن نعلم بالضرورة أنَّ الخالِق أعلم من المخلوق، وأنَّ الواجبَ ـ وهو الله ـ أكْمَل من المَخْلوق، ونَعْلَم ضَرورَةً أنَّنا لو فَرَضْنا شيئَين؛ أحدهما عالِم، والآخر غير عالِم كان العالِم هو الأكْمَل، فلو لم يكن الخالق عالِماً للَزِمَ أن يكون المُمْكِن أكْمل منه وهذا مُمْتَنِع. والطريق الثاني أن يُقال: كلُّ عِلْمٍ في المُمْكِنات التي هي المَخلوقات فهو منه، ومِن المُمْتَنِع أن يكون فاعِلُ الكمال ومُبْدِعُهُ عارياً منه، بل هو أحَقُّ به، والله تعالى له المَثَل الأعلى، فلا يَسْتوي هو والمَخلوقات، لا في قياس تمثيل، ولا في قياس شُمول، بل كل ما ثَبَتَ في مَخلوق من كمال فالخالِقُ به أحَقّ، وكل نَقْصٍ تنزَّه عنه مَخلوق ما فَتَنْزيهُ الخالِق عنه أوْلى.

درسنا اليوم هذه الفقْرة؛ خَلَقَ المخلوقات بِعِلْمِه، وأنا أرجو الله عز وجل أن تتَّجِهوا إلى معْرِفة عِلْم الله من خِلال التَّفَكُّر فيه لا مِن خِلال تَسْليط العَقْل على ذاته، ولتقولوا: الله يعْلم، فإنَّ هذا الموضوع لا يَعْنينا، والله تعالى أثْبَتَ العِلْم المُطلق لِذاته فقال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة التغابن: 11]

وطريق معرفة هذا العلم مخْلوقاته، وما سوى ذلك انْحِراف.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الخَلْق شيء والتَّقْدير شيءٌ آخر :

أيها الأخوة المؤمنون، لازلنا في العقيدة الطحاويَّة، وقد وَصلَنا إلى قول الإمام الطَّحاوي رحمه الله تعالى: "خَلَقَ الخَلقَ بعلمه"، وهذا كان موضوعَ الدَّرْس الماضي، وقدَّر لهم أقداراً، قال تعالى:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)

[سورة الفرقان: 2]

فأنت ممكن أن تنشئ غرْفَة، فلو أرَدْتَها أن تكون مرآباً لِسَيَّارَةٍ فلها مواصفات غير بناء الغرفة، وهي أن تكون متناسبة مع المركبة، فلو أنَّها أضيَق من عرْض المركَبَة، فهذه غير مُقَدَّرة تقْديراً، وكذلك لو أنَّ سَقْفَها منخفض، ولو أنَّك إن دَخَلْتَ إليها لم تتمكَّن مِن فَتْح الباب لِتَخْرُج فهي غُرْفَة بُنِيَت بناءً صحيحاً إلا أنَّ تقْديرها سيِّئٌ، فالتَّقْدير شيءٌ يخْتَلِف عن الخَلْق.

فالإنسان خلقهُ الله، فلو أراد أن يُنَظِّفَ نفسَه فإنّ يَدُهُ تَصِل لِكُلِّ أنْحاء جسْمِه، فلو أنَّها كانت قصيرة لَما كان هناك حَلٌّ لِهذا، ولو أنَّ الله تعالى ما خلق هذا المَفْصَل لما أمْكَنَ إلا أنْ يأكل كما تأكل الهرَّة؛ ينْبَطِحُ، ويلْتَقِط الطَّعام بِفَمِهِ! من الصَّحْن مُباشرةً، كيف تَصِلُ اللُّقْمة إلى الفَم، فالخَلق شيء، والتَّقْدير شيءٌ آخر.

كُلّ شيء مخلوق بِقَدَر :

"خَلَقَ الخَلْقَ بعِلْمِهِ، وقَدَّرَ لهم أقْدَراً"، وهذا المعنى مُسْتفاد من قوله تعالى:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)

[سورة الأعلى: 1-2]

فَسَوَّى أي: ناسَب، فالأشْجار لو أنَّها شامِخَة، ومَلْساء، وارتفاعها ثلاثون متراً لاسْتَحال أن نقْطِفَ ثِمارَها، لكنّ ارْتِفاعُ الأشْجار مَعْقول، ولو أنَّها مع الأرض لكانت غير مَعْقولة فكُلّ شيء مخلوق بِقَدَر، قال تعالى:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)

[سورة الفرقان: 2]

وقال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

هل تُصَدِّق لو أنَّ القُدْرة على الرؤْيَة تضاعَفَت لما أمْكنك أن تشْربَ هذا الكأس من الماء! هذا الماء الصافي العَذْب الزُّلال فيه ملايين البكْتيرْيا، فلو أنَّ الله سبحانه وتعالى وسَّعَ القُدْرة على الرؤْية لرأيْتَ الكائِنات الحَيَّة، ولما أمْكنك شرب الماء، فالسَّمْع له عَتَبَة، والبصر له عَتَبَة، وأحْياناً الإنسان إذا أكَلَ شيئاً حامِضاً وشيئاً مالِحاً شعرَ بالحُرْقة، ولو أنَّ الله عز وجل رفَعَ حساسيَّة الأعصاب لغَدَتْ حياتنا جحيماً، قال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

[سورة القمر: 49]

أكبر دليل على وُجود الله دليل التَّرْجيح :

قال تعالى:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً)

[سورة الأحزاب: 38]

في صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

لذلك يُعَدُّ أكبر دليل على وُجود الله دليل التَّرْجيح، وأوْضَحُ مثلٍ، أن تفتَح مفتاح الكهرباء، أليس بإمكان الكهربائي أن يضع المفتاح على ارْتِفاع كبير؟! بلى، ولكن هذا غير حكيم، أو في مكان مختفٍ! إلا أنَّ هذا المفتاح في كلّ البيوت تجدهُ معْتَدِل الارتفاع، وهذا سَمَّاهُ العلماء دليل التَّرْجيح، ولا ترْجيح بلا مُرَجِّح، وكل شيء فيه حِكْمة، أيْ أنَّ وراءهُ عقْلاً حكيماً جعله في هذا المكان، وهذا أحَدُ أكبر الأدِلَّة التي تُؤَيِّد أو تُؤَكِّد وُجود الله عز وجل، ولك أن تستنبط مِن خلْق الإنسان ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصى؛ عَتَبة البصر، وعَتَبة السَّمْع، والشمّ، والرؤية، والإحساس، فكُلّ شيء خلقَهُ الله بِقَدَر دقيق.

"وضربَ لهم آجالاً"؛ أي أنَّ الله تعالى قدَّر آجالَ الخلائق، حيث إذا جاء أجَلُهم لا يستأخرون ساعةَ ولا يسْتَقْدِمون.

أصْل التَّرْتيب :

بيَّنْتُ لكم في دَرْسٍ سابق أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

[سورة الشورى: 14]

هذه الآية أيها الأخوة، لو تأمَّلنا فيها لذابَتْ نُفوسُنا حُبّاً لله عز وجل، ففي الآية تَقْديم وتأخير؛ قال تعالى:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

[سورة الشورى: 14]

هذا أصْل التَّرْتيب، (ولولا) كما تعلمون حرْف امْتِناعٍ لِوُجود؛ لولا المطر لَهَلَك الزَّرْع، فامْتَنَع هلاك الزَّرْع لِوُجود المطر، وامْتَنَع قَصْم العباد العُصاة بِكَلِمَةٍ سبَقَتْ من ربِّك ولأجلٍ مُسَمًّى؛ لِسَبَبَيْن: امْتَنَع قَصْم العباد الفجار العُصاة بِكَلِمَةٍ سبَقَتْ من ربِّك ولأجلٍ مُسَمًّى، وهناك سؤال يطْرحه بعض الناس؛ فهذا الفاجر، والظالم، والعاق للوالِدَين، والذي يؤذي من حوله، وهذا الكافر، صِحَّتُهُ جيِّدة، ومالُهُ كثير، والناس يخافونَهُ، فأين الله؟ لماذا لا يقْصِمُهُ؟ هذا سؤال يَرِدُ كثيراً؟ والجواب هو الآية قال تعالى:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

[سورة الشورى: 14]

الحكمة من تأخير عقاب ربنا لبعض العصاة :

ما دام هذا الإنسان قد مُدَّ له في الأجل؛ إذاً هناك أَمَلٌ في هِدايَتِهِ، والدليل قال تعالى:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود: 36]

عندما يعلم ربُّنا عز وجل أنَّ هذا الإنسان لن يؤمِن يَقْصِمُهُ، وما دام الإنسان يعيش ومُدَّ له في أجَلِهِ، معنى ذلك أنَّهُ أُعْطي فُرْصَةً لِيَتوب، وعندي ألف قِصَّة حول هذا الموضوع، فهناك مَن يرْتَكِب أكبر

الكبائر، يا ربّ لماذا لم تَقْصِمْهُ؟ ثمَّ تُفاجأ أنَّه تاب إلى الله! معنى ذلك أنّ عِلْمَ الله لِصالِحِك؛ عَلِمَ فيك الخَيْر فأعْطاك فُرْصَةَ لِتَتُوب، وهذا شيءٌ دقيق جداً، قال تعالى:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

[سورة الشورى: 14]

الله سبحانه وتعالى رحْمته سَبَقَت غَضَبَهُ :

ما هذه الكلمة؟ أنَّ رحْمة الله سَبَقَتْ غَضَبَهُ، ليس القَصْد أن يُعَذِّبَهم، ولا أن يَقْصِمَهم، ولا أن يُقيمَ عليهم الحُدود؛ لا، ولكن القَصْد أنْ يَرْحَمَهم، فالأب الرَّحيم يَغُضُّ بصَرَهُ عن تِسْعَة أخْطاء، ويُحاسِب على العاشِرَة، ولأنّ الله سبحانه وتعالى رحْمته سَبَقَت غَضَبَهُ؛ قال تعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

[سورة طه: 129]

عِقابُهُم وَقَصْمُهم، ولكان لِزاماً إهْلاكهم، قال:

(إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

[سورة الشورى: 14]

أوْضَح مَثَلٍ: طالبٌ لا يُمكِنُ أن ينْجَح، فهَل يمكن أن يرقن اسمُه في العام الدِّراسي؟ لا، إلى أن يأتي الامْتِحان، وهذا الامْتِحان هو أجَلٌ ضُرِبَ له، وبعد الامْتِحان يرْسُب، ولكن قبْله لا يَرْسُب، وهذا حتَّى لا يكون للإنسان حُجَّة على الله؛ يا ربّ لو مَدَّدْتَ لي عُمْري لتُبْتُ، قال تعالى:

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

[سورة فاطر: 37]

الله عز وجل بيَّن أنّه لا يهْلِك إلا هالِكاً :

الله عز وجل بيَّن أنّه لا يَهْلِك إلا هالِكاً، قال تعالى:

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 42]

قال تعالى:

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

[سورة هود: 38]

فالله تعالى قصَمَهُم، والله تعالى يقول:

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يونس: 89]

وهذا بعد أربعين سنة حتَّى أجاب الله الدَّعوة، فالإنسان نفسُه قصير النظر، ويُريد بعد ساعات معْدودة أنْ تُحسَمُ المسألة! ولكنَّ الله عز وجل يُمْهل ولا يُهْمِل، قال تعالى:

(وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ)

[سورة الإسراء، 99]

أي أنَّ الله سبحانه وتعالى قدَّر آجال الخلائق حَيْث إذا جاء أجَلُهم لا يسْتأخِرون ساعَةً ولا يسْتَقْدِمون، إلا أنَّ هناك ملاحظة؛ ولأنّ الله عز وجل حِكْمَتُهُ مُطْلَقة فالإنسان لو كُشفَ له يَوْمَ القِيامة عن حِكْمَة الأجل الذي عاشَهُ سَيَقُول: الحمد لله ربِّ العالمين، فالأجَل الذي عاشَهُ الإنسان يجْعله يَحْتار، فالشافعي عاش رحمه الله أقلّ مِن خمسين سنة، وابن القَيِّم عاش سِتِّين سنة، والنَّوَوي عاش أربعين سنة؛ فهذا الأخير ترك آثاراً لا يَعْلَمُها إلا الله: الأذكار، ورياض الصالحين، وابن القَيِّم ترك آثاراً لا يُصَدِّق الإنسان الجُهْد الذي بُذِل في هذه الكتب، فَمِن أجل ذلك لو كُشِفَ لك الغِطاء يوم القِيامة عن حِكْمَة الأجل الذي عِشْتَهُ، فأنا لا أشُكّ إلا أن تقول ويقول كلُّ إنسان: الحمد لله رب العالمين! فَكُلُّ ما يقوله الإنسان مِن كلام أنّ فلاناً مات في ريعان شبابه فهذا مِن جَهْلِنا، وحِكْمَةُ الله مُطْلَقة ولا يعْرِفُها إلا الله، وأنا أسْتَسْلِمُ وأقول: الأجَلَ الذي كتَبَهُ الله لي هو أنْسَبُ أجَلٍ، ويُؤَكِّدُ هذا دُعاء النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، فعَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ: صَلَّى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ بِالْقَوْمِ صَلَاةً أَخَفَّهَا فَكَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ فِيهَا بِدُعَاءٍ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهِ:

((اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْراً لِي))

[النسائي عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ]

واللَّهم اقبضنا إليك غير فاتنين ولا مَفتونين، لأنَّ الفتنة أشَدُّ من القَتْل فهذه البِنْتُ التي وُئِدَت هي إلى الجنَّة، أما الأب الذي أفْسَد ابنَتَهُ، وأطْلَقَ لها العِنان، وجَعَلَها مع الرِّجال تخْتَلِط، وانْطَلَقَتْ سافِرَةً فاجِرَةً، تَعْرِضُ مفاتِنَها على الناس، فهذا ما قتَلها بيده، ولكنَّهُ قتَلها بضلاله إلى أبَدِ الآبدين.

الحكمة من ذكر الزِّنا في سورة الإسراء بين النهي عن قَتْلَيْن :

أيُّها الأخوة، قد تَعْجَب لماذا جاء ذكرُ الزِّنا في سورة الإسراء بين النهي عن قَتْلَيْن! قال تعالى في الأولى:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)

[سورة الإسراء، 31]

الثانية:

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً)

[سورة الإسراء، 33]

فبين هاتين الآيتين جاءت آية الزنا، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء، 32]

فما الحكمة من مجيء آية الزنا بين النهي عن قتْلَيْن؟! لأنَّ الزنا قتْلٌ ثالث! فإذا فسَدَتْ أخلاق الإنسان وافتتنوا، والفتنَة أشَدُّ من القتْل، لأنَّك إذا قتَلْتَ الإنسان فقد بَعَثْتَهُ إلى الجنَّة، أما إذا فَتَنْتَهُ فأنت تبْعث به إلى النار!

الذي يُنْهي حياة الإنسان هو انتهاءُ الأجَل :

قال تعالى:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[سورة الأعراف: 34]

كلمة الحق لا تقْطَعُ رزْقَاً ولا تُقَرِّبُ أجَلاً، سألني أحَدُ الأخوة: مادام الأجَل مَحْدوداً، فَلِمَ العِنايَة بالصِحَّة؟ فقُلْتُ له: العِنايَة بالصِحَّة مِن أجل حالتَيْن: إما أن تعيش ثلاثين سنة وأنت مريضٌ على الفراش، وإمَّا أن تعيشَها وأنت صحيحٌ! أما الأجَل فهُوَ هُوَ! فالمَرَضُ لا يُنْهي حياة الإنسان، إنَّما الذي يُنْهي حياة الإنسان هو انتهاءُ الأجَل، فكَم مِن سقيمٍ عاشَ حيناً من الدَّهْر، لذلك أحدهم دعا على آخر فقال: اللَّهمّ أصِبْهُ بسَرَطان في دَمِه، وشَلَلٍ في يَدِه، حتَّى يتمنَّى الموت فلا يَجِدُهُ، وقد حكى لي أخٌ عن والِدَتِه؛ فهي ملقاةٌ دائماً على سرير، ومُرَبوطة اليَدَيْن، فلولا هذا الرَّبْط لأكَلَت غائِطَها، ولمَزَّقَتْ ثِيابَها!! فعلى الإنسان إذا ذهَب لأداء فريضة الحجِّ أو العُمْرة أن يطْلبَ أن يكون أجَلَهُ على سنَّة النبي عليه الصَّلاة والسلام، ثلاثة أيَّام فقط، وودَّعَ أهله صلى الله عليه وسلَّم، أما أن يبقى أمَداً طويلاً كي يموت، فَأقْرَبُ الناس إليه يتمَنَّى مَوْتَهُ، فاطْلُبوا من الله السَّلامَة. قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

[سورة آل عمران: 145]

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ،أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

وهذا مِن أدَقِّ الأحاديث.

عقيدة أهل السنَّة والجماعة أن المَقْتول يموتُ بأَجَلِه :

يعْتَقِدُ أهل السنَّة والجماعة أنّ الميِّت مَقتول بأجَلِه، وثمة عقيدة خطيرة، وهي أنّ له أجَلاً، ولكنَّ القاتِل عدَّل له أجلهُ! هذه عقيدة فاسِدَة، فاحذَر الزللَ، فالمَقصود أنّه مَيِّتٌ بأجَلِهِ، فَعَلِمَ الله تعالى، وقدَّر، وقضى أنَّ هذا سيموتُ بِسَبب المَرض، وهذا بِسَبب القتْل، وهذا بِسَبب الهَدْم، وهذا بالحَرْق، وهذا بالغَرَق إلى غير ذلك من الأسباب، والله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة، وخلق سبَبَ الموت والحياة؛ هذه عقيدة أهل السنَّة والجماعة المَقْتول يموتُ بأجَلِه.

عند المعتزلة، المَقْتول مَقْطوعٌ عليه أجَلُه، ولو لم يُقْتَل لَعاشَ إلى أجَلِه، معنى ذلك أنَّ الكافر سبق الله عز وجل، فهو تعالى قدَّر له أجَلاً! كلامٌ مُضْحِك، فالله تعالى قدَّر أجَلاً، وجاء القاتِل فَحَسَمَ هذا الأجَل قبل أوانِهِ! والإنسان يقول لأهل المَيِّت: عَظَّمَ الله أجْرَكم، وأنا أُفَضِّل في كلّ المناسبات أن نلْتَزِمَ أقوال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

وعند المعتزلة، المَقْتول مَقْطوعٌ عليه أجَلُه، ولو لم يُقْتَل لعاشَ إلى أجَلِه، فكان له أجلان، وهذا باطِل؛ لأنَّهُ لا يليق أن يُنْسَبَ إلى الله تعالى أن يكون جعَلَ له أجَلاً يعْلَمُ أنَّه لا يعيش له البتَّة، فإذا قلْتَ: لا يعْلم؛ معنى ذلك أنَّ الله تعالى جعل له أجَلاً غير حقيقيّ، يعْلم أنَّه سيُقْتَل، وجعل له أجَلاً بعيداً، أو يجْعل أجَلَهُ أحَدَ الأمْرَين، كَفِعْل الجاهل بالعواقِب، وهذا عذْر أقبَح من ذنب، ووُجوب القصاص والضَّمان على القاتِل لارْتِكابِهِ المَنهيّ عنه، وكأنَّ الله تعالى رَسَم خُطَّة والقاتِل أفْسَدَها عليه!!! وعلى هذا يُخَرَّج قوله صلى الله عليه وسلَّم: صِلَةُ الرَّحِمُ تزيد في العُمْر، أي هي سبب طول العُمْر، فهناك توجيه لطيف جداً: العُمْر لا يزْداد زَمَناً، ولكن غِنًى بالعَمَل الصالِح؛ فأنت في مَحلّ تِجاري مثلاً، هل يَهُمُّكَ كم ساعَةً فَتَحْتَ، أم كم وَجَدْتَ في الدُّرْج من الربح؟! فقيمة الأجَل بِمُحْتَواه من عَمَلٍ صالِح؛ هذه هي قيمَتُه! لذلك الأحاديث التي تَدْعو بطول العُمُر تُوَجَّه هذا التَّوْجيه، أي أن يَغْتَنِمَ هذا العُمر بالأعمال الصالِحَة.

قيمة الأجَل تقدَّر بمُحْتواه من عَمَلٍ صالِح :

النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن من المُعَمِّرين في العمر كزَمَن: ثلاث وستُّون سنة عاشَها صلى الله عليه وسلَّم، ووصَلَ هُداه إلى الصِّين، وإلى فرنسا، والآن بأمريكا، وقال لي أخٌ كان في وَاشِنْطُن: عِشْتُ هناك أمَداً، والآن فيها سبْعة مساجِد، وفي باريس احْتَفَلوا بإنشاء المسجِد رقم ألف! ويُعَدُّ الإسلام الدِّين الثاني في البلاد، ولذلك أقْسَمَ الله تعالى بِعُمْر النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

وأنت إذا كان عمرك ثميناً؛ من طلبِ عِلمٍ، إلى عملٍ صالِحٍ، إلى عملٍ، وإلى خِدْمةٍ، ولإصْلاح بين الناس، وإيناس الزَّوْجة والأولاد؛ فاجْعَل عمرك غَنِيّاً بالعمل الصالِح، لأنَّك لن تنْدم على الدنيا بِشَيءٍ إلا على ما فاتك منها من العمل الصالِح، وربُّنا عز وجل قال:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة المؤمنون: 100]

وهنا تَوْجيهٌ آخَرَ لطيف؛ قال: يُخَرَّج قوله صلى الله عليه وسلَّم: صِلةُ الرَّحِم تزيد في العمر؛ أي هي سبب طول العمر، وقد قدَّر الله تعالى أنَّ هذا يَصِلُ رَحِمَهُ فيَعيشُ بهذا السَّبب إلى هذه الغايَة، ولولا ذلك السَّبب لم يَصِل إلى تلك الغايَة، ولكن قدَّر هذا السَّبب وقضاه، وكذلك قدَّر أنَّ هذا يقْطعُ رَحِمَهُ فيَعيشُ إلى كذا، كما قلنا في القَتْل وعَدَمِه. أنا أميل إلى التَّفْسير الأوَّل؛ أنَّ الزِّيادة في العُمُر تعني أنَّه يغْتني بالأعمال الصالِحَة.

الدُّعاء والاتِّصال بالله والتَّوْبَةُ والنَّدَم وتَطهير النَّفْس تردُّ القدَرَ :

إنْ قيل: يَلْزَم مِن صِلَة الرَّحِم تأخيرٌ في زيادة العُمر ونقْصانِه، وتأثير الدعاء في ذلك أم لا؟ الجواب: إنَّ ذلك غير لازم! لقوله صلى الله عليه وسلَّم لأمِّ حبيبة رضي الله عنها: قد سألْتِ الله بآجالٍ مَضْروبَة.. الحديث كما تقدَّم فعُلِمَ أنَّ الأعْمار مُقَدَّرة، ولم يُشرع الدعاء بِتَغْييرها بِخِلاف النَّجاة من عذاب الآخرة، فإنَّ الدعاء مَشْروع له، نافعٌ فيه، ألا ترى أنّ الدعاء في تَغْيير العُمر لمَّا تضَمَّنَ النَّفْع الأخْروي شُرِعَ كما في الدعاء الذي رواه النَّسائي من حديث قَيْس بْن عُبَادٍ قالَ: صَلَّى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ بِالْقَوْمِ صَلَاةً أَخَفَّهَا فَكَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَمَا إِنِّي دَعَوْتُ فِيهَا بِدُعَاءٍ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهِ:

((اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْراً لِي))

[النسائي عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ]

ويؤيِّد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِخَطِيئَةٍ يَعْمَلُهَا))

[رواه ابن ماجه عن ثَوْبَانَ]

والله هذا الكلام خطير، فالذي يَعْصي تَجِدُ الرِّزْق مُضيَّقٌ عليه! مَحَلّ تِجاري يستقبل النِّساء ويُدير معهُنَّ أحاديث لا تُرْضي الله، تجد الرِّبح فيه منعدم، والمَحَلّ التِّجاري الذي فيه تَقْوى وغضّ بصر، تجد هذا المحَلّ مرْزوق؛ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ))

[أحمد عَنْ ثَوْبَانَ]

ما معنى ذلك؟ الإنسان غافل، والله قدَّر له مصيبَة تمْسك به، فهذا العبْد تَوَجَّهَ إلى الله بالدُّعاء، والْتَفَتَ إليه، فالدُّعاء، والاتِّصال بالله، والتَّوْبَةُ، والنَّدَم، وتَطْهير النَّفْس ترُدُّ القَدَر:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ))

[أحمد عَنْ ثَوْبَانَ]

الصدَقَة اسْتِرْضاء لله عز وجل :

في الحديث ردٌّ على مَن يظنُّ أنَّ النَّذْر سبَبٌ في دَفْع البَلاء، وحُصول النَّعْماء، وقد ثَبَت في الصَّحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلَّم أنَّه نهى عن النَّذْر، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئاً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ))

[الصَّحيحين عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

وفي رواية النسائي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ))

[النسائي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

وأنا والله أيها الأخوة أرْجو الله سبحانه وتعالى لكم ما نذرْتُ شيئاً في حَياتي وإنَّما كلَّما أشْعُر بضيق أدْفَعُ صدَقَة من دون أن أشْتَرط على الله، فإذا كنت في خوف، أو في رهْبة واضْطراب اِدْفَعْ صَدَقَةً اسْتِرْضاءً لله عز وجل:

((بادروا بالصَّدقة فإنَّ البلاء لا يتخطَّاها.))

[رواه رزين عن علي رضي الله عنه وهو ضعيف]

وقد لفتَ نظري أحد الأخوة، وقال لي: أرى أنْ تكون الصَّدقة بعد الفجر، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: بادروا بالصَّدقة أو باكروا، وعندنا يدْفع أحد الأخوة صَدَقَتَهُ بعد الصُّبْح، يخرج من المسجد فيشتري عدداً كبيراً من الخبز، ويُوَزِّعُه على الفقراء، وأحْياناً يبعث بصندوق مملوء بجميع الحاجيَّات لكل فقير! والصَّدَقَة تقَعُ في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير! وهناك حديث ثالث: صَدَقَة السرّ تُطفئُ غضبَ الربّ، وصَدِّقوني أيُّها الأخوة، إنَّ أهْوَنَ شيءٍ عليكم اسْتِرْضاءُ الله عز وجل؛ صَدَقَة بِعَمَلٍ صالِحٍ وكلمة طيِّبَة، والإنسان كلَّما وقع بِذَنْبٍ فلْيُحْدِث صدقَةً، فقد كان الإمام أبو حنيفة يدْفَعُ ديناراً ذَهَبِيَّة لِكلّ يَمينٍ يقْسِمُ بها، وهو صادِقٌ بها، وذلك كي لا يُعَوِّد نفْسَه القَسَم، قال تعالى:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة:89]

نحن ليس عندنا النَّذْر، إنما عندنا الاسْتِرْضاء، وعندنا صَدَقَة نسْترضي بها الله عز وجل. وقد ثَبَتَ في الصَّحيحين عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئاً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ))

وفي رواية النسائي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ))

شروط الدعاء :

اعلَم أنَّ الدعاء يكون نافعاً ومشروعاً في بعض الأشياء دون بعض وكذلك هو، ولِهذا لا يُحِبُّ الله المُعْتَدين في الدُّعاء، وبالمناسبة:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة الأعراف: 55]

فإن لم تَكُنْ مُتَضَرِّعاً فقد اعْتَدَيْتَ وتجاوزْتَ شروط الدُّعاء، الدّعاء مع كِبْر وفصاحة، وبيان، وسجْع، وصوت دون تواضُع!! لا، الدُّعاء يحْتاج إلى هَمْس، وتذَلُّل، وخُضوع؛ مَن دعا الله مُتَجَبِّراً ومُتَكَبِّراً فقد اعْتدى على شرْط الدُّعاء، وكذا إذا رفَعَ صَوْتَهُ؟ إنَّكم لا تُخاطبون أصَمَّ ولا غائباً، قال تعالى:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً*قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

[سورة مريم:3-4]

فالله لا يحب من يعتدي على شروط الدعاء بالكِبْر، أو رَفْع الصَّوْت، وهناك معنى ثالث رائع جداً، وهو: يا عبادي إن اعْتَدَيْتُم على بعضِكم بعْضاً فأنا لا أُحِبُّكم، وبالتالي لن أسْتجيب لكم، فأنت إذا قلتَ: يا ربّ، هل يعْني هذا أنَّك مُستقيم وأنت آكِلٌ للمال ومُعْتَدٍ ومُغْتاب، وتقول: يا رب، لا ربَّ لنا سواك.

رفعُ الصَّوْت عُدْوانٌ في الدُّعاء :

هناك حديث يَقْصِم الظَّهْر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والله أيها الأخ الكريم، وأنت تُواجِه مشْكلة أو خطراً؛ الشَّفَتان لا تتحَرَّكان، وإنَّما بالقلب فقط تناجي ربَّك، يا ربّ أعِنِّي، ووفِّقني، وأطْلِقْ لِساني، وآتِني حُجَّة، وألْهِمْني الصَّواب، كُلُّ هذا وأنت ساكت، وهكذا قال تعالى:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً* قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

[سورة مريم:3-4]

أما رفْعُ الصَّوْت فهذا عُدْوانٌ في الدُّعاء.

المَحْوَ والإثْبات من الصّحف التي في أيْدي الملائكة :

أما قوله تعالى:

(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[سورة فاطر: 11]

فقد قيل في الضَّمير المَذْكور في قوله تعالى: مِنْ عُمُرِهِ، إنَّه بِمَنْزِلَةِ قولِهم: عندي درْهَم ونِصْفُه، أي ونِصْفُ دِرْهَمٍ آخر، فَيَكون المعنى: وما ينقص من عمُر مُعَمَّر آخر.

وقيل الزِّيادة والنُّقْصان في الصُّحف التي في أيْدي الملائكة، وحُمِلَ قوله تعالى:

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ* يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

[سورة الرعد: 38-39]

على أنَّ المَحْوَ والإثبات من الصَّحف التي في أيْدي الملائكة، وأنّ قوله: وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ؛ اللَّوْحُ المَحْفوظ، ويدُلُّ على هذا الوَجْه سِياقُ الآيَة، وهو قوله:

(لِكُلِّ أجَلٍ كِتَابٌ)

ثمَّ قال:

(يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)

من ذلك الكتاب،

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ)

أي أصلُه، وهو اللَّوْحُ المحْفوظ، أي يمْكن أن نفْهَم فيه مبادئ ثابتة، وسُنَناً وقوانين، أما التَّفاصيل فإنّ الله: يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، فلو طرَحْنا سؤالاً هل الرِّزق مَقْسوم؟ قال تعالى:

(وَأنْ لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقَاً)

[سورة الجن:16]

إذا عالَجَ الله عز وجل إنساناً بضيق الرِّزق، إذاً فقدْ قدَّر عليه ضيق الرِّزْق، ثم إنّ هذا الإنسان اسْتَقام، وتاب فالله تعالى هنا بدَّلَ، وهذا هو معنى قول الله تعالى:

(لِكُلِّ أجَلٍ كِتَابٌ*يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

[سورة الرعد: 38-39]

القوانين والسُّنَن التي سنَّها الله عزّ وجل ثابتة :

أما الذي لا يتَبَدَّل فهي القوانين والسُّنَن التي سنَّها الله عزّ وجل، فهذه ثابتة قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أنَّهُمْ لا يُؤْمِنُون)

[سورة يونس: 33]

هذه في اللَّوْح المحْفوظ، لذلك فمن باب التَّشْبيه فالدُّستور لدى الدول فيه مبادئ تُفَسَّر بقوانين، والقوانين بمَراسيم، ويُمكن وَضْع تَعْديلات بالمرْسوم، أما القوانين والمبادئ الكبرى فثابتة. لك عند الله تعالى رِزْق أما كَمِّيَّتُهُ تتبَدَّل، والآيات في ذلك كثيرة، قال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أنْهَاراً)

[سورة نوح: 10-12]

وصِلَةُ الرَّحِم تزيد في الرِّزْق؛ هذا اثنان، وكذا الاستِغفار والاستِقامة، قال تعالى:

(وَأنْ لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقَاً)

[سورة الجن:16]

الله عز وجل في سبع آيات وأحاديث أشار إلى أنَّ الرِّزْق يزيد بالاستِقامة، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف: 96]

وكذا بصلة الرَّحم، والصَّدَقة، والاستِغفار، وإقامة أحْكام الدِّين.

موضوع الجَبْر :

موضوع الجَبْر موضوعٌ خطير، وهي أنَّه لا شيء ينتهي، ولا شيء جديد إطْلاقاً، فمادام الكَسْب مَفتوحاً، والاخْتِيار مَفتوحاً أيَنْتهي الكسب؟ فالله تعالى علمُهُ علم كَشْف وليس علمَ جَبْر، فهل يجوز لك والحالة هذه أن تُعَطِّل أمْر الله؟ قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

هذه الآية أصْلٌ في نَفْي الجبْر؛ فلعَلَّك ظنَنْتَ قضاءً لازماً وقدَراً حاكِماً، إذاً لانْتفى الوَعْدُ والوعيد، ولسَقَط الثواب والعِقاب، إنَّ الله أمَرَ عِبادَهُ تَخْييراً ونهاهُم تَحْذيراً، وكلَّفَ يسيراً ولم يُكَلِّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعْص مَغْلوباً ولم يُطَعْ مُكْرَهاً؛ ماذا تقول في هذا الكلام؟ لو أنَّ الله تعالى أجْبَر العباد على الطاعة لسَقَط الثَّواب، ولو أجْبَرَهُم على المَعْصِيَة لسَقَط العِقاب، ولو تَرَكَهُم همَلاً لكان عَجْزاً في القُدْرة، فأنت لو ألْغَيْتَ الاخْتِيار والكَسْب المَفْتوح لألْغَيْتَ الدِّين؛ الثَّواب والعِقاب والأمانة والتَّكليف والجنَّة والنار، ولم يبْقَ شيءٌ.

أنت مُتَمَتِّع بالاختيار، وهذا الاختيار لن تمْلكه إلى الأبد، والفعْل فِعْلُ الله، وتتعلَّق مشيئة الله بتَحقيق اخْتِيارك، وأنت مُسَيَّر بتَحقيق مشيئتِك واخْتِيارك.

الرِّزق يزيد وينقص بحَسب عمل الإنسان :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ))

[مسلم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

أليْسَ هذا دليلاً على تقْدير الرِّزق؟ هذا صحيح، فالرِّزْق مُقدَّر للإنسان، وقد يسْتحِقّ العِقاب التأديبي بِقِلَّةِ الرِّزْق، ولو أنَّهُ تاب إلى الله لقدَّر الله له رِزْقاً آخر، وهذا الأمْر أشار إليه سيِّدُنا عمر لما رعى غَنَمَهُ في أرْضٍ مُعْشِبَةٍ، ولمَّا دخل على بلاد الشام وكان فيها الطاعون، بعضهم أشار إليه ألاّ يدْخُل، فقال هذا الخليفة الراشِد: لو أنَّ هناك أرْضَيْن؛ إحداهما مُعْشِبَة، والأخرى مُجْدبة، أليس لو كانت لك غَنَمٌ ورعَيْتَها في أرْضٍ معشبة لرعَيْتَها بِقَدَر الله؟ وإن رَعَيْتَها في الأرض المجدبَة لَرعَيْتَها بِقَدَر الله؟ فكَيف نفِرُّ من قضاء الله إلى قضاء الله، وأن ترْعى في أرْضٍ معْشِبَة وَفْق القوانين أفضل من أن ترْعى في أرض مجْدبة! فَكُلُّه بِقضاء الله، ولكن أنت لك اخْتِيار، وما دام هذا الفم مَفْتوحاً فله رزْق من الله عز وجل، وهذا الرِّزق يزيد وينقص بِحَسب عمل الإنسان.

أريد أن أُعَقِّب على المناقشة التي جَرَتْ بهذه الخُلاصة؛ هناك قاعدة في عِلْم الأصول تقول: إنَّ الآيات المتشابهة مهما كَثُرَت تُحْمَلُ على الآيات المُحْكَمَة مهما قلَّتْ؛ دَقِّقوا فلو قلتَ: إنَّ القَمْح مادَّة خطيرة! ماذا تعني كلمة خطيرة؟ أنَّهُ أساسي في حياة الإنسان أو شيء يتفَجَّر، فكَلِمَة خطيرة كلمة احْتِماليَّة، ومُتشابِهَة، ثمَّ بعد قليل قُلْتَ: القَمْح مادَّة أساسِيَّة في حياة الإنسان؛ فماذا نَفْهَم من كلمة خطيرة؟ نَحْمِلُها على كلمة (أساسِيَّة)، إذاً الآيات المتشابهة مهما كَثُرَت تُحْمَلُ على الآيات المُحْكَمَة مهما قلَّتْ.

آيات من الذكر الحكيم في نَفْي الجَبْر :

آيَةٌ واحدة محكمة تُفَسِّرُ في ضوئها مئة آية متشابهة، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

هل هناك أوْضَح من هذه الآية في نَفْي الجَبْر؟! وقال تعالى:

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة فصلت: 17]

وقال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

وقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة البقرة: 148]

الآيات التي توحي بالجَبْر ظاهرها يوحي بذلك أما فحْواها فهو لا يعني الجَبر :

أما الآيات التي توحي بالجَبْر، فظاهرها يوحي بذلك، أما فحْواها فهو لا يعني الجَبر، قال تعالى:

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام: 12]

وقال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة: 51]

وهذا كلام المؤمنين، ما دُمْنَا مع الله تعالى وقد آمَنَّا به فلن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا من خير، وهذه أوْضَح آية بالجبر، قوله تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة السجدة: 13]

أي يا عبادي إذا ظَنَنْتُم أنَّكم مَجْبورون على المعْصِيَة فأنتم واهِمون لأنَّني لو أرَدْتُ أن أُجْبرَكم على شيءٍ ما لما أجْبَرْتُكم إلا على الخير، ولو شئنا أن نُجْبرَكم لآتَيْنا كلّ نفْسٍ هداها ولكنَّ أفعالكم التي تَفْعَلونها هي مَحْضُ اخْتِيارِكم، لذلك ستُعاقَبون عليها، برَبِّكم لو أنَّ إنساناً أجْبرناه على فِعْل شيءٍ هل يلوم نفسَهُ على هذا الفِعْل إذا كُنَّا نحن الذين أجْبَرْناه؟ ماذا يعْني النَّدَم؟ مُجَرَّدُ النَّدَم في القرآن تعني نَفْي الجبْر، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان: 27]

وقوله تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر: 24]

وآيات كثيرة، فلو أنَّ الإنسان مُجْبَرٌ لما نَدِمَ! وكذا مُجَرَّد الأمْر والنَّهي في القرآن دليل على أنَّ الإنسان مُخَيَّرٌ، فالاخْتِيار شيء ثابت في عقيدة المسلِم، والفئَة الجَبْرِيَّة فِئَةٌ خَرَجَت عن مسار عقيدة أهل السنَّة والجماعة، ونحن نعلن أنّ علم الله عِلم كَشْفٍ، وليس عِلمَ جَبْرٍ، وما دُمْتَ لا تَعلم ماذا يعْلَمُ الله، فهذا ليس حجَّةً إطْلاقاً.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من ظنّ بالله ظن السوء ما عرفه :

أيها الأخوة المؤمنون، قبل أن نُنْهيَ موضوع الإلهيَّات في كتاب العقيدة الطَّحاوِيَّة، أُريد أنْ أقرأ لكم فقراتٍ للإمام الجليل ابن القيِّم حول معرفة الله، وحُسْن الظنّ به.

يقول هذا العالم الجليل:

((مَن ظنَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى لا ينْصُرُ رُسَلَهُ ولا يُتِمُّ أمْرَهُ، ولا يُؤَيِّدُ جُنْدَهُ، ولا يُعْليهم، ولا يُظْفِرُهم على أعدائِهم، وأنَّهُ لا ينْصُرُ دينهُ، ولا كتابَهُ، وأنَّهُ يُديل الشِّرْك على التَّوحيد، والباطل على الحق إدالَةً مُسْتَحِقَّةً يَضْمَحِلُّ معها التَّوْحيد والحق اضْمِحْلالاً فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء، ونسَبَهُ إلى خِلاف ما يليقُ به وكمالِه وجلاله وصِفاته ونُعوته، فإنَّ عِزَّتَهُ وحِكْمَتَهُ تأبى ذلك، ويأبى أن يُذِلَّ حِزْبَهُ وجنْدَهُ، ويأبى أن تكون النُّصرْة المُسْتَقِرَّة، والظَّفْر الدائِمَ لأعْدائِهِ المشركين، فمَن ظنَّ به ذلك فما عرَفَه، ولا عرف أسْماءَهُ، ولا عرفَ رُبوبيَّتهُ وأسماءَهُ، وكذلك مَن أنْكَرَ أن يكون قد قدَّر ما قدَّرَهُ من ذلك لِغَيْر حِكْمَةٍ بالِغة، وغايَةٍ مَحْمودَة يسْتَحِقُّ الحَمْد عليها، وأنَّ ذلك إنَّما نشأ عن مشيئَةٍ مُجَرَّدة عن حكْمةٍ وغايَةٍ مطلوبة))

فالله تعالى ما يفعله هو عن حِكْمَةٍ بالِغَةٍ، ورحْمَةٍ بالِغَةٍ، وعَدْلٍ بالِغٍ بَالِغٍ.

وأكثر الناس يَظُنُّون بالله غير الحقّ، ظنَّ السَّوْء، فمَن ظنَّ بالله ذلك فما عرَفَهُ، ولا عرف أسْماءَهُ، وصِفاته، ولا عرف موجِبَ حَمْدِهِ، وحِكْمَته، فمَن قنَطَ من رحمة الله، ويأسَ من روحِهِ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء، ومن جوَّز عليه أن يُعَذِّب أوْلياءَهُ مع إحْسانِهم وإخْلاصِهم، ويُسَوِّي بينهم وبين أعْدائِهِ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء، ومن ظنَّ أنَّ الله جل جلاله يخْلق خلْقهُ سُدىً مُعَطَّلين من الأمْر والنَّهْي، ولا يُرْسِلُ، ولا يُنْزِلُ عليهم كتبهُ بل يتْرُكهم هَمَلاً كالأنعام فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء، ومن ظنَّ أنّ الله جلَّ جلاله لن يجْمَعَ عبيده بعد موتِهم للثَّواب، والعِقاب في دارٍ يُجازى فيها المُحْسِنُ بإحْسانِه، والمسيء بإساءَتِه، ويُبَيِّن لِخَلْقِهِ حقيقة ما اخْتَلَفوا فيه، ويُظْهِرُ للعالمين كلّهم صِدْقهُ وصِدْق رُسلِه، وأنّ أعْداءَهُ كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوْء.

علينا أن نتفكر في مخلوقاته سبحانه لا أن نتفكر فيه فنهلك :

من ظنَّ أنَّ الله تعالى يُضَيِّعُ على عبْده عملهُ الصالِح الذي عَمِلَهُ خالِصاً لِوَجْهِهِ الكريم على امْتِثال أمْرِهِ، ويُبْطِلُهُ عليهم بلا سبب من العَبْد، وأنَّهُ يُعاقِبُه بما لا صنيع له؛ لأنَّهُ قدَّر عليه ذلك قبل أن يُخْلَق، ولا اخْتِيار له، ولا قُدرة، ولا إرادة في حُصوله، بل يُعاقِبُه على فعْلِهِ هو سبحانه، أو ظنَّ أنَّهُ يُجَوِّزُ عليه أن يُؤَيِّد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجِزات التي يُؤَيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجْريها على أيْديهم يُذِلُّون بها عباده، الآن دَقِّقوا، ومن ظنَّ أنَّهُ يَحْسُنُ منه كل شيء حتى تعذيب من أفْنى عمره في طاعته؛ فَيُخَلِّدُهُ في الجحيم أسْفَل سافِلين، ويُنَعِّمُ من اسْتَنْفَذَ عمره في عداوته وعداوة رسلهِ وأنبيائِه فيَرْفَعُهُ إلى أعلى عِلِيِّين، فهذا الإله العظيم يضع مَن أمْضى كلّ حياتِه، وكلّ عمره في طاعة الله، وخدْمة عباده، والإيمان برُسُلِه، والدَّعوة إليه، ومع ذلك يَضَعُهُ في جهَنَّم أسفل سافلين،، ويُنَعِّمُ من اسْتَنْفَذَ عمره في عداوته وعداوة رسلهِ وأنبيائِه فيَرْفَعُهُ إلى أعلى عِلِيِّين!! كل شيء يَصْدُر عنه يَحْسُن، وكِلا الأمْرَين؛ أن يَضَعَ أولْياءه في النار، وأعْداءَهُ في الجنَّة، في الحُسْن سواء عنده، ولا يُعْرفُ امْتِناع أحدهما ووُقوع الآخر إلا بالخَبَر الصادِق؛ أي لو ثبت بالخبر الصادِق وَضع المؤمنين في جهنَّم، والمذنِبين في الجنَّة كان هذا الكلام صحيحاً، وإلا فالعَقْل لا يقضي بِقُبْح أحدهما، وحُسْن الآخر، فالعقل ليس مقْياساً صحيحاً، ومَن ظنَّ به أنَّهُ أخبَر عن نفْسِهِ وصِفاتِه بما ظاهرهُ باطل، وتشْبيهاً وتمْثيلاً،، وترك الحق لم يُخْبِر به، فأصبح المعنى أنَّ الله تعالى يُضَلِّلُ عباده!! لكنَّ الله تعالى كلامُهُ الصِّدْق، وإذا قال لك: أنت مُخَيَّر يعني أنَّكَ مُخَيَّر، فلا تُحاوِل أن تدْخُل في شؤون الله الذاتِيَّة، فالنبي عليه الصَّلاة والسَّلام نهاكَ عن ذلك؛ تَفَكَّروا في مخلوقات الله ولا تفَكَّروا فيه فتَهْلَكوا.

ومن ظنَّ به أنَّهُ أخْبر عن نفسِه، وصِفاتِه، وأفعالِه بما ظاهرُهُ باطِل وتشْبيهاً وتمْثيلاً، وترك الحق، ولم يُخْبِر به، وإنَّما رمَزَ به رُموز البعيد، وأشار إليه إشارات مُلْغِزَة؛ ولم يُصَرِّح به، وصَرَّح دائِماً بالتَّشبيه والتَّمثيل الباطل، وأراد من خلْقِهِ أن يُتْعِبوا أذْهانهم، وقِواهُم، وأفْكارهم في تَحْريف كلامِه عن مواضِعِه، وتأويلِه على غير تأويله، ويتطَلَّبُ له وُجوه الاحْتِمالات المُسْتَكْرَهَة، والتأويلات التي هي بالألْغاز والأحاجي أشبَه، وأحاله في معرفة صفاتِه وأسْمائِه على عُقولِهم وآرائِهم لا على كتابه، بل أراد منهم ألاّ يَحْمِلوا كلامهم على ما يعْرفونه من خِطابهم.

أكبر حُجَّة يقولها بعض الناس عَدْلُهُ غير عَدْلِنَا، لأنَّهُ لو وَضَعَ هذا الإنسان الطائع في النار فهذا ليس ظلماً لأنَّنا في مُلْكِهِ.

المؤمن يُحْسِنُ الظنَّ بالله تعالى :

دَقِّقوا؛ وأحاله في معرفة صفاتِه وأسْمائِه على عُقولِهم وآرائِهم لا على كتابه، بل أراد منهم ألاّ يَحْمِلوا كلامهم على ما يعْرِفونه من خِطابِهم ولُغاتِهم، والله عز وجل قال بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبين، معنى ذلك أنَّ كلامَ الله عز وجل يُفْهَم وَفْقَ كلام اللُّغَة العربِيَّة، وَوِفْقَ أساليب العَرَبِيَّة في التَّعْبير؛ وهل مِنَ المَعقول أن يُخاطِبَ الناسَ بلُغَتِهِم، وبِلِسانٍ عرَبِيٍّ مُبين، ويريد منَّا غير الذي حكاه؟! هذا لا يليق بالله عز وجل، فالله تعالى خلقك لِيَرْحَمَك، فهو كذلك، وليس لِيُعَذِّبَك، وإن قال لك: أنت مُخَيَّر، فأنت كذلك، وإن قال لك: أنا أعلم، فهُوَ تعالى حقيقةً يعْلَم، فأنا أريد أن نكْتَفي بما قالهُ الإله الكريم في كتابه، وأنا لا أتمنَّى على الله إلا كتاباً في العقيدة لا ينطلق إلا من القرآن والحديث فقط، أما عِلْمُ الكلام إن دخَلَ في العقيدة يجْعَلُها ألْغازاً، وأحاجيّ.

تُكْمِلُ؛ قال: بل أراد منهم ألاّ يَحْمِلوا كلامهم على ما يعْرِفونه من خِطابِهم، ولُغَتِهم، مع قُدْرَتِه على أن يُصَرِّح لهم بالحقّ الذي ينبغي التَّصْريح به، ويُريحُهم من الألفاظ التي توقِعُهم في اعْتِقاد باطل، بل سلك بهم خِلاف طريق الهُدى والبيان، ومن ظنَّ ذلك فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء؛ فَكُلُّ هذا الكلام على قوله تعالى:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة آل عمران: 154]

وتَوْضيحاً لهذه الحقيقة أقول: أنتم تسْكُنون في الشام، ولو أنّ أحدكم ذهَبَ إلى أمْريكا، واشْتَرى كتاب جغرافيا مِن أرْقى مُسْتوى، وأكبر دار نَشْر نشَرَتْهُ، مِن ألف ومئتي صفْحة، تأليف مجموعة من الخبراء، فَتَح على الشَّرْق الأوْسَط، فإذا دمشق تحت بيروت على الساحِل؛ أيُّهُما أصْدَقُ عنده، دِمَشْق في الداخِل، أم أن يرى دمشق على الساحِل؟ فالمؤمن شُعوراً بِكَمال الله عز وجل أقوى مِن أيِّة مناقَشَةٍ عِلْمِيَّة، فَلِذلك المؤمن يُحْسِنُ الظنَّ بالله تعالى.

فإن ظنَّ قائل أنَّهُ غير قادِرٍ على التَّعْبير عن الحق باللَّفْظ الصَّريح الذي عبَّرَ به هو وسَلَفُه فقد ظنَّ بِقُدْرَتِهِ العَجْز، فإذا لا يَقْدِرُ الله تعالى أن يُعَبِّر تعبيراً واضِحاً يُريحُنا من هذه الخِلافات، معنى ذلك أنَّ الله عاجز عن الكلام، وإن قال: إنَّهُ قادِر ولم يُبَيِّن، وإنَّه عدَلَ عن البيان، وعن تَصْريح الحق، وأنَّهُ يوهِم خِلاف ما قال فقد ظنَّ بِحِكْمَتِه ورحْمَتِه ظنَّ السَّوْء، فهو إمَّا أن يظنّ بقُدْرَتِه عن التعبير ظنَّ السَّوء، وإما أن يظنّ برَحْمَتِه وقُدْرَتِه ظنَّ السَّوْء.

كمالُ الخَلْق يدُلّ على كمال التَّصرُّف :

بالجُمْلَة من ظنَّ به خِلاف ما وَصَفَ به نفْسَهُ فقد خاب وخسر؛ فالله عز وجل وصَفَ نفْسَهُ بالعَدْل بالآية، أو عطّل حقائق ما وصَفَ به نفْسَهُ، آية واضِحة بِلِسانٍ عربيٍّ مبين؛ لو قرَأتَها على مليون عربي لقال لك: هذا هو معناها!

ومن ظنَّ أنَّ أحَداً يشْفَعُ عنده من دون إذْنِهِ، أو أنَّ بينه وبين خَلْقِهِ وسائِط يرْفعون حوائِجَهم إليه، أو أنَّ أحَداً نصَر عباده وأوْلِيائَه من دونه، ويتقرَّبون بهم إليه، ويتوَسَّلون بهم إليه، ويَجْعَلونهم وسائط بينه وبينهم فَيَدْعونهم ويخافونهم ويَرْجونهم فقد ظنَّ به أقْبَحَ الظنّ وأسوَأهُ. ومن ظنَّ أنَّهُ يُسَلِّطُ على رُسُلِه أعْداءَهُ تَسْليطاً مُسْتَقِرّاً دائِماً في حياتِه وفي مماتِه، ولا يُفارقونَهُ، فلَمَّا مات اسْتَبَدُّوا بالأمن دون وَصِيَّتِه، و ظلموا أهل بيْتِه، وسَلَبُوهم حُقوقهم، وأذَلُّوهم وكانت العِزَّة والغَلَبة والقهْر لأعْدائِه وأعْدائِهم دائِماً، مِن غير جُرْمٍ ولا ذَنْبٍ لأوْلِيائِهِ وأهل الحق، وهو يرى قَهْرَهم لهم، وغَصْبَهم إياهم حقَّهُم، وتَبْديلهم دين نبيِّهم وهو يَقْدِرُ على نُصْرتهم، وحِزْبُهُ وجُنْدُه فقد ظنَّ بالله ظنَّ السَّوْء.

والذي أريده بهذا الكلام أنَّ هذا الكَوْن ينْطلق بكمال الله ووَحْدانِيَّتِه وينطقُ بوُجوده، وهو الشيء الثابت، وكمالُ الخَلق يدُلّ على كمال التَّصرُّف، ولكنَّ البشر جميعاً لا يسْتطيعون أن يُحيطوا بعِلْمِ الله، ولا أن يَفْهموا ذات الله، فهذا شيء فوق طاقتنا، إلا أنَّهُ يَكْفينا أنْ نفى الله تعالى عن نفْسِهِ الظُّلْم، فهل في هذا إشْكال؟ يَكفينا أنّ الله تعالى بآياتٍ صريحة وغير صريحة أكَّدَ أنَّنا مُخَيَّرون، وأنّ الله تعالى لا يظْلِمُنا ولا النبي عليه الصلاة والسلام يستطيع أن يُحيط بالله تعالى، وأنا أتَمَنَّى من أخواننا أنْ يمسكوا موضوع القضاء والقَدَر؛ والنبي عليه الصلاة والسلام وصّانا وقال:

((إذا ذكر القضاء فأمسِكوا))

[رواه المناوي في الفيض]

أنت معك دليل، وكلُّ هذا الكون ينْطِقُ بكَمال الله وبوَحْدانِيَّتِه ووُجودِه، وهذا المنهج الذي بين أيْدينا مَنْهَجٌ كامِلٌ وموصِلٌ إليه، أما أن ندْخل في ذات الله؛ فكَيف نُوَفِّق بين أنَّه تعالى يعْلم، وبين أنَّ الإنسان مُخَيَّر؟ فهو تعالى يعْلم، قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحجرات: 16]

تَعَلَّق عِلْمُ الله بكُلِّ شيء، وقال تعالى:

(وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

العقل ميزانٌ مَحْدود ولَهُ مُهِمَّات مَحْدودة :

قالوا: أنت مُخَيَّر بمئة آية، ويعلم بألف آية، فأنا حتَّى أجعل مُلَخَّصاً لما جرى في الأسبوع الماضي أقول: الله عز وجل كامِل، ثمَّ أصبحنا أيها الأخوة وكأنَّنا لا نفهم معنى العُبودِيَّة! ما العُبودِيَّة؟ أنت عَبْدٌ ومُهِمَّتُك أن تتحَرَّى أمْرَهُ تعالى وتُطَبِّقَهُ وعندها تنتهي مُهِمَّتُك، والدليل قوله تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزُمَر: 66]

فقد أصبح بعضنا يتطاوَل إلى أن يُناقِشَ الله عز وجل، لِمَ فَعَلْتَ؟ ولِمَ لمْ تَفْعَل؟ ولِمَ تَعْلَم؟ ولِمَ لا تعلَم؟ ليس هذا هو مقام الإنسان! فالعَبْدُ عَبْدٌ والربُّ ربٌّ.

أنا أحْياناً أميل إلى السَّلَف الصالِح من حيث أنَّنا عِباد، وما علينا إلا أن نُطيعَهُ، وانْتَهى الأمْر، وهذا عِلْمٌ عالٍ، فأنت في أعلى درَجات العلم حينما تقول: لا أدْري! والعَجْزُ عن الإدْراك إدْراك، فالذي يدْخُل في متاهات، ويتَّهِمُ الله تعالى في عَدْلِه وعِلْمِهِ ويقول: الله تعالى لا يعْلَم! فهل هذا هو مقامُك؟ أن تنفي عن الله العِلْم مِن أجل أن تُثبت ببَساطة وسذاجَةٍ أنَّهُ عادِل!! ألا يكْفي أنَّه نفى عن نفْسِه الظُّلم في كثير من الآيات؟ عِلْماً أنَّك لن تستطيع أن تُثْبِتَ عدالتَهُ بعَقْلِك إلا في حالةٍ واحِدَة، وهي أن يكون لك عِلْمٌ كَعِلْمِ الله؛ كُلُّ هذا الكون لا يَكْفيك! فأنت لو دَخَلْتَ إلى طبيب، ووجدْتَ على الحائط شَهادة بورد، وهي أكبر شهادة طبّ في العالم! فيُمْكِن لهذا الطبيب أن يُعْطيك دواءً لا ترْضَى به أنت! فلا أعْتَقِدُ أنْ يَشُكَّ المريض بالطبيب العالم والمُخْتَصّ ولو جاءَتْ التَّعْليمات خِلاف المرغوب، أفلا يسْتَحِقُّ الله جلّ جلاله، وهذا الكَوْن الذي خلقَهُ لنا أن نسْتَسْلِمَ له؟ لذا أنْصَحُكم؛ هناك موضوعات عليكم أن تُريحوا أنفسَكم منها، والوَقْت ثمين والمُهِمَّة كبيرة، والجنَّة عرْضُها السَّماوات والأرض، وهي تَحْتاج إلى اسْتِسْلام، فأكبر خطأ نرْتَكِبُه جميعاً هو: هل عَقْلنا قادِرٌ على فَهْم كلِّ شيء؟! لا، عَقْلُكَ ميزانٌ مَحْدود، ولَهُ مُهِمَّات مَحْدودة، فما دُمْتَ تَصرْفُهُ إلى هذه المُهِمَّات فَهُوَ يُعْطيك أرْوَع النَّتائِج، أما حينما تتجاوَزُ المُهِمَّات التي أُنيطَتْ به؛ فربُّما يعْطيك نتائِج غير مُتَوَقَّعة، وتكون بهذا قد حَطَّمْتَ عَقْلَك.

العقيدة يجب أن تكون وفق منهج الله تعالى ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلَّم :

اليوم سَنُكْمِل الإلهيَّات إن شاء الله عز وجل، وبعدها ننتَقِلُ إلى النبوَّات إن شاء الله تعالى.

بالمناسبة أقول حول سؤال ذُكِر: أنَّه لا بدّ علينا أنْ نُعْمِلَ عقولنا، وأن نُفَوِّض في آنٍ واحِدٍ، أنْ نُعْمِلَ

عقلنا فيما قاله الله عز وجل لا في رَدِّهِ، ثمَّ إنَّ كلام الشيخ ابن القيِّم أعُدُّهُ أنا حُجَّة، وهو شيء مُهمّ جداً، فالله تعالى قال:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف: 180]

وقال تعالى:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة الأعراف: 156]

فالحاصل من كلامنا أنَّه لا يمكننا أن نُصَدِّق أن يُعَذَّب إنسانٌ إلى الأبد ولا ذَنْبَ له! وقال العلماء: الجَنَّةُ مَحْضٌ فَضْلٍ، والنار مَحْضُ عَدْلٍ، فَهَل يُعْقل أنَّ إنساناً لا ذَنْب له ولا اختِيار ولا إثم يَخْلُدُ في النار إلى أَبَدِ الآبدين، فَعَدْلُهُ تعالى يُفْهَمُ وَفْق مقاييسِنا، وكلامه يُفْهَمُ وَفْق لُغَتِنا.

فالعقيدة شيء خطير إذا كانت على غير منهج الله تعالى، ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلَّم، وقد ذَكَرْتُ لأحدهم فقُلْتُ: لو أنَّ الإنسان مصاب بضَغْط ثمانية عشر؛ وهذا يعني أنَّه يمكن أن تنتج عنه عواقب وخيمة؛ انفجار شريان بالدِّماغ! يُسَبِّب خَثرة دِماغِيَّة؛ إما شللاً أو فقْدَ ذاكرة، فلو أنّ أحدنا اعتَقِدُ أنّ المِلح ينزِّل الضَّغْط؛ ما هذا الرأي؟ هذا رأيٌ قاتِل، أما لو نوى أن يأكل سُكَّراً فإذا به يأكل الملْح! فهذا خطأ لا يتكَرَّر، أما خطأ أنَّ الملح يُنَزِّل الضَّغْط فهو قاتِل، فأخْشى ما أخْشاه أن يكون في العقيدة خلل، وسوء ظنٍّ بالله، ولا تقلْ: الله يعلم كلّ شيء، وانتهى الأمر، لكنّ العلماء قالوا كلاماً نفيساً، وهو أنَّ عِلْمَ الله تعالى عِلْمُ كَشْفٍ وليس جَبْرٍ، وأنت مُخَيَّر بنَصِّ القرآن الكريم.

القضاء والقدَر كالناظِر في الشَّمْس كلَّما ازْداد تَحْديقاً بها ازْداد عمى :

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة البقرة: 148]

وقال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 148]

فأنت مُخَيَّر بِعَشرات الآيات، والله تعالى يعْلم بِعَشَرات الآيات، وانتهى الأمر، وإلى هنا قِف! لأنَّ القضاء والقدَر كالناظِرِ في الشَّمْس؛ كلّما ازْداد تَحْديقاً بها ازْداد عمًى، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إذا ذكر القضاء فأمسِكوا))

[رواه المناوي في الفيض]

يُمْكِن أن تُفَكِّر في الكَون فتَذوب كالشَّمْعَة تَعْظيماً لله تعالى ولِعِلمِهِ مِن خِلال صَنْعَتِهِ، فهذا باب مُسْتَحْسَن، ومَطْلوب، ومَرْغوب فيه؛ فَكِّرفي مخلوقات الله، أما إنْ فَكَّرْتَ في الله فإنَّك تَهْلَك، وهذا كلام نقوله لكل البَشَر، قال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: 148]

وقال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء:85]

لا يعرف الله إلا الله ولا يعرف رسول الله إلا الله ورسول الله :

لا يعرف الله إلا الله، ولا يعرف رسول الله إلا الله ورسول الله، فنحن نَقِفُ عند حَدِّنا، ورَحِمَ الله عبْداً عرف حَدَّهُ فوَقفَ عنده.

أضرب لكم مثلاً، لو قيل لك: لك عندي قصْرٌ في آخر هذا الطريق! فالأوْلى أن أسير أم أنْ أبقى أُفَكِّر في القصْر؟! عَمَلٌ غير حكيم، ادُّخِرَ سرّ القضاء والقدر إلى يوم القيامة، فالله تعالى ادَّخَر لنا مُفاجأة، والأمر إذا كان واضحاً واضِحاً يصبح لا قيمة له، فنحن ليس بالضرورة أن نعْرِفَ كلّ شيء، فَمَثَلاً مثلَّث بَرْمُودا! لا أعرف كنهه، والله تعالى جعَلَ هذا المثلَّث تَحَدِّيًا للبشر، وليس شرْطاً أن أعرف ظروفه؛ تَمُرُّ طائرة فَتَنْزِل، أو باخرة فتَغوص! ماذا بهذا المثلث؟! هو لغزٌ في العالم، ولا أحَدَ يعرف!!! مثلَّث قبل أمريكا، ومرض الإيدز أليس سرّاً؟ وكذا مرض الرَّشَح أخْطر مرض يتحَدَّى العصْر؛ يقول لك: إن أخَذْتَ الدَّواء أو لم تأخذْهُ فَمُدَّة التخلُّص منه واحِدَة!! لذا لا تظنّ مِن السَّهْل الإحاطة بالله تعالى! وهل يمكن أنْ تعرف نِهايَة الكَوْن؟! دَعْكَ من خالق الكون، وتعال إلى الكون؛ هل هذه المجرات تعرف دقائقها بالتَّفْصيل؟! فالمجَرَّة تمشي بِسُرعة مئتين وأربعين ألف كيلومتر في الثانية، والآن أين هي؟ وإذا كانت المُوَرِّثات؛ خَمْسَة آلاف مليون معلومة مُبَرْمَجَة مَوْضوعة على نُوِيَّة خَلِيَّة، لم يعرفوا الآن إلا ثمانمئة فقط! كرموزومات؛ هذا طويل وذاك قصير، وذاك عُيونه سود، والآخر خضر، وذلك زرق، شَعْر كثيف ومُجَعَّد؛ وهذا عصبي وآخر هادئ، خمْسة آلاف مليون مَعْلومة تُسْهم في تَشْكيل الإنسان.

الشرايين تضيق، وفقْدُ الإنسان لِشَوارد البوتاسيوم يجعله يسقط حينما يقفُ، فإذا تَقدَّم الإنسان في السِنّ، وضَعُفَت عنده هذه الشَّوارد تجده عندما يقف يسقط رأساً! ما هذه الآليَّة؟ لا يزال جسم الإنسان يحوي ملايين المجاهيل التي لم يكتشِفْها الإنسان، وكذا النبات والحيوان، مئة وأربعون مليار خَلِيَّة سمْراء لم تُعْرَف وظيفتها بعْدُ في الدِّماغ! فأنت إذا كنت لا تستطيع أن تعرف مخْلوقاتِه، فكيف تريد أن تعرفه هو تعالى؟!!

علم الله مطلق :

قال: ولم يَخْفَ عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلِمَ ما هم عامِلوه قبل أن يخلقهم، الآن هذا سؤال: إذا قلنا: فألْهَمَها فُجورَها وتَقْواها، إذا قيل لك: ألْهَمَها فُجورَها،أي: أجْبَرَها على أن تكون فاجِرَة! هكذا فهِمَها، وقال لك آخر: ليس هذا هو المعنى، ولكن إذا فَجَرَتْ تَكْشِفُ فِطْرَتُها العالِيَة أنَّها فَجَرَت، فأيُّ المعنى الذي يليق بذات الله؟ الثاني طَبْعاً إذْ لو قلنا بالقَول الأوَّل لكان فُجورها من فِعْل الله تعالى، ولا ذَنْبَ لها به لكنَّهُ يُعَذِّبُه على فُجورها.

هناك معنىً آخر وهو أنَّهُ تعالى فطَرَها فِطْرَةً بِحَيْث إذا فَجرتْ تَعْلَمُ أنَّها فَجَرَت مِن دون مُعَلِّم، ومن دون مُوَجِّه، فلا تقل: ولكن، وإن سَرَق، وزنا! فهذا الأمر بالماضي؛ قال: سرقَ ولم يقل يسْرق، فالإنسان إذا أسْلَم فإسلامه يَجُبُّ ما قبله.

بالمناسبة؛ سيِّدُنا يوسف عليه السلام هل كان معه كتاب سماوي؟ ولكن كان معه شيء لا يقل عن مرتبة الكتاب، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة يوسف: 21]

فَتَأويل النَّص عِلْمٌ قائِمٌ بذاتِه! والقُدْرة على فَهْم النَّص اخْتِصاص.

قال: فإنَّه سبحانه يعْلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال تعالى:

(بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[سورة الأنعام: 28]

وإن كان يعلم أنَّهم لا يُرَدُّون، ولكن أخبر أنَّهُم لو رُدُّوا لعادوا كما قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال: 23]

الله تعالى خلَقَ الخَلْق لِعِبادَتِه :

في ذلك رَدٌّ على الرافضة والقَدَرِيَّة الذين قالوا: إنَّهُ لا يعْلَمُ الشيء قبل أنْ يَخْلُقَهُ! فلو كان الأمر كذلك فما الفرق بيننا وبين الله تعالى؟ فلو كنت بِبُسْتانٍ ورأيْتَ ورَقَة تسقط، فأنت الآن علِمْتَ وهي تَسْقُط أنَّها تسقُط! والله تعالى قال:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

[سورة الأنعام: 59]

فإذا أنت كنت تعلم حينما تسقط، والله تعالى يعلم حينما تسقط فهل هناك فرق بين عِلْمِكَ وعِلمه؟! سِيَّان!!

قال: وأمَرَهُم بطاعتِهِ ونهاهُم عن مَعْصِيَّتِه، وذكرُ الشيخ رحمه الله تعالى الأمْرَ والنَّهْي بعد ذِكْره الخلقَ والقَدَر إشارَةً إلى أنّ الله تعالى خلَقَ الخَلق لِعِبادَتِه، كما قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

وقال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

قوله: كلّ شيء يجْري بِتَقْديرِهِ ومشيئَتِه، ومشيئَتُهُ تنْفُذ، ولا مشيئَة للعِباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن.

مشيئة الله تَسْتَوْعِبُ مشيئة الإنسان :

اسْمَحوا لي الآن أن أقرَأَ الآيات، وأُفسِّر معناها، فهذا الكونُ كَوْنُ الله تعالى، ولا يقعُ شيء إلا بِمَشيئة الله تعالى، ولا يستطيعُ عَبْدٌ مهما كان كبيراً أن يفعَلَ شيئاً ما أراده الله، وإنّ كلّ شيء وقع أراده الله تعالى، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله تعالى مُتَعَلِّقَةٌ بالحِكْمَة المطلقة، وحِكْمَتُهُ المطلَقة مُتَعَلِّقَةٌ بالخير المطلق، فَكُلُّ شيء يجري بِتَقْديره ومشيئَتِه، ومشيئَتُهُ تنْفذ لا مشيئة العبد، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا الكلام يحْتاج إلى تَوْضيح، فَمَشيئةُ الله تَسْتَوْعِبُ مشيئة العِباد، فأنت مُخَيَّر، ثم أرادَ لا سَمَحَ الله إنسانٌ فاجر وفاسق أن يسْرق، فأراد الله له أن يُحَقِّقَ له اخْتِيارَهُ، فمشيئةُ الإنسان تَعَلَّقَتْ بالسَّرقة، ولأنَّ الإنسان مُخَيَّر تَعَلَّقَتْ مشيئة الله تعالى بِتَمْكينِهِ من السَّرقة، ولكنَّ الله تعالى يُنَسِّق؛ اسْرق مِن هذا!! فهو يُحَقِّق لِهذا السارق مشيئَتَهُ، ويُؤَدِّب هذا المَسْروق، والظالم سوْط الله ينْتَقِمُ به ثمّ ينْتَقِمُ منه،

وهذا الكلام معناه أنَّ مشيئة الله تَسْتَوْعِبُ مشيئة الإنسان، فلمَّا يسرق هذا الكافر أو يقتل فهو ما فعَلَ إلا ما أراده الله تعالى، لِحِكْمَةٍ بالِغَة، حَقَّقَ لِهذا مشيئتَهُ لأنَّهُ مُخَيَّر، وأدَّب بهذه المشيئة بَقِيَّة خلقِه، وهذا هو التَّنسيق، وكل شيء يجْري بتَقْديرِهِ ومشيئته، ومشيئتُهُ تنْفذ، ولا مشيئَة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن، فالشيء إذا وَقَعَ يعني أنَّ الله تعالى قد شاءَهُ، وإذا اخْتَرْتَ شيئاً ونفَذتَ ما شئتَ فالمعنى أنّ خطَّة الله اسْتَوْعَبتْ مشيئتك، فما كان لك أن تشاء، وأن تُحقّق ما تشاء؛ لولا أنَّ الله تعالى شاء لك أن تُحَقّقَ ما تشاء، فأنت تبقى مُخَيَّراً، ولكن فعْلك يُنَسَّق من قِبَلِ الله تعالى. قال تعالى:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 30]

وقال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً)

[سورة الإنسان: 29]

مشيئة الله سبحانه مُتْقَنَة بكمالِهِ :

أنت مُخَيَّر، ومشيئتُكَ لا تَتَحَقَّق إلا أن يسْمَحَ لك الله تعالى، فالفِعْلُ فِعْلُهُ ولا يُحقّق لك مِن مشيئتِك إلا ما يشاء، ثمّ قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً*وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً* يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

[سورة الإنسان: 29-31]

فالقَضِيَّة ليْسَت مِزاجِيَّة، فهو تعالى أدْخَلَ المُقْسِطين، ولم يُدْخِل الظالمين، وأدخل المستقيمين، وهذا يعني أنّ مشيئته مُتْقَنَة بكمالِهِ.

فأنت لك مشيئة لكنَّ هذه المشيئة تفْتَقِرُ إلى فِعْل، والله عز وجل فعَّال لِما يُريد أما أنت وأنا نشاء ولا نفْعَل، فمثلاً أتمنَّى أنا أن يكون معي ألف مليون، ولكن لا أسْتطيع، إلا أنّ الله تعال فعَّال لما يريد، ومشيئة الإنسان يتحَقَّقُ منها ما يُريدُه الله تعالى فإذا انْقلَبَتْ إلى فِعْل، فَمَشيئة الله تعالى شاءت أن تقَعَ هذه المشيئة، فتَنْفيذ المشيئة تحتاج إلى مشيئة الله تعالى. فأنت ـ حسب أصحّ الكلام ـ سُمِحَ لك أن تخْتار، وشاءتْ مشيئة الله أن تكون أنت ذا مشيئة، فأنت مُكَرَّم، أما كل الخَلْق فمُسَيَّرون؛ الحيوان والملائكة والجماد؛ إلا الإنس والجنّ اللّذيْن شاءت لهما مشيئة الله أن يشاؤوا، قال تعالى:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 30]

الله تعالى رسَمَ للإيمان طريقةُ فلن يؤمن الإنسان إلا من خِلال هذه الطريق :

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

[سورة الأنعام: 111]

ما معنى هذه الآية؟ إذا صعد شخصٌ إلى السماء ورجع بعد ساعتين وقال: رأيت الذات الإلهيَّة فالآن أومِن، أما الآخر فقال: لا، أنا لا أومن، وإذا خرج شخصٌ من قبره، وقال: هناك آخرة أُصَدِّقُه، وذاك قال: إذا مشى الجبل أُصَدِّق، فالله تعالى قال:

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)

[سورة الأنعام: 111]

فالله رسم للإيمان طريقه، وبشَكْلٍ مُبَسَّط لو أنَّك تقرأ الطب خمْس سنوات فلن تحصل على شهادة طبّ، ولو بقيتَ في المستشْفيات خمْس سنوات كذلك لن تنالها إلا إذا تحَصَّلْتَ على شهادة البكالوريا بِتَفَوُّق؛ فلن تكون طبيباً حتَّى تسْلك الطريق التي رُسِمَتْ للأطِبَّاء؛ بكالوريا زائد سبع سنوات دراسة طب، وإلى آخره، فلو أنَّكَ طَلَبْتَ الإيمان بالله عن طريق المعْجزات فلن تؤمن إلا إذا شاء الله، فاليهود رأَوْا المُعْجِزات؛ عصاً أصْبَحَتْ ثعباناً فمنهم مَن انحرف وضلّ! فالآية هذه دقيقة جداً، والله تعالى رسَمَ للإيمان طريقهُ، فلن تؤمن إلا من خِلال هذه الطريق، قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)

[سورة الأنعام: 112]

لأنَّ الفعْلَ فِعْلُه، هناك مَثَلٌ أُوَضِّحُهُ لكم كثيراً، وأذكرهُ كثيراً، أنت صَيْدلي وتطلب مُوَظَّفاً على مستوى عالٍ من الثَّقافة، وأرَدْتَ أن تمْتَحِنَهُ، فأتَيْتَ بِكَمِيَّة من الدواء، وقلتَ له: ضعْ هنا الفيتامينات، وهنا الحبوب، وهنا السُّموم، ثمّ قلت له: وَزِّع هذه الأدْوِيَة! فلو أنَّه وضَع الفيتامينات مع السُّموم، ومنَعْتَهُ من الإثمام فأنت لم تمْتَحِنْهُ! لكنَّك تشاء له أن يتَحرَّكَ خطأً، لأنَّهُ في مَوْطِنِ الامتِحان، فالله تعالى ما أمَرَ بالكُفْر، فإن كفَرَ شخصٌ فهو تعالى أراد ولم يرْضَ، ومعنى أراد أي سَمَحَ.

الله تعالى أعْطانا الحُريَّة كي نرْقى بها ونكون مخلوقات مُتَمَيِّزَة جداً :

ومِن ثَمّ قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

[سورة يونس: 99]

لو أنَّ الله تعالى ألغى الاختيار وجعلنا كالملائكة والحيوانات، لا تكليف، ولا أمانة، ولا شَهَوات، فالله تعالى أعْطانا الحُريَّة كي نرْقى بها، ونكون مخلوقات مُتَمَيِّزَة جداً.

هناك آية فيها إشكال، وهي قوله تعالى:

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأنعام: 125]

الله تعالى يُعينُ المؤمن إذا اخْتار الطريق الصحيح، ويشْرح صدْره؛ فهذه اسمُها مُعينات، فالإنسان إذا صلى واستقام يُسَرُّ ويرتاح، فهذا خلق الله فيه السرور والراحة تَشْجيعاً لك، وإذا انتَكَس الشخصُ، وترك الصَّلاة، وخرق الاستقامة فإنَّهُ يجدُ ضيقاً، فالقلوب بيَد الرحمن، يشْرحها لك تشْجيعاً لك، ويُضَيِّقُها رَدْعاً لك، ليس المعنى أنّ الإنسان مَجْبور، فأنا أحاول أن أبَيِّنَ معنى الآيات التي يُفهَم منها خطأً عقيدة الجبْر.

الضلال الجزائي :

قال تعالى:

(وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة هود: 34]

كيف نُفَسِّرُ هذه الآية؟ معنى كلمة يُغْوِيَكم؛ أيْ يُخْرِج ما في نُفوسِكم من شرّ! الإغْواء هو الإضلال، فالله تعالى لو أراد أن يُغْوِيَكم لما أفادكم نصحي، وهناك معنى ثانٍ؛ وهو لو اعْتَقَدْتم أنَّ الله خلقكم لِيُغْوِيَكم لن تسْتفيدوا من دَعْوتي. قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الأنعام: 39]

هذا ضَلال جَزائي، المَبْني على ضَلال اخْتِياري، فمَثَلاً لو أنَّ الإنسان له زوْجة ممتازة، وعاملها باللُّطف، وأحْسَنَ إليها، فهذا لم يفْعَلَ شيئاً، أما لو أُصيبَتْ زَوْجَتُهُ بشَلل، ثمَّ تضايَقَ منها، وأهْمَلَها، فهذا كذَّاب، ومنافق، لأنَّه صاحب مصْلَحَة، فالخبث الكامن لا يظهر إلا بالامْتِحان، فالله عز وجل لمَّا علِمَ أنّ فيهم خبْثاً، وضَعَهُم بظَرْفٍ أخْرج به خُبْثَهم.

ذَمَّ الله تعالى المشركين حيث جَعَلوا الشِّرْك كائِناً منهم بمَشيئَةِ الله فعَزَوا شِرْكَهم إليه:

إن قيل: يُشْكِلُ على هذا قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

وقوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

[سورة النَّحل: 35]

وقوله تعالى:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[سورة الزخرف: 20]

فقد ذَمَّهم الله تعالى حيث جَعَلوا الشِّرْك كائناً منهم بمَشيئَةِ الله، فعَزَوا أخْطاءَهم وشِرْكَهم إلى الله عز وجل.

وكذلك ذمّ إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله، إذْ قال في قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة الحجر: 39]

فالله تعالى ما أقرَّهُ على هذا الكلام، وهي دَعْوى إبليس!

مشيئة الله تعالى ليسَتْ دليلاً على أمرِهِ ولا على رضاه :

قال: قد أُجيب على هذه الآيات بأجْوِبَة؛ أحْسَنُها أنَّهُ أنْكر عليهم ذلك، لأنَّهم احْتَجُّوا بمَشيئَتِهِ على رضاه وَمَحَبَّتِه، فالمشيئة شيء وأمْرُهُ ورضاه شيء آخر، فأحْياناً يكون الأب مُثَقَّفاً ثقافَةً عالِيَة، فيَكون كلّ طُموح الأب أن يكون ابنه مُثَقَّفاً، فإن لم يكن كذلك يَضَعُهُ في صَنْعَة يتعلمها، فالأب شاء له العلم، ولم يرْضَ لابنه أن يكون صاحب صَنْعة، بل صاحب ثقافة دراسِيَّة، فأكْبَر خلط أن تظن أنَّ مشيئته هي عَيْنُ رضاه، وأنَّ مشيئته عين أمْرِه! لا، ثم لا، ما معنى ليس في إمكاني أبْدعُ مِمَّا أعْطاني؟ هل يوجد أبٌ يَتَمَنَّى لابنِه عَمَلِيَّة جراحِيَّة؟ ولكنه يرضاها له، فَمَشيئته غير رضاه وغير أمْرِه.

وقالوا: لو كرِهَ ذلك وسَخِطَه لما شاءَهُ، فجعلوا مشيئَتَهُ دليل رضاه، فرَدَّ الله عليهم ذلك، أو أنَّهُ أنْكر عليهم اعْتِقادهم أنَّ مشيئة الله تعالى دليل على أمره به فليسَتْ مشيئة الله تعالى دليلاً على أمرِهِ، ولا على رضاه، وهذا واضِحٌ.

أو أنَّهُ أنكر عليهم معارضَتَهُ شرْعَهُ، وأمْرَهُ الذي أرْسَل به رسله، وأنْزل به كُتُبَهُ بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامَّة دافِعَةً للأمْر، فلم يذْكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنَّما ذكروها مُعارضين بها لأمْرِه،

دافِعين بها لِشَرْعِهِ، كَفِعْل الزنادِقةِ والجُهَّال إذا أُمِروا، أو نُهوا احْتَجُّوا بالقَدَر، وهناك رواية قال: وقد احْتَجَّ سارق على عمر رضي الله عنه بالقَدَر، فقال: إنَّ الله قدَّر عليَّ ذلك، قال: وأنا أقْطَعُ يدك بِقَضاء الله وقدَرِهِ! إذا كنتَ تظنّ أنَّ هذه الجريمة التي قد ارْتَكَبْتَها بِقَضاء الله وقدره، فنحن نقطع يدك بقَضاء الله وقدره، فهذا أراد أنَّ الله تعالى هو الذي أجْبره على ذلك، ويشهد لِذلك قوله:

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

[سورة الأنعام: 148]

فَعَلِمَ أنَّ مُرادهم التَّكْذيب، فهو مِن قبل الفِعْل مِن أين له أنْ يعلمَ أنَّ الله تعالى قدَّره أو لم يُقَدِّرْهُ؟ أطَّلَعَ الغيْب؟! فما دُمْتَ لا تعلم الذي يعْلَمُه الله فهذا العِلْم لا يمكن أن يكون حجَّةً لك.

وإن شاء الله تعالى في درْس قادِم نُتابع الموضوع، ونَصِل إلى النبوَّات، ونكون قد تجاوزنا أصعب جزء من الكتاب، والباقي سيَكون سهْلاً إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

حُسْنُ الظنِّ بالله تعالى ثَمَن الجنَّة :

أيها الأخوة المؤمنون، أجمل كلمةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بالقضاء والقدر، ومُتَعَلِّقَةٍ بذات الله عز وجل، نُقِلَتْ عن وَهْبٍ بن مُنَبِّه فقد قال: نَظَرْتُ في القضاء والقدر فَتَحَيَّرْتُ، ثمَّ نظرتُ فيه فَتَحَيَّرْتُ، ووجَدْتُ أعلم الناس بالقَدَر أكَفَّهُم عنه، وأجْهَلَ الناس بالقَدَر أنْطَقَهُم فيه! معنى ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 85]

وقال تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

[سورة البقرة: 255]

فنحن نتوَغَّلُ في المنطقة التي أُمِرْنَا أن نتَوَغَّلَ فيها، وهي التَّفَكُّر في خَلْق الله، وعلينا أنْ نحْجم عن المنْطقة التي نُهينا عن الخَوْض فيها، مع أنَّنا نُحْسِن الظنَّ بالله عز وجل، فَحُسْنُ الظنِّ بالله تعالى ثَمَن الجنَّة، والله سبحانه وتعالى فيما أخْبَرَنا عن ذاتِه لا نُحكِّمُ عُقولنا في ذاتِه تعالى، فقد نفى عن نفْسِهِ الظُّلْم في آياتٍ كثيرة، ويَكْفينا الخَبَرُ الصادق عن خالِق الأكوان أنَّهُ لا يظْلِم، ولذا علينا أن نَلْتَفتَ إلى موضوعات أُمِرنا أن نخوض فيها، وأن نتَوَغَّل فيها، فكلَّما ازْدَدْنا فِكْراً في خَلْق السَّماوات والأرض ازْدَدْنا عِلْماً به تعالى وتَعْظيماً له، وخَشْيَةً وإقْبالاً عليه، وسَعِدْنا في الدنيا والآخرة.

جنَّتُهُ جلَّ جلاله مَحْضُ فضْلٍ ونارُهُ مَحْضُ عَدْلٍ :

قال الإمام الطحاوي: "يهدي من يشاء، ويعْصِمُ، ويُعافي فَضْلاً، ويُذِلُّ من يشاء، ويخْذُل، ويبْتَلي عَدْلاً"، كلامٌ دقيق جداً يتراوَحُ بين الفضْل والعَدْل؛ جنَّتُهُ جلَّ جلاله مَحْضُ فضْلٍ، ونارُهُ مَحْضُ عَدْلٍ، فإذا أعْطى فَمِن فضْلِهِ، ولا أجِدُ مثالاً في تَوْضيح هذه الفِكْرة مِن أنَّ أباً رحيماً عالِماً له ابنٌ شَجَّعَهُ على الدِّراسة ووعَدَهُ بجائزَةٍ كبيرة جداً إذا هو نَجَح، فهذا الطِّفْل ظنَّ أنَّ ورقة النَّجاح وحْدَها يُمْكِنُهُ أن يشْتَرِيَ بها هذه الجائزة، فلما نَجَح وأخذ جلاءَهُ تَوَجَّهَ إلى بائِع الدَّرَاجات، وانتَقى أغلى درَّاجة، فهل يأخذ هذه

الدَّراجة لِتَفَوُّقِهِ؟ لا، لا بدّ مِن أن يدْفَعَ الأب ثَمَنَها، فهذه الدَّراجة ـ وإن كان مثلاً بسيطاً ـ يدْفَعُ ثَمَنَها الأب وهي مَحْضُ فضْلٍ منه، إلا أنَّ دِراسَتَهُ لا تكْفي لاقْتِناء هذه الدَّراجَة، لكنَّ الأب قال: إذا نَجَحْتَ فلك هذه الدَّراجة؛ لذا فهي مَحْضُ فضْلٍ منه.

إذا تاب المرءُ في سن الأربعين، ومات في الخامسة والخمْسين، كم سنة عاش؟ خمْسَ عشرة سنة، غَضَّ بصَرَهُ، وحرَّرَ دَخْلَهُ، وأدَّى الصَّلَوات، وصام رمضان، وحضر مجالِسَ العِلْم، ثمَّ توفَّاهُ الله، فاسْتَحَقَّ الجنَّة إلى الأبد الآبدين، فَنَعيمٌ مُقيم في جنَّة عرضها السماوات والأرض لا يتناسَب مع عمَلٍ لا يتجاوَزُ بِضْعَ سنوات! لكِنَّ الجنَّة مَحْضُ فضْلٍ بينما النار مَحْضُ عَدْلٍ، فهو تعالى إنْ عَذَّبَنا فبِعَدْلِهِ، وإنْ كرَّمَنا فَبِفَضْلِهِ؛ هذا كلامٌ دقيق، يهدي من يشاء، ويعْصِمُ ويُعافي فَضْلاً، ويُذِلُّ من يشاء، ويخْذُل ويبْتَلي عَدْلاً، هنا نقْطة دقيقة وهي: أنَّنا إن قلنا: يُذِلُّ من يشاء، ويخْذُل ويبْتَلي عَدْلاً معنى ذلك هناك سبب من المخْلوق وإلا انْقلبَ إلى ظلْمٍ، فلا بدّ مِن سببٍ مُتَعَلِّقٍ بالمَخْلوق، فما دام يُذِلُّ من يشاء، ويخْذُل ويبْتَلي عَدْلاً، يَعْتَقِدُ المسلم أنَّ الله سبحانه وتعالى إنْ عَلِمَ في عبْدِهِ ذَرَّةً من خير، فهذه تُنَمَّى، وتُنَمَّى، ويُشَجَّع، ويُكافَأ، ويُثاب، ويتجَلَّى الله على قلبه، ويُسْعِدُه، ويشْرح له صدْره، إلى أن تغْدو هذه الذَرَّة حجْماً كبيراً.

كلّ بني آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التَّوابون :

ذكرْتُ لكم في الدَّرْس الماضي كلِمَةً تَهزّ مشاعر الإنسان؛ النبي عليه الصلاة والسلام حينما بايَعَهُ أصْحابه في صلح الحُدَيْبِيَّة، ولما انتهى أصحابه من بيعتهم أمْسَكَ يداً بيَد وقال: هذه عن عثمان، تذكرون هذا في السيرة، فإنَّهُ في حاجة الله ورسوله، وهذا كلام النبي عليه الصلاة والسلام ليس فيه شطحات أبَداً؛ ما معنى أنّ عثمان في حاجة الله ورسوله؟ ما حاجة الله عز وجل؟ حاجة الله عز وجل إسْعاد خلْقه وإكرامهم وهِدايتهم، لذلك كلّ شيءٍ شاءهُ لهم قد يتناقض مع أمْره ورضاه، فَشاءهُ لهم أي سمَحَ لهم أن يفْعَلوه؛ تَحْقيقاً للأمانة التي أوكِلت إليهم، وللتَّكْليف الذي كُلِّفوا به، وتَحْقيقاً لِحُرِيَّة الاخْتِيار شاء، ولم يرْضَ، ولم يأمُر، فحينما نقول: إنَّ إضْلال الله عز وجل، وخِذْلانه، وابْتِلاءَهُ مَحْضُ عدْلٍ فلِسَبَبٍ مِن المَخْلوق، وهذا الكَسْبُ الذي يُحاسَبُ عليه الإنسان؛ قال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

إذا ألْغَيْنَا سبب المخلوق كما قال ابن القيِّم رحمه الله كما مر معنا في الدرس الماضي؛ وإذا وضعَ الله عز وجل إنساناً في النار إلى أبَدِ الآبدين مِن دون ذنْبٍ منه إطْلاقاً، فهذا شيء يتناقض مع كمال الله وأسمائِهِ الحُسْنى، لذلك هذه الكلمة على إيجازها واخْتِصارها لها دلالاتٌ كبيرة.

أيها الأخوة، أريدُ أن أضعَ بين أيديكم هذه الحقيقة؛ قد تقرأ كتاباً وتمْتلئ نفسُكَ إعْجاباً به، وهذا لا يعْني أنَّ مُؤَلِّفَهُ مَعْصوم، فلا ينبغي أن نعْتَقِدَ العِصْمَةَ لِغَير النبي عليه الصلاة والسلام، فهو عليه الصَّلاة والسلام وحْدهُ مَعْصوم، بينما أُمَّتُهُ بِمَجْموعِها معْصومة، والمعنى أنَّ كلّ مسلمٍ ومؤمنٍ وعالمٍ تَفَوَّقَ في جانِبٍ، ولا أقول جَهِلَ جانِباً؛ غابَ عنه بعضُها، فجاء أخوهُ فَتَفَوَّق في هذا الجانب، وغاب عنه كذلك جانب آخر، فمَجْموع العلماء والدُّعاة إلى الله مَعْصومون، لا بِمُفْرَدِهِم، وكيف تعْرف أنَّ هذا العالم ألَّف كتاباً من مئة صفحة؟! فقد تجد أخطاءً وثغراتٍ في صَفْحَةٍ من الصَّفحات، وهذه النُّقطة لا تقدَحُ في مكانَتِهِ، ولا تُقَلِّلُ من قيمتِهِ، ولا تهدر كرامتَهُ؛ لأنّ كلّ بني آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التَّوابون، فنحن لا نعتقِدُ العِصْمة إلا لِرَسول الله، وما سِواه يؤْخَذُ منه ويُرَدّ عليه إلا صاحب القبَّة الخضراء.

كمال البشر نِسْبيّ لكِنَّ الله سبحانه وتعالى عدْله مطلق لا نسبي :

كيف تعرف كطالب عِلْمٍ أنَّ هذه الفِكْرة أو أنَّ هذا الكتاب لم يُدْرك الصَّواب؟ هذا يُسَمِّهِ العلماء التَّقاطُع، فأنت قد تكون كطالب علم أقلّ شأناً من كلّ هؤلاء العلماء؛ وهذا ليس من باب التَّواضع، ولكن قرأْتَ لِهذا العالم فلفَتَ نَظَرَكَ إلى حقيقةٍ غابَتْ عن هذا العالِم! نحن الآن ندْخُل في موضوع؛ هل يجب على الله تعالى الأصْلَح؟ هذا موضوع سَبَقَ أن عالَجْنَاهُ في جَوْهرة التَّوحيد؛ هل يجب على الله تعالى الأصْلَح؟ فالمُعْتَزِلة قالوا: يجب على الله الأصْلَح، وأهل السنَّة والجماعة قالوا: لا يجب على الله الأصْلَح؛ لأنَّ الله تعالى لا يجب عليه شيء.

أرْجو الله سبحانه وتعالى أن أكون دقيقاً في تَوْضيح هذا الجانب! نعْتَقِدُ جميعاً أنَّ الله جلَّ جلاله كامِل، وكماله كمالٌ مُطْلَقٌ، فما معنى كماله كمالٌ مُطْلَقٌ؟! القاضي العادل قد يحْكُم ألف حُكْمٍ، فَتِسْعُمئة حُكْمٍ وتسْعَةٌ وتسعون عادلة، وواحِدٌ جائِر؛ حينها يُسَمَّى القاضي عادِلاً، بل حتَّى لو حكم عشْرة أحكام جائرة لَسُمِّيَ عادِلاً! فهذا في حُكْم البشر، ولأنَّ كمال البشر نِسْبِيّ، لكِنَّ الله سبحانه وتعالى عدْله مطلق لا نسبي، ففي الأرض الآن هناك ستة آلاف مليون إنسان، وكم مِن حيوان؟ وكم مِن نباتٍ؟ فلو أنَّ شاةً نَطَحَتْهَا شاةٌ فلم يقتصّ للمَنْطوحة من التي اعْتَدَتْ عليها لما سُمِّيَ الله عادِلاً! فالإله وَضْعُهُ ثانٍ، وكمالُهُ مُطْلَق.

فأوَّلاً: إن اعْتَقَدْنا الكمال المطلق لله عز وجل؛ فكيف نقول: لا يجب عليه الأصْلَح؟! أنا لا أشُكّ أنَّ أهل السنَّة والجماعة تأدَّبوا مع الله ولكن لماذا قالوا: لا يجب على الله تعالى الأصلح؟ الله جل جلاله لا يجب عليه شيء، وهذا شأن الإله، لكنَّ الله سبحانه وتعالى أوْجَبَ على نفسه الأصْلَحَ، قال تعالى:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

إنَّ ربي على صراط مستقيم، وقال تعالى:

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأنعام: 54]

الله سبحانه وتعالى يفعل الأصلح مِن دون أن يكون عَقْلنا مِقياساً لهذا الأصلَح :

قبل عامَيْن تَوَصَّلْنا إلى حلٍّ رائع، وهو أنَّ الله عز وجل يفعل دائِماً الأصلَح، ولكِنَّ عُقولنا قاصرة عن فَهْم الأصلَح! فالله جل جلاله يفعل ما يتناسب مع كماله المطلق، إذاً يفعل الأصلَح مِن دون أن يكون عَقْلنا مِقياساً لهذا الأصلَح، ولكِنَّ عُقولنا قاصرة عن فَهْم الأصلَح! لذلك قالوا في تعريف حِكْمَتِهِ: إنَّ كلَّ شيءٍ وقَعَ وقع لحكمةٍ، لو لم يَقع بالنَّحْوِ الذي وقع لكان الله تعالى مَلوماً، ولكان عدم وُقوع الذي وقع على النَّحو الذي وقع نقصاً في حكمته عز وجل، ومِن هنا انْطَلَقَ الإمام الغزالي وقال: ((ليس بالإمكان أبْدَعُ مِمَّا كان))، الله جل جلاله لا يفعل إلا الأصلَح لأنَّه كامل ولكِنَّ عُقولنا قاصرة عن فَهْم الأصلَح! أحْياناً تجد أباً مات في رَيْعان الشَّباب، وترك أوْلاداً أيْتاماً، فالعَقْل القاصِر يقول: يا رب لو أبْقَيْتَ هذا الإنسان! وما يُدْريك أنّ يُتْم هؤلاء الأولاد دَفَعُهم إلى سُلَّم التَّفَوُّق، وأنَّهُ لولا وفاة الأب لكانوا في حالةٍ أخرى! فأنت لا تعلم، لذلك الآية التي لا أشْبَعُ مِن تِرْدادِها قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

فَمِن باب الطُّرْفَة نقول: إنَّ المُتَفَوِّقون في كلِّ المجالات عاشوا طُفولة بائِسَة، وأنت الآن تُقَدِّم لابنِك كلَّ شيء، ومع ذلك لا يتفوَّق! فحينما أوْصَلْتَ له كلّ شيء رحْمَةً منك أفْقَدْتَهُ الدافِعَ إلى التَّفَوُّق. أعرِفُ رجلاً أخْرَجَهُ والِدُهُ من التَّعْليم الابْتِدائي، ووالِدُهُ صاحب مكْتبة وليس مقتنِعاً بالعِلْم إطْلاقاً، فهذا الابن الذي أُخرجَ عُنْوَةً من التَّعْليم درس الشَّهادة الابْتِدائِيَّة خُفْيَةً عن والِدِهِ!! ثمَّ درس الإعْداديَّة، والثانَوِيَّة، ونال الحُقوق، ثمَّ تقدَّم لِشَهادة الماجسْتير والدكتوراه، وألَّف تفْسيراً شهيراً، أهْدى منه نسخة إلى مسجدنا، والِدُهُ شاء له أن يَدَعَ سبيلَ العِلْم، وربَّمَا لو دَفَعَهُ والِدُه إلى العِلْم لاخْتَلَف الوَضْع!

مَبْعَث طمأنينة المؤمن أنَّهُ موقِنٌ بحِكْمَة الله تعالى وأنَّ الأمْر كُلَّه بيدِ الله :

وَرَدَ في بَعْض الأثر: أنَّ الناس لو مُنِعوا عن فتِّ البعْر لَفَتُّوه!! فالله تعالى له حِكَمٌ لا نعْرفها، إلا أنَّهُ لو كُشِفَ الغِطاء، فليس لنا إلا أنْ نخْتار الواقِع، بل لذابَتْ أنْفُسنا محَبَّةً لله تعالى، فَكُلُّ واحِدٍ مِنَّا له تاريخ،

ووُلِدَ من فلان وفلانة وفي المكان الفلاني وفي الزَّمَن الفلاني، وبالقُدْرات الفُلانِيَّة والمُلابسات الفُلانيَّة، وبالبيئة والتَّفوُّق الفلاني، هذا الذي رسَمَهُ الله لك، لو كُشِفَ الغِطاء لما وَجَدْتَ أحْكَمَ ولا أرْوعَ منه، وهذا مَبْعَث طمأنينة المؤمن، وهو أنَّهُ موقِنٌ بِحِكْمَة الله تعالى، وأنَّ الأمْر كُلَّه بِيَدِ الله.

قال: "يهدي من يشاء، ويعْصِمُ ويُعافي فَضْلاً، ويُذِلُّ من يشاء، ويخْذُل ويبْتَلي عَدْلاً"، وهذا ردٌّ على المعتزلة في قولهم بِوُجوب فِعْل الأصْلح على الله تعالى؛ وهذه هي مسألة الهُدى والضَّلال. قالت المعتزلة: الهُدى من الله تعالى، الهُدى من الله مبتدأ، خبره بيان طريق الصَّواب، والإضْلال تَسْمِيَةُ العَبْد ضالاًّ، وحُكْمُهُ تعالى على العَبْد بالضَّلال عند خَلْق العبْد الضَّلال في نفْسِه، وهذا الذي نقوله أحْياناً حينما يُعْزى الإضْلال إلى الله عز وجل، فَهُوَ الإضْلال الجزائي المَبْني على إضْلال اخْتِياري.

بالمناسبة، نحن نذْكر المعتزلة كثيراً ونعْتَقِدُ أنَّ عقيدتهم في بعض جوانِبها باطلة وفاسِدَة وغير صحيحة، وليس معنى هذا أنَّ كلّ شيءٍ قالَتْهُ المُعْتَزِلَة خطأ! مُشْكلتُنا أنَّنا تَعَلَّمْنا من الغُلاة أنَّ في الحياة لونَيْن فقط أبيَض وأسْوَد؛ إمّا أنَّهُ معنا أو ضِدَّنا، وإما أنَّهُ مع الحق أو الباطل، وإمَّا أنَّهُ مع الحقِّ أو الشَّيْطان، وما تعَلَّمْنا أنَّ مليون لوْنٍ رمادِيٍّ بين الأبْيَض والأسْوَد، لذلك فالإنْصاف بعيد عنَّا، وعندنا غُلُوّ، وأحْكامُنا جائرة، وهناك تَطَرُّف، وإذا أحْبَبْنا ألَّهْنا، وإذا كرهْنَا فسَّقْنا؛ وهذه ترْبيَةٌ مغلوطة.

النبي عليه الصلاة والسلام كان يسْتَعْرِضُ الأسْرى، فإذا بِصِهْره بين الأسْرى؛ زَوْجُ زيْنب، فلماذا جاء؟ جاء لِيُحارِبَ النبي عليه الصلاة والسلام، ولو تمَكَّن لقَتَلَهُ، فإذا به يقَعُ أسيراً، فالنبي عليه الصَّلاة والسلام، وهذا كمالٌ منه قال: ((والله ما ذَمَمْناهُ صِهْراً))، فما ذكَر شيئاً عن إيمانِهُ، ولا عن شِرْكِهُ، ولا أنَّهُ جاء لِيُحارب، وقد يقْتل، ولكنه عليه الصلاة والسلام أبْرَزَ أنَّهُ كان زوْجاً كريماً لابْنَتِهِ!

وهذا ابن بلْتَعَة، الذي ارْتَكَب خِيانَةً عُظْمى في كُلِّ أعراف الأمم، فأرسل رسالةً لقريش قبل فتح مكة يقول فيها: إنَّ مُحَمَّداً سيَغْزوكُم، فَخُذوا حِذْرَكُم، وجاء النبيَّ عليه الصلاة والسلام الوَحْيُ مُخْبِراً إيَّاه بما فعَل حاطب بن أبي بلْتَعَة، فَسَيِّدُنا عمر رضي الله عنه قال: دَعْني أضْرِب عُنُقَ هذا المنافق! فقال: لا يا عمر، إنَّهُ شَهِدَ بدْراً، فالنبي عليه الصَّلاة والسلام سألهُ: لِمَ فعَلْتَ كذا وكذا؟ فقال حاطب: والله ما كَفَرْتُ، وما ارْتَدَدْتُ، ولكن أرَدْتُ أن تكون لي يدٌ بيضَاء عندهم، أحْمي بها أهْلي ومالي!! فالنبي عليه الصلاة والسلام صَدَّقَهُ وقال: إنِّي صَدَّقْتُهُ فَصَدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيْراً، لكِنَّ الغريب أنَّ في السيرة أحوالاً لا تُصَدَّق.

إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الجزاء المَبني على ضلال اختِياري :

أنت لو كان عندك مُوَظَّفٌ، ضَبَطْته يأخذ من الصُّنْدوق مبْلغاً، ويَضَعُهُ في جَيْبِهِ، وقلبُك ممتلئٌ رحْمَةً اتِّجاهَهُ، فإنَّك تُبْعِدُهُ عن الصُّندوق، أما أن تُكَلِّفَهُ بعد هذه الخِيانَة بأمانة الصُّنْدوق؛ فهذا شيء غريب. بماذا كلَّفَ النبي عليه الصلاة والسلام حاطب بعد خِيانتِهِ؟ أرْسَلَهُ مَنْدوباً شَخْصيًا لأحَدِ المُلوك لِمُهمَّة سِياسيَّة، وقد ارْتَكَب خِيانَةً عُظْمى! فنحن ليس اعْتِقادنا في المعتزلة أنَّهم خلاف عقيدة أهل السنَّة، أي أنْ نضْرب أقوالهم كلَّها عرض الحائط! لا، ليس كلّ قوْل قالهُ المعتزلة جانبُوا فيه الصَّواب، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة الصف: 5]

إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الجزاء المَبني على ضلال اختِياري. قال: والإضْلال: تَسْمِيَةُ العَبْد ضالاً، وحُكْمُهُ تعالى على العَبْد بالضَّلال يكون عند خَلْق العبْد الضَّلال في نفْسِهِ، وهذا القول مَبْني على أصلهم الفاسد؛ أنَّ أفعال العباد مَخْلوقة لهم. وهذا غلط، فَمَن يخْلُقُ الفِعْل؟ العبدُ أم الربّ؟ الربّ هو الذي يخلق، أما المعْتَزِلة فقالوا: الإنسان يخْلق أفْعاله، وهذا خطأ كبير، قال تعالى:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: 17]

وقال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)

[سورة الأنفال: 17]

الله سبحانه وتعالى هو الذي يخْلقُ الأفْعال وليس للإنسان إلا الكَسْب :

لذلك حينما يُنْسَبُ الفِعْلُ إلى العبْد معنى ذلك أنَّ كلّ إنسان قادِر أن يفْعَلَ به من يشاء، فأنا من أعبد عندئذٍ؟ يجب أن أعبُدَ الخَلْق جميعاً!! وإذا كان كلّ إنسان يخلق فِعْلَهُ بِنَفْسِهِ، فأنا أكون ضَحِيّة إذاً، لأنَّ الله خلق القويّ والضَّعيف، فلو أنَّ الناس كلّهم مُتساوون لكان شيئاً آخر، لكن هناك القويّ والضَّعيف، لذلك هذه العقيدة في نظر أهل السنَّة والجماعة وهم على حقٍّ فيها مَغْلوطة لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يخْلقُ الأفْعال وليس للإنسان إلا الكَسْب، قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

[سورة البقرة: 286]

وقال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

الحقيقة أنَّه يجب الوُقوفُ عند هاتَيْن الآيَتَيْن. قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

معنى ذلك أنَّ دعْوَةَ النبي عليه الصلاة والسلام حقٌّ صِرْف، لكِنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لا يمْلك إرغامَ الناس على الاخْتِيار، فَقَبُول الدَّعْوة أو رَدُّها مَنوطٌ بالإنسان نفسه، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

قال أيضاً:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 272]

وقال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الزمر: 41]

الهُدَى مُحَصِّلَة البيان مِن قبَلِ الخالق والقبُول أو الرَّفْض يقع مِن قِبَل المَخْلوق :

أما حينما دعا النبي عليه الصلاة والسلام فَدَعْوَتُهُ حقّ، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الشورى: 52]

قال: ولو كان الهُدى بيانُ الطريق لما صَحَّ هذا النَّفْي عن نَبِيِّه، لأنَّه صلى الله عليه وسلَّم بيَّن الطريق لِمَن أحَبّ وأبْغَض، ومع ذلك قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

فالهُدَى بيان الطريق مِن جِهَة الخالق عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، وقبُول هذا أو رَفْضُه يكون مِن جِهَة المَخلوق، فالهُدَى مُحَصِّلَة البيان مِن قبَلِ الخالق، والقبُول أو الرَّفض يقع مِن قِبَل المَخْلوق.

مَشيئةُ الله مُتَعَلِّقةٌ بِمَشيئة العَبْد لأنَّهُ أعْطاهُ الاخْتِيار :

قوله تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة السجدة: 13]

قلنا: إنّ معناها يا عبادي أنتم مُخَيَّرون، فإن شئتُم أن أنْزِعَ اخْتِيارَكم وأن أُجْبِرَكم، فلو شئنا أن نُلغي اخْتِيارَكم ونلغي حَمْل الأمانة والتَّكْليف لأجْبرْناكم على الهُدى، لأنَّ الله تعالى لا يأمر بالفَحْشاء، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف: 28]

ولو كان الهُدى من الله تعالى ـ البَيَان فقط ـ وهو عامٌّ في كُلِّ نفْس لما صَحَّ التَّقْييد بالمشيئة، وكذلك قوله تعالى:

(وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة الصافات: 57]

النُّقْطة الدقيقة؛ لأنّ الله عز وجل أوْدَعَ فينا هذه المشيئة الحُرَّة، فَمَشيئَةُ الله مُتَعَلِّقَةٌ بِمَشيئة العَبْد لأنَّهُ أعْطاهُ الاخْتِيار، فإذا شئْتَ الهُدى شاء الله لك الهُدى، وإن شئْتَ لا سَمَحَ الله الضلال شاء الله لك الضَّلال حينما تُصِرُّ عليه.

مشيئة العَبْد مشيئة اخْتِيار لكِنَّ مشيئة الله مشيئة فَحْصٍ واخْتِبار :

قال: وكُلُّهم يتقلَّبون في مشيئَتِه بين فضْلِهِ وعَدْلِهِ، ذَكَرْتُ مرَّةً كلمة في تفسير آخر آيات سورة الدَّهْر وهي قوله تعالى:

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً*وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 29-30]

مشيئة العَبْد مشيئة اخْتِيار، لكِنَّ مشيئة الله مشيئة فَحْصٍ واخْتِبار، فأنت مثلاً اِخْتَرْتَ هذا لَكِنَّك لم تدْفَع الثَّمَن؛ اِخْتَرْتَ أن تكون صِدِّيقاً لكنَّك لم تسْعى لِهذه المَرْتَبَة، فمشيئةُ العبد مشيئة اخْتِيار، لكِنَّ مشيئة الله مشيئة فَحْصٍ واخْتِبار، قال تعالى:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)

[سورة الإنسان: 30]

اُطْلب ما شئْت قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

[سورة الإسراء: 19]

قال الشيخ: "وكُلُّهم يتقلَّبون في مشيئَتِه بين فضْلِهِ وعَدْلِهِ"، فإنَّهم كما قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة التغابن: 2]

فَمَن هداه إلى الإيمان فَبِفَضْلِه وله الحَمْدُ، ومن أضَلَّهُ فَبِعَدْلِهِ وله الحمْد، وسيأتي لِهذا المعنى زيادَةٌ وإيضاح إن شاء الله تعالى، فإنَّ الشيخ رحمه الله لم يجْمع الكلام في القدَر في مكانٍ واحِدٍ بل فرَّقَهُ فأتَيْتُ به على ترْتيبِه؛ هذا الموضوع سوف يأتي مُفَصَّلاً في مكانٍ آخر.

الله جلَّ جلاله لا ندّ له ولا ضِدّ :

"وهو مُتعالٍ عن الأضْداد والأنْداد"، الضِّدّ هو المُخالِف، والنِّدّ هو المِثل، فهو سبحانه وتعالى لا مُعارِضَ له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن، لا مُعارِض إلى مثل، ولا مُخالف إلى شبيه.

لا تجد إنساناً ليس لَدَيْه أضْداد وأشباه، فأحْياناً تكون في مَجْلس، وتَحْمِل ليسانس بالفيزياء، ولا يوجد غيرك يحمل هذه الشَّهادة، فأنت تتحَدَّث بطَلاقة عن المعادن، وأشباه المعادِن، والكيمياء، أما إن وُجِدَ لك مثيلٌ حينها تتحَفَّظ، إذْ هناك مَن يُشْبِهُك، فإما أن يوجد مَن يُشْبِهُك أو مَن يُعارِضُك، أما الله جلَّ جلاله فلا ندَّ ولا ضِدَّ، قال تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 4]

ويُشير الشيخ رحمه الله بنَفْي الضِدِّ والنِدِّ إلى الردّ على المعتزلة بزَعْمِهِم العَبْد يخْلُق فِعْلَهُ! فلو أنَّ العَبْدَ يخْلُقُ فِعْلَهُ لكان العبدُ نِدّاً لله تعالى! فالله يخلق الأفعال وكذا الإنسان يخلق أفعالهُ، وهذا غير صحيح.

قولهُ: "لا رادَّ لِقَضائِهِ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا غالِبَ لأمْره"، وقد ذكَرْتُ لكم مرَّةً أنَّ سيِّدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام قال:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة المائدة: 118]

السِّياق يقْتضي إن لم يكن المرءُ حافِظاً للنص أن يقول: فإنَّك أنت الغفور الرحيم! لكن الآية ليسَت كذلك، فَمَعنى الآية دقيق جداً؛ ما مِن مَخْلوق يغْفِر إلا ويُحاسَب، فلو أنَّ مُوَظَّفاً طوى ضريبَةً عن مُكَلَّف فإنَّهُ يُتَّهَم ويُسْأل ويُحاسَب، لكنَّ الله عز وجل إذا غفَرَ كانَ تعالى عزيزاً، وليس في الكون كلِّه مَن يسْأله:

لماذا غفَرْتَ؟! فالإله يغْفر لِحِكْمةٍ أرادها، أما أنت فتتمَنَّى أن تغْفر لكِنَّكَ مُراقب ومُحاسَب، ومَسْؤول عن طَيِّكَ الضريبة عن فلان دون فلان! ويُفْتَحُ التَّحقيق في القَضِيَّة.

آمَنَّا بذلك كُلِّه، أيْ لا يرُدُّ قضاء الله تعالى رادّ، ولا يُعَقِّبُ أي يُؤَخِّرُ حكْمهُ، ولا يغْلِبُ أمْرَهُ غالِب، بل هو الله الواحِد القَهَّار.

والله أيها الأخوة، هذه الفِكْرة وَحْدَها تُلقي في قلبِ المؤمن الأمْنَ والسَّلام؛ أمْرُكَ بيَدِه لا كما يقوله الناس، إنها حركات صُهْيونِيَّة وماسونِيَّة، ولا دخل لله تعالى! لا، الله هو القادِر، وهو الفعَّال لِما يريد، وأمْرُكَ بيَدِه وحْده.

قوله: "آمَنَّا بذلك كُلِّه، وأيْقَنَّا أنَّ كلاً من عنده"، أما الإيمان فسيأتي الكلام عنه إن شاء الله تعالى، والإيقان الاسْتِقرار، تقول: يقِنَ الماء في الحوض إذا اسْتَقَرّ، والتَّنْوين في (كُلّاً) بدلٌ إضافي؛ أي كُلَّ كائِنٍ مُحْدَثٍ مِن عند الله ليس بِقضائِهِ وقدَرِه وإرادَتِهِ، ومشيئتِهِ وتَكْوينِه، وسيَأتي الكلام على ذلك في مَوْضِعِه إن شاء الله تعالى.

وبهذا أيها الأخوة نكون قد أنْهَيْنا القِسْم الأوَّل من كتاب العقيدة الطَّحاوِيَّة المُتَعَلِّق بالإلهيَّات، وفي الدَّرْس القادِم إن شاء الله ننتَقِل إلى النُبُوَّات، ونبدأ بالنبي عليه الصَّلاة والسلام وهو قوله: وأنَّ محمَّداً عبدُهُ المُصْطفى، ونبيُّه المُجْتبى، ورسولُهُ المُرْتَضى.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

النُّبُوَّة هِبَة وليْسَت كسْباً :

أيها الأخوة المؤمنون، فقد وصلْنا إلى النُّبُوَّات، والعبارة الأولى في قِسْم النُّبُوَّات في العقيدة الطَّحاوِيَّة قوله: وإنَّ محمَّداً عبدُهُ المُصْطفى، ونبيُّه المُجْتبى، ورسولُهُ المُرْتَضى.

أيها الأخوة، قبل أن نَمْضِيَ في شرْح فقرات هذا الموضوع أريدُ أن أُنَوِّهَ إلى حقيقةٍ دقيقةٍ جداً مُتَعَلِّقَةٍ بالنُّبُوَّات، وهي أنَّ النُّبُوَّة هِبَةٌ كما يقول علماء العقيدة وليْسَت كسْباً، فلا أحَدَ يسْتطيع أن يصِلَ إلى النبُوَّة بِكَسْبِهِ، لكنَّ الناس يفْهمون مِن هذا الكلام أنّ أيَّ إنسانٍ إذا أرادَهُ الله أن يكون نَبِيًّاً كان نَبِيًّاً، وهذا كلامٌ غير مَقْبول، لكِنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 33]

معنى اصْطفى؛ أنَّ الأنْبياء في الأصْل قِمَمٌ، وهم صَفْوَةُ الله مِن خلْقِهِ، وصَفْوَةُ البشَر في مَعْرِفَتِه، وطاعتِهم، وإخْلاصِهم، وإقْبالهم.

مَقام النُّبُوَّة :

وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى مَقام النُّبُوَّة حينما أجاب حنظلة رضي الله عنه، فعَنْ حَنْظَلَة التَّمِيمِيِّ الْأُسَيْدِيِّ الْكَاتِبِ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَانَا رَأْيَ عَيْنٍ فَقُمْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ أَهْلِي وَوَلَدِي فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَانَا رَأْيَ عَيْنٍ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ وَلَدِي وَأَهْلِي فَقَالَ إِنَّا لَنَفْعَلُ ذَاكَ قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ يَا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ وَبِالطُّرُقِ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً))

[أحمد عَنْ حَنْظَلَة التَّمِيمِيِّ الْأُسَيْدِيِّ]

فالأمْر يحْتاج إلى تَوْضيح، ولعَلَّ المَثَل يُسْهِمُ في تَوْضيح هذه المُعْضِلَة، إذا اعْتَقَدْتَ أنَّ النُّبُوَّةَ هِبَةٌ بلا كَسْبٍ إطْلاقًا، معنى ذلك أنَّ أيَّ إنسان ولو مِن عامَّة الناس، ومِن الدَّرَجة السُّفْلى، لو أرادهُ الله أن يكون نَبِيًّا لكان! لكِنَّ الله تعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 33]

فهُناك اصْطِفاء، والاصْطِفاء انْتِقاء واجْتِباء، فلو تَصَوَّرْنا أنَّنا نُريدُ إنسانًا يُمَثِّلُ بلدَنا في مؤتمر دولي، فلابدّ أن يكون طليق اللّسان باللُّغَة الأجنَبِيَّة؛ هذا أوَّلاً، ولا بدّ مِن أن يكون مُتْقِناً لِلُغَتِهِ العَرَبِيَّة، ولا بدّ مِن أن يكون مُلِمًّا بالحُقوق، والعُلوم، والآداب، وأن يكون ذَكِيًّا في الأصل، وذا شَخْصِيَّةٍ متألّقة، وسريع البديهة، وقويَّ المُحاكَمَة...الخ.

فَنَحن نخْتار من بين عشرين مليونًا شخْصاً تتواجد فيه هذه الصِّفات، ولكن بعد اخْتِيارنا هذا الشَّخْص نُعْطيه أشْياء ليْسَت لأيِّ مُواطِن؛ نُعْطيهِ جوازاً خاصًّا، ومُهِمَّات، وشيكًا مَفْتوحاً، ونُعْطيه حقيبة دِبْلوماسِيَّة؛ هذه الأشياء لا يُمْكِن أن ينالَها أيُّ مُواطِن، لكن هذا الذي نالَها لم يَنَلْها بلا سبب؛ نالَها بعد اصْطِفاء وانْتِقاء واجْتِباء، فَيُمْكن أن تقول: إنَّ هناك شَطْراً مِن النُّبُوَّة كَسْبِيّ؛ بِمَعنى أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام إنسان، أحَبَّ الله تعالى حُبًّا جمًّا، وأخْلَصَ له، وأقْبَل عليه، وداوَم على الصِّلة به تعالى، وبعد أن اخْتارَهُ الله لِيَكون نبيًّا أعْطاهُ ما لم يُعْطِ أحداً من البشَر! فهذا المعنى يجْمعُ بين أن تكون النُّبُوَّة كَسْبِيَّة بِمَعنى، وأن تكون غير كَسْبِيَّة بِمَعنى آخر، فقَبْلَ الاصْطِفاء الأنبياءُ هم قِمَمُ البشَر، وذَرْوتهم، وصَفْوة الله من خلقِه، وبعد ذلك أيَّدهُم الله عز وجل بالمُعْجِزات، وأنْزل عليهم الكتاب، وعصَمَهم مِن أن يُخطِئوا بِأفْعالِهم وأقْوالِهم؛ كُلُّ خصائص النُّبُوَّة هِبَةٌ من الله، إلا أنَّها كانت عن اصْطِفاء وانتِقاء.

من ازداد تعبداً لله و افتقاراً له رفعه الله عز وجل :

قال: "وأنَّ محمَّداً عبدُهُ المُصْطفى، ونبيُّه المُجْتبى، ورسولُهُ المُرْتَضى"، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّ الله اختارني واختار لي أصحابي".

الاصْطِفاء والاجْتِباء والارْتِضاء مُتقاربُ المعنى، أما صاحب هذا الكتاب الإمام الطَّحاوي رحمه الله فيقول: "وأنَّ مُحَمَّداً عبده "؛ أوَّل كلمة قالها في وصفه هي: (عَبْدُهُ).

واعلم يا طالب العِلْم أنَّ كمال المخلوق في تحقيق عُبودِيَّتِهِ لله تعالى، فأنت لا تكون في أكْمَل حالٍ على الإطْلاق إلا إذا كنتَ عبْداً لله عز وجل، وكُلَّمَا تَحَقَّقتَ من عُبودِيَّتِك ارْتَقَيْتَ عند الله، وكلمَّا قلّ التَّحقُّق من عُبودِيَّتِك سَقَطْتَ من عَيْن الله، ولذلك فالإنسان الغربي الكافر يقول لك: الإنسان إله، ونَسِيَ أنَّهُ عَبْد، ونَسِيَ أنَّهُ طينٌ حقير، فطار تيهاً وعرْبَد، وكسا جِسْمَهُ فتباهى، وحوى المال كيسَهُ فَتَمَرَّدَ، هذا الإنسان

البعيد عن الله تعالى مُتَكَبِّر، ومُتَألِّ، ومُتَمَرِّد، ومُسْتَعلٍ، وهو عند الله صغير، وما من شخصٍ على وجْه الإطلاق وعلى وَجْه الأرض رَفَعَهُ الله عز وجل، ورفعَ مقامَهُ وشأنَهُ كَرَسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالتالي ما مِن أحدٍ تكبّر إلا قصَمَه الله، وضَرَبْتُ لكم مرَّةً مثلاً، وهو أنَّ اللّبَن يحْتَمِل خمْسة أضْعافِه ماءً، لا لِيُباع، وإنما هو لاستعمالك الشخصي في البيت، لكِنَّ هذا اللّبَن لا يحتَمِل ولا قطْرة نقْط واحدة!. وكذا الكِبْر يتناقض مع العبودِيَّة لله عز وجل، الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني شيئًا منهما قصَمْتُهُ ولا أبالي، وأنت كُلَّما زِدْتَ تَعَبُّداً لله عز وجل وافتِقاراً له كلّما ارْتَفَعْتَ عند الله، ولذا أعْظم إنسان تحَقَّق مِن عُبودِيَّتِه هو النبي الكريم، فهو عليه الصلاة والسلام أعْظمُ إنسانٍ على وَجْه الأرض، وأرْقى إنسان، واعْلَمْ أنَّ كمال المَخْلوق في تَحْقيق عُبودِيَّتِهِ لله تعالى، وكلّما ازْداد العَبْدُ تحْقيقًا للعُبودِيَّة ازْداد كمالهُ.

المعاصي قِسْمان: مَعْصِيَةٌ أساسها غلبَةُ الشَّهْوة ومعْصِيَةٌ أساسُها الكِبْر :

الإنسانُ أحْيانًا وهو لا يشْعُر يتخَلّى عن مقام العُبودِيَّة لِيَقْتَرِبَ مِن مقام الألوهِيَّة، فحينما يُناقِشُ ربَّهُ لماذا عَلِمْتَ ولماذا لم تعْلم؟ ولماذا فعلْت؟ فأحْيانًا الإنسان يتطاوَل بعَقْلِهِ على مقام الألوهِيَّة! ومن توهَّم أنَّ المَخْلوق يخْرج عن العُبودِيَّة بوَجْهٍ من الوُجوه، وأنَّ الخُروج منها أكْمَل فهُوَ أجْهَلُ الخَلْق وأضَلَّهُم.

وبالمناسبة؛ فالمعاصي قِسْمان: مَعْصِيَةٌ أساسها غلبَةُ الشَّهْوة، ومعْصِيَةٌ أساسُها الكِبْر، فالأولى سريعاً ما يغْفِرُها الله عز وجل إذا تاب منها العبد، أما المَعْصِيَة الناجمة عن الكِبْر فهيَ لا تُغْفَر، لذلك لا يدْخل الجنَّة من كان في قلبِهِ مثقال ذرَّةٍ من كِبْر.

آيات تتحدث عن العبودية لله عز وجل :

والآن مع آياتٍ دقيقة تتحَدَّث عن العُبودِيَّة، قال تعالى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ)

[سورة الأنبياء: 26]

وقال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الإسراء : 1]

وقال تعالى:

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

[سورة الجن: 19]

وقال تعالى:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم : 10]

وقال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 23]

هذه الآيات تَصِفُ النبي عليه الصلاة والسلام أنَّهُ عَبْدٌ لله تعالى.

من ازداد قُرْباً من الله عز وجل ازْداد اسْتِسْلاماً له :

ذات مرَّةٍ، أخٌ كريم عرَضَ عليَّ مُشْكِلَةً يُعاني منها؛ ما رأيْتُ جواباً أوْضَحَ لِمُؤمن صادِقٍ مِن قوْلي له: الذي تُحِبُّهُ وتَعْبُدُهُ وتَسْعى إلى مرْضاتِه هذه هي مشيئَتُهُ وقرارهُ ! فإذا كنْتَ مُحِبًّا لله تعالى حقًّا ترْضى بقضائِهِ وقدَرِه؛ هذا كلامٌ دقيق، والإنسان كُلَّما ازْداد قُرْباً من الله عز وجل ازْداد اسْتِسْلاماً له، والاسْتِسْلام مُريحٌ جداً، فالإنسان إذا أعمَلَ عقْلَهُ فيما لا شأن له فيه أتْعَبَ نفْسَهُ وأتْعَبَ الآخرين، وآيَةٌ واحِدَةٌ تكْفي قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر : 66]

تنتهي مُهمَّتُك عند عبادَتِهِ، والعَبْدُ عَبْدٌ، والربّ ربٌّ، فلا تُحاوِل أن تخْرُجَ من عُبودِيَّتِك فتَسْأل لِمَ؟ وتحاسِب وتُناقش وكأنَّك نِدٌّ لله تعالى.

النبي الكريم نَبيُّ الله عز وجل من دون مُعْجِزَة :

وقولهُ: "وإنَّ مُحَمَّداً " بِكَسْر الهمزة عَطْفًا على قوْلِهِ " إنَّ الله واحِدٌ لا شريك له"؛ لأنَّ الكُلّ معْمول القوْل، أعْني قوْله: نقول في توحيد الله والطَّريقة المَشْهورة عند أهل الكلام، طبْعاً هذه قاعِدَة نَحْوِيَّة، وهي أنَّ (إنَّ واسمها وخبرها) إنْ أُوِّلَتْ بكلمة جاءَت همْزتها مَفْتوحَة، أما إذا لم تُؤَوَّل بِكَلِمة جاءَتْ همْزَتُها مَكْسورة.

قال إنِّي عَبْدُ الله؛ هذه لا تُؤَوَّل، إذًا الهمزة مَكْسورة، وعندنا قواعِد أخْرى تَفْصيلِيَّة، ففي أوَّل الكلام تأتي إنَّ مَكْسورة كذلك، وبعد القول والصِّلَة كذلك، وهكذا.

والطَّريقة المَشْهورة عند أهل الكلام والنَّظر تَقْرير نُبُوَّة الأنبياء بالمُعْجِزات، وبالمناسبة العلامات المادِيَّة هي قواعِد جامِدَة للضِّعاف لا للأقْوِياء، فمثلاً في اللُّغَة الطالب النَّبيه المُتَمَكِّن من اللُّغَة إذا قلتَ له (يمْشي)؛ فما نوع الفعل قال لك: مضارع، لأنَّه يمكن أن يسبق بِنَفي، أو جزْم، أو يقول لك: لأنَّنا يمكن أن نُسبقه بالسِّين أو سوف، فهذه علامة مادِّيَّة، أمّا الطالب القَويّ في اللُّغَة فهذه العلامات لا قيمة لها عنده إطلاقًا، فهو بِمُجَرَّد أن يقرأ الفعل يعرف بِسَليقَتِهِ أنَّهُ مُضارِع، وذاك ماضٍ، فهنا عندنا نقطة مُهِمَّة جداً وهي: يا تُرى ما الدليل على نُبُوَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام أهي المُعْجِزَة فقط؟! لو أنّ إنساناً التقى مع النبي عليه الصلاة والسلام لِوَقْتٍ قصير، ولم ير على يَدِهِ خوارق العادات، فهل هذا يعني أنَّهُ ليس نبيًّا ؟! لا، هناك ألف دليل ودليل على أنَّهُ نَبيُّ الله من دون مُعْجِزَة، وهذه الفِكْرة سأقْرؤُها على مسامعِكم؛ قال الشيخ الطحاوي:

"لكنَّ كثيراً منهم لا يعرفُ نُبَوَّةَ الأنبياء إلا بالمُعْجِزات، وقرّروا ذلك بِطُرق مُضْطربة، والْتَزَمَ منهم إنكار خَلْق العادات لِغَير الأنبياء حتَّى أنْكروا كرامات الأولياء والسِّحْر!".

الكرامة و المعجزة :

أيها الأخوة الكرام، زارني أخٌ قبل قليل، وقال لي: إنَّ العالم الفلاني كان مع أخوانِهِ، ودُعِيَ إلى بيْتِ صديق له مُنْحِرِفٍ، فإذا فيه رَقْصٌ، وفسْق، وفُجور، وخمر، قال: جلس هذا العالم الجليل وأمْسك كأس الخمر وشربَها! وبَقِيَتْ منها بَقِيَّة فأعْطاها لِجاره، فإذا في الكأس ماء الزهر!! والثاني ماء الزهر، فتابوا على يده جميعاً.

قلتُ له: خرْق العادات لسْتَ مُلْزَمًا أن تؤمن بها إلا في حالةٍ واحدة، وهي إن جاءَكَ نَصٌّ صحيح من كتاب الله، أو مِمَّا صحَّ من سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وما سوى ذلك لسْتَ مُلْزَماً ولسْتَ مُضْطَرًّا أن تُصَدِّق أيَّة كرامة، فالكرامة حقّ، ولكنّ الأكمل ألاّ ترويَها، وألاّ تُنْكِرَها، ألَيْسَت امرأة عمران لها كرامة؟ أو ألَيْسَت مريم صاحبة كرامة؟ أليس أهل الكهف لهم كرامة؟ فكرامات الأولياء لسْنَا مُلْزمين أن نُصَدِّقَها، إلا إذا ورَدَ نصّ صحيح من كتاب الله وسنَّة رسوله.

الكرامة غير المعْجزة؛ فالله جلّ جلاله سمح للنبي أنْ يتَحَدَّى بها الناس، أما الكرامة هي للوَلِيّ، ولا ينبغي أن يتحدَّى بها الناس، ولا يذْكرها، بل الأكمل أن يكْتُمَها؛ إنَّها إعلام شَخْصي، وتَكْريم خاص لا يجوز نقلُهُ.

ولا ريْب أنَّ المعجزات دليل صحيح، لكنَّ الدليل غير محْصور في المعجزات، فإنَّ النُبوَّة إنَّما يدَّعيها أصْدَقَ الصادِقين، أو أكذب الكاذِبين، ولا يلتَبِسُ هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين؛ فَقَرائِنُ أحوالها تُعْرِب عنها، والتَّمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دَعْوى النبوَّة، ولو لم يكن فيه آياتٌ مُبَيِّنَة كانت بديهَتُهُ تأتيك بالخَبَر.

فالمؤمن له مِن إحْساسه، ومن كمالهِ، وبصيرتِه، وفراستِه، ومِن صِلَتِه بالله عز وجل مِمَّا يُشْعِرُه أنَّ هذا الإنسان الذي أمامه نَبِيٌّ مُرْسَل، وما مِن أحَدٍ ادَّعى النُّبُوَّة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل، والكذب، والفُجور، واستِحواذ الشياطين ما ظهر لِمَن له أدْنى تَمييز.

هذه طُرْفَة أذْكرها لكم، فقد كنتُ في تَعْزِيَة، وكان أمامي رجل ظنَنْتُه أحد علماء الحديث لأنَّهُ يُشْبِهُهُ تماماً، فبعد أن ألْقَيْتُ كلمَةً قدَّمْتُهُ للدُّعاء، وبينما هو يَدْعو نصَبَ الفاعل، فجَزَمْتُ يقيناً أنَّني واهِم، وهو ليس الذي أعْرِفُهُ؛ حركة واحِدَة جعلتني أتيقَّن أنَّه ليس هو، إذْ لا يمكن لذلك العالم أن ينصب الفاعل، أما مِن حيث الشَّبه فكأنَّهما واحد! فبعد أن انْتَهَت التَّعْزِيَة سألْتُهُ، فإذا هو أحد أئمَّة المساجد.

الأنبياء كمالهم صارخ وأعمالهم جليلة ونُفوسهم مُتَّصلة بالله عز وجل :

الأنبياء كمالهم صارخ، وأعمالهم جليلة، ونُفوسهم مُتَّصلة، فبِمُجَرَّد أن تقترب من نبيٍّ تشْعُر أنَّ الحبَّ اتَّقد فيك، أما هناك من ادَّعى النُّبُوَّة، حتَّى إنّ امرأة ادَّعتها، فلما قال لها الخليفة؛ قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا نَبِيَّ بَعْدِي))

[متفق عليه عن سعد]

فقالت: وهل قال: لا نبيَّة بعدي !! فهُناك طُرَفٌ كثيرة جداً، وكيف أنَّ هذا الذي يدَّعي النُّبُوَّة شَخْصِيَّةٌ تافِهَة.

ما مِن أحَدٍ ادَّعى النُّبُوَّة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل، والكذب، والفُجور، واسْتِحواذ الشياطين ما ظهر لِمَن له أدْنى تَمييز، فإنَّ الرسول لابد أن يُخْبِر الناس بأمور، ويأمرهم بأمور، ولا بدّ أن يفْعَلَ أموراً، والكاذب يُظْهر في نفْس ما يأمر به، وما يُخْبِر عنه، وما يفْعله، ما يظهر كذِبُهُ من وُجوهٍ كثيرة، والصادِق ضِدُّه، بل كلّ شَخْصَيْن ادَّعَيا أمْراً أحدُهما صادق والآخر كاذِب، لا بدّ من أن يظْهر صِدْق هذا وكذِبَ هذا ولو بعد مُدَّة.

أحدهم أرْسَلَهُ أهلُه إلى الأزْهر لِيَدْرُس فلم ينْجح، وبعد خمْس سنوات رجع إلى أهْلِهِ فاحْتَفَلَت به القرية، وذبحت الخرفان، فجلس يُحَدِّث الناس وهو جاهل، فأحدهم نصَحَهُ وقال له: إذا سئِلْتَ أيَّ سؤال فقُل: فيه قولان! فأحدهم خبيث سأله فقال: أفي الله شكّ ؟ فقال ذاك الجاهل: في المسألة قولان!! فضَرَبوه ضرباً

مبرحاً!

وهذا أحدهم كان يزْعُم أنَّه يرى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ويسْأله عن صِحَّة الأحاديث، فأحدهم أعطاه حديثاً ضعيفاً؛ لا هو موضوع، ولا هو صحيح! فقال له السائل: ماذا قال رسول الله حول الحديث؟ فقال له: قال ضعيف!! النبي عليه الصلاة والسلام إما أن يكون قال الحديث أو لا، وليس معه ضعيف!! فالجاهل يُكْشَف سريعاً .

دخل أحدهم على أبي حنيفة النعمان وهو يُحَدِّث أصْحابه، ويبْدو أنّ ألماً ألمَّ برِجْلِهِ فمَدَّها، فأصحابه يعرفون مرض رجْله، فدخل رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثَّة، هَيْئتُه تبْعث على الاحْتِرام، فاسْتَحْيا أبو حنيفة، فطوى رِجْله، ولما انتهى الدَّرْس رفع الرَّجل أصبعه، وسأل قائلاً: كيف نُصلِّي الفجْر إذا طلعت الشَّمس قبل الفجر؟! فقال أبو حنيفة: آن لأبي حنيفة أن يَمُدّ رِجْله!! ثم مدّها، وأحدهم قال لأخيه: لا تتكلَّم فيعْرِفوا غباءَك ! فقال له: لقد عرفوني من دون أن أتكلَّم.

من صدق في قول الحق و هداية الخلق هداه الله إلى الأسلوب المؤثر :

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

هذا الحديث يُعَدُّ أصلاً من أصول الدِّين، اُصْدُق في هِداية الخلق، وفي قولِ الحق يهْدِك الله تعالى إلى الأسلوب المؤثِّر، واصدُق في إنفاق المال يَهَبْكَ الله المال الوفير؛ اُصْدُق في أيِّ شيء ترَ الله تعالى مع الصادقين، ولهذا قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ)

[سورة الشعراء: 221]

دخل شاعِرٌ على ملِكٍ، فقال له: إنَّ! فقام الملِك: قال: و، وانتهى اللِّقاء، ولم يفْهَم أحدٌ ما جرى، فلمَّا خرج قال: ماذا قلتَ له؟ فقال: قلتُ له: إنَّ المُلوك إذا دَخَلوا قرْيَةً أفْسَدوها، فقال له: ماذا أجابَك؟ فقال له: والشُّعراء يتَّبِعُهُم الغاوون!

الإنسان الصادق كلامه مبني على الدليل و التمسك بالسنة :

الكُهَّان ونَحْوُهم وإن كانوا أحْياناً ـ الآن دخلْنا بِمَوضوع دقيق ـ يُخْبِرون بشيء من الغَيْبِيَّات، ويكون صِدْقًا؛ فكيف وهو كاهِنٌ يُخْبِر عن المستقبل ويكون صادقًا؟ سببُه اسْتِراق السَّمْع من السماء قبل نزول القرآن، قال تعالى:

(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

[سورة الحجر: 18]

لو فرضْنا مجلس وُزراء يعقد مجْلساً يدرس فيه إمكانية الاستيراد والتَّصْدير؛ ثمَّ دخل الآذِن بالقَهْوة فَسَمِعَ كلِمَةً وذكرها للناس، وفِعْلاً بعد أيَّام صَدَر مرْسوم يُؤَكِّدُ ما ذكَره الحاجب، وهذا يمكن أن يحْصل؛ وهذا كان قبل بعْثة النبي عليه الصلاة والسلام، أما بعد البعْثة فكما قال تعالى:

(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ)

[سورة الحجر: 18]

فالملائكة كُلِّفوا بمُهمَّات، والجنّ اسْترَقوا السَّمْع.

وإن كانوا أحْيانًا يُخْبِرون بشَيء من الغَيْبِيَّات ويكون صِدْقًا، فَمَعَهم من الكذب والفُجور ما يُبَيِّن الذي يُخْبِرونه به ليس عن ملَكٍ، وليْسوا بأنْبياء، ولهذا لما قال النبي لابن صَيَّاد: قد خبأْتُ لك خبأً، قال: هو الدُّخّ، فقال له النبي: اِخْسأ فلن تعْدُوَ قدْرَك، فهذا جنِيّ أراد أن ينقل خبراً لِلنَبِيٍّ فقال له: اِخْسأ فلن تعْدُوَ قدْرَك؛ أي إنَّما أنت كاهن، وقد قال للنبي عليه الصلاة والسلام: يأتيني صادِقٌ وكاذِب، وقال: أرى عرْشًا على الماء، والعرش للشَّيْطان، وبيَّن أنَّ الشعراء يتَّبعُهم الغاوون، والغاوي هو الذي يتْبَعُ هواه وشَهْوته، وإن كان ذلك مُضِراًّ له.

((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

[الترمذي عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ]

عَوِّد نفْسك الدليل، والتَّمَسُّك بالسنَّة، وكل شيء تسْمعه عَوِّد نفسك أن تذكر الدليل، وهذا منهج التَّلَقي والإلقاء.

تمييز الناس بين الصادق و الكاذب بأنواع من الأدلة :

والناس يُمَيِّزون بين الصادق والكاذب، فقد ذكروا مرَّةً أنّ أينشتاين وهو أكبر علماء الفيزياء والكيمياء، وهو الذي اكْتَشَفَ نظريَّة النِّسْبِيَّة، وهي أنَّ الجسم إذا مشى بسُرْعة الضَّوء أصْبَحَ ضوْءاً، وأصْبَحَت

كتلته لا نِهائيَّة، وقد طاف خمْساً وثلاثين جامِعَة أمْريكِيَّة يُلْقي في كُلِّ جامِعَة نَظَرِيَّتَهُ النِّسْبِيَّة، وكان معه سائِقٌ ذكيّ جداً ومِن شِدَّة مُلازَمَتِهِ له حفِظَ هذه النَّظَرِيَّة وحفظ المُحاضرة غَيْباً، في آخر هذه الجامعات طلب هذا السائق ـ وكان ذا دُعابَة ـ مِن أينشتاين أن يُلْقِيَها مكانَهُ ! فقَدَّم أينشتاين سائقَهُ على أنَّهُ هو، وأصْبَحَ أينشتاين هو السائق، فألْقى السائق المُحاضَرة على الدكاتِرَة الحاضرين، ففي نِهاية المُحاضَرة سأل أحد الدكاتِرَة هذا السائق سؤالاً عويصاً ! فَمِن شِدَّة فِطْنَتِهِ قال هذا السائق: إنّ هذا السؤال سهْلٌ جداً، والدليل أنني سأُكَلِّفُ سائِقي كي يُجيب عنه !! فهذه سرعة البديهة قد تكون في الجاهل، ثمّ أجاب أينشتاين عن السؤال، فأصبح هذا الدكتور السائل صغيراً في نظرهم !!

قال: والناس يُمَيِّزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدِلَّة حتَّى في المُدَّعي للصِّناعات والمقالات كَمَن يدَّعي الفلاحة والنِّساجة وعِلْم النَّحْو والطب والفقه ونحو ذلك، والنُّبُوَّة مُشْتَمِلَة على علوم وأعمالٍ لا بدّ من أن يتَّصِف الرسول بها، وهي أشْرف العلوم والأعمال، فكيف يشْتبه الصادق بالكاذب ولا ريب في أنَّ المُحَقِّقين لخبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العِلم الضروري كما يَعْرِفُ الرجل يد الرَّجُل، وحُبَّه، وبُغضَه، وفرحه، وحزنه، وغير ذلك من أمور في نفسه قد تظْهر على وَجْهِهِ، وقد لا يمْكِنُ التَّعْبير عنها كما قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

[سورة محمد: 30]

لكن هناك قاعِدَة أسْتخْدِمُها كثيراً وهي: ما أسِرَّ أَحَدٌ سريرَةً إلا ألْبَسَهُ الله رداءَها، إذا كان بِنَفْسِهِ شيء وأظْهَرَ شيئًا فالله عز وجل يكْشِفُهُ للناس على حقيقتِهِ في مرَّةٍ من المرَّات.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

العَبْدُ الذي يُحْسِن لا يُخْزيه الله أبَداً :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا في الدرس الماضي إلى باب النُّبُوّات، وهو قوْل الإمام الطَّحاوي رحمه الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "وأنَّ محمَّداً عبدُهُ المُصْطفى، ونبيُّه المُجْتبى، ورسولُهُ المُرْتَضى".

ونحن الآن مع أدَقِّ دليل من أدِلَّةِ الفطرة؛ لما كانت خديجة رضي الله عنها تَعْلَمُ من النبي أنَّهُ الصادِق البار، قال لها لما جاءه الوَحْي: إنِّي قد خشيت على نفسي، فقالتْ: كلاَّ، فهل نزل القرآن حينما طَمْأنَتْ هذه السيِّدة الجليلة النبي عليه الصلاة والسلام؟فمِن أيِّ شيءٍ انْطَلَقَتْ؟ مِنْ عِلْمٍ تعلَّمَتْهُ؟! لا، مِن وَحْيٍ قرأتْهُ؟ لا، قالتْ: كلاَّ، والله لا يخزيك الله أبَداً، إنَّك تصل الرَّحِم، وتصْدُق الحديث، وتحْمل الكلّ، وتَقْري الضَّيْف، وتكسب المعدوم، وتُعينُ على نوائب الحق، ما معنى هذا الرَّبْط؟ لم يأتِ الوَحْيُ بعْدُ، ولم تأتِ السنَّة بعْدُ، ولم تأتِ التَّفْصيلات بَعْدُ؛ قالتْ: كلاَّ، والله لا يخزيك الله أبَداً.

للكَوْن إلهٌ عظيم، فالعَبْدُ الذي يُحْسِن لا يُخْزيه الله أبَداً؛ هذه هي الفطْرة، فأنا أقول لكم يا شباب: إذا كان الواحد منكم مستقيماً ووقّافًا عند حُدود الله، ويعرف الحلال والحرام، ولا يَعْصي الله أبَداً؛ وهذا وَعْدُ الله عز وجل فلن يخزيه الله أبداً، لفتَ نظري هذه الكلمة؛ فَهيَ رضي الله عنها لم تتلقَّ العِلْم بعْدُ، ولم تستمِع إلى أيَّةِ آيَةٍ من كتاب الله، ولا من سنَّة رسول الله، إلا أنّ فِطْرَتَها ألْقت في رُوعِها أنّ هذا الإنسان الذي يَصِل الرَّحِم، ويصْدُق الحديث، ويحْمل الكلّ، ويَقْري الضَّيْف، ويكسب المعدوم، ويُعينُ على نوائب الحق؛ لا يُخْزيهِ الإله الذي في السماء أبَداً، وهذا الكلام سارٍ مفعولُه إلى الأبَد، وفي كُلِّ عصْر، وفي كلّ زمان، وإقليم، وفي كل قرية، ومدينة، وحيٍّ، وفي أيّ مجتمع، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن عهْد آدم إلى يوم القيامة إذا كنتَ مُحْسِنًا ومُتواضِعاً فلا يُخْزيك الله أبَداً، وانْظُر إلى التاريخ فقد بيَّن ما فعَلَ الله بالأنبياء والمؤمنين، وبيَّن ما فعَلَ بأعدائه المُلْحِدين، ألَمْ يُخْزِهِم الله عز وجل؟ ويجعلهم في الحَضيض؟ ما وَضْعُ البِلاد التي رفعَت شِعار: لا إله !!هي في الوَحْل؛ الجريمة والقتْل والمافيا والمُخَدِّرات التي انتشرت وتفشَّتْ في الشَّعْب الذي أنكر الله عز وجل.

من كان مع الله كان بعين الله التي ترعاه :

أنا أتمنَّى عليكم أيها الأخوة، ألاّ تقرؤوا الدِّين على أساس أنَّهُ تاريخ، اقرؤوا الدِّين على أنَّهُ حقائق نعيشُها جميعاً، وأنت بأصْعَب ظرف ومجْتمع؛ فإذا كُنْتَ تُعينُ على نوائب الحق، وتُكْسِبُ المَعدوم، وتَقْري الضَّيْف، وتَصْدُق الحديث، وتَصِلُ الرَّحِم؛ والله لا يُخْزيك الله أبَداً، وكلّ آيَةٍ نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام لك نصيبٌ منها، إذا قال الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور :48]

وأنت إذا كنت مع الله فإنَّك بِعَين الله تعالى التي تَرْعاك، اِفْهَم الدِّين فهْماً صحيحاً، على أنَّهُ قوانين، وأوامر إلهية، لا على أنَّهُ تاريخ، الفَهْم التاريخي سَقيم، وموضوعه أخذ عِلم، والتزود بمعلومات. إذًا السيِّدة خديجة انْطَلَقَتْ من الفِطْرة، والفِطْرة لا تحْتاج إلى تَوْجيه، ولا إلى تَعْليم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

والفِطْرة تقول: إنَّ لهَذا الكَوْن إلهاً، والمُحسِن لا يُظْلَم، ولن يُخْزيه الله عز وجل؛ هذا الكلام لابدّ أن يَدْفَعَكم إلى مزيد من طاعة الله، إلى مزيد من الإنْصاف، وإلى الإحْسان، والتَّمَسُّك بِقَواعِد الشَّرْع؛ مِن أجل أن يكون لك نصيبٌ من هذا الكلام.

ماذا قال النَّجاشي؟! لمَّا اسْتَخْبَرَهُم عن النبي صلى الله عليه وسلَّم، واسْتَقْرَأهم القرآن، فقَرَؤوا عليه، قَالَ النَّجَاشِيُّ:

((إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ))

[أخرجه أحمد عن أم سلمة من حديث طويل]

فالنَّجاشي شَعَر بالحق، وأنَّهُ لا يتَعَدَّدُ.

الحق لا يتَعَدَّد أما الباطل فَيتَعَدَّد :

ذَكَرْتُ البارِحَة في دَرْس الجمعة أنَّ الله عز وجل وصَفَ طريق الحق بأنَّهُ مُفْرَد، قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة الأنعام:153]

الحق لا يتَعَدَّد أما الباطل فيَتَعَدَّد، ومعنى ذلك إذا كنتَ على حق يجب أن تلتقي مع المُخْلِصين؛ يجبُ! وإن لم تلْتَق مع المُخْلِصين فأنت لسْتَ منهم، يجب أن تتعاوَنَ معهم، وأن تُنْصِفَهم لا أن تُنْكِرَ عليهم، وأن تعْرِفَ قدْرَهُم لا أن تُنافِسَهم، إن لم تَكُن هناك مصالِحُ تلفِتُ اهْتِمامك وإذا أرَدْتَ الله ورسوله والدار الآخرة يجب أن تكون مع المُخْلِصين، وأن تَدْعَمَهم، وأن تعْتَرِفَ بفَضْلِهم، وأن تكون واحِداً منهم، لا أن تسْتَعْلي عليهم، وتعُدَّ نَفْسَك وحيداً فريداً.

ثم إنّ ورَقَة بن نَوْفل لمَّا أُخْبِرَ بما رآهُ النبي صلى الله عليه وسلّم، وكان ورَقَةُ قد تنَصَّر، وكان يكْتُب الإنْجيل بالعَرَبِيَّة، قالَتْ له خديجة: أيْ ابن عَمِّي، اِسْمَع من ابن أخيك ما يقول: فأخْبَرَهُ النبي صلى الله عليه وسلّم بما رأى فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى.

من أعظم علامات الصِّدق أن الإيمان إذا خالط القلوب لا يفارقه أحد :

كذلك هَرَقل، ولِهرَقلَ قِصَّةٌ مُمْتِعَةٌ جدًّا؛ مَلِكُ الرُّوم، فالنبي صلى الله عليه وسلّم كتب إليه كتَاباً يدْعوه إلى الإسلام فطَلَبَ مَن هناك من العرب يومئذٍ، وكان أبو سُفْيان قد قَدِمَ بطائِفَةٍ من قريش في تِجارَةٍ إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي، فسأل أبا سُفْيان، وأمرَ الباقين إن كَذَب أن يُكَذِّبوه، فصاروا بِسُكوتِهم مُوافقين له بالإخْبار، ونصُّ الحديث كما في البخاري أنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ:

((أنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لَا قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لَا قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ

سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ))

[البخاري عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاس]

فالإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لا يفارقه أحد، وهذا من أعظم علامات الصِّدق والحق، فإنَّ الباطل لا بدّ أن ينْكشف في آخر الأمر؛ مهما كُنْتَ ذَكِيًّا ودَجَّالاً؛ أنت تستطيع أن توهِمَ الناس إلى حين، أما أن توهِمَهم إلى أمدٍ طويل فهذا مُسْتحيل، وهذا مثل فرنسي؛ تستطيع أن توهِمَ الناس لِبَعْض الوقت، وتستطيع أن تخْدع بعض الناس لِكُلّ الوقت! أما أن تستطيع أن تخْدع كلّ الناس لكل الوقت فهذا مستحيل.

سُنَّةُ الله في خلقِه أن يبتليهم بالسراء والضراء :

سُنَّةُ الله في خلقِه أن يبْتليهم بالسراء والضراء، وينالوا درجة الشكر والصبر كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلَّم قال:

((عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْضِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ))

[أحمد عَنْ ثَعْلَبَةَ]

برَبِّكم هل في السنَّة حديث يُثلِجُ الصَّدْر كهذا الحديث؟ سواء أطْعمه أم أجاعه، رفعه أم خفضه، رزقه أولاداً أم لم يرزقه، حَجَر عنه المال أم لم يحْجُرْهُ، أكان في صِحَّة أم في مرض؛ كلّ هذا كما قال عليه الصلاة والسلام؛ والذي نفسي بيده لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له.

كنتُ والله لما أرى أخاً ألَمَّت به مُصيبة أقول له: والله لو كُشفَ لك الغِطاء لذُبْتَ كالشَّمْعَةِ حُبًّاً لله، والله تعالى غَنِيٌّ عن تَعْذيب عِبادِهِ، والدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

فَهُوَ تعالى إن ساق العذاب أو الشِدَّة فَهُوَ لِحِكْمَةٍ بالِغَةٍ بالِغَة، بِمَعنى أنَّ ما وقع لو لم يَقَع لكان الله مَلوماً، ولكان هذا نَقْصاً في حِكْمة الله، ولِهذا من قواعِد الإيمان: لِكُلّ شيءٍ حقيقة، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتَّى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن لِيُخطئه، وما أخْطأهُ لم يكن لِيُصيبَهُ، ولا تقُل: لو أنَّني فَعَلْتُ كذا وكذا، ولكن قُلْ: قَدَّرَ الله وما شاء فعَل، فإنَّ كلمة لو تفْتح عمل الشيطان، وعِزَّتي وجلالي لا أقبض عبْدِي المؤمن، وأنا أُحِبُّ أن أرْحَمه إلا ابْتَلَيْتُه بِكُلِّ سيِّئَةٍ كان عملها سُقْماً في جسَدِه، أو إقْتاراً في رِزْقِه، أو مُصيبَةً في مالِهِ أو ولَدِه، حتَّى أبْلُغَ منه مثل الذَّرّ، فإذا بقي عليه شيء شَدَّدْتُ عليهِ سَكَرات الموت حتَّى يلْقاني كَيَوْمَ ولَدَتْهُ أمُّه، فَكُلُّ شيء وقع أراده الله، وكل ما أراده الله وقع، وإرادة الله متعلِّقة بالحكمة المطلقة، وحِكْمَتُهُ المطلقة متعَلّقة بالخير المطلق؛ هذه هي عَقيدتنا، والمؤمن مستسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْضِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ))

[أحمد عن ثعلبة]

هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أمركَ الله أن تأخذ منه، وهو كلام رسول الله المَعْصوم.

أكبر مَعْصِيَة عند الله أن يسْتَنْكِف الإنسان عن طاعة الله كِبْراً :

يوم أُحُد، يومها لم يُفْلِح المسلمون بِفَوْز حاسِم، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

وقال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

قال هرقل:

((وَسَأَلْتُكَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ))

هذا كلام العُقلاء، فقد ملكَ النَّبي صلى الله عليه وسلَّم موضِع قدَميه! ونحن في دمشق الشام، وقد كانت هذه المدينة له.

وكان المُخاطب أبا سفيان، وهو حينئذٍ كافر، مِن أشَدِّ الناس بُغْضاً للنبي عليه الصلاة والسلام. مِن الذين أهْدَرَ النبي دَمَهم؛ لمَّا فتَحَ النبي مكَّة فرَّ بعضهم إلى جدَّة لِيَرْكَبَ البحر إلى الحبشة، فهو قد ذَهَب إلى الروم، فرأى هرقلُ يمْدح النبي عليه الصلاة والسلام حينها:

((قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ))

فأبو سفيان أيْقَنَ أنَّ هذا نبيُّ الله تعالى وسَيَنْتَصِر، لذلك أيها الأخوة أكبر مَعْصِيَة عند الله أن تسْتَنْكِف عن طاعة الله كِبْراً! المغلوب لِشَهْوة تَوْبَتُهُ سريعة، والله يُعينه على الطاعة، قال ابن عطاء الله السكندري: "ربّ معْصِيَةٍ أوْرَثَت ذُلاً وانْكِساراً خيرٌ مِن طاعَةٍ أوْرَثَتْ عِزّاً واسْتِكْباراً!" فداءُ الكِبر والتَكَبّر هذا خطير جداً، ودواؤُهُ عسير، فألفُ مَعْصِيَة عن شهْوة أهْوَن من معْصِيَةٍ عن كِبَر!!

وهذه بعض الأدِلَّة الفرعِيَّة على نُبُوَّة النبي صلى الله عليه وسلَّم؛ قال: وبالجُمْلة فالعِلم بأنَّهُ كان هناك في الأرض من يقول: إنَّهُ رسول الله، وأنَّ أقواماً اتَّبَعوه وأقواماً خالفُوه، وأنَّ الله نصَرَ الرُّسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقبَ أعْداءهم؛ هو مَن أظْهَر العلوم المتواترة وأجْلاها.

المؤمن الصادِق لا تَضْعُفُ هِمَّتُهُ أبَداً :

أنت الآن في القرن الخامس عشر الهجري، وقاومه أبو لهب وصفوان وأبو جهل، وكل كفار مكة، فمَن الذي نصَرهُ الله وأعَزَّهُ ورفعَهُ الله؟ ولِمَن كانت العاقبة؟ وبالمناسبة الدَّعْوَة الإسلامِيَّة مرَّتْ باخْتِناقات رهيبة جدّاً، وأحَدُ هذه الاخْتناقات بالخَنْدَق ! الإسلام في الخندق قضِيَّةُ ساعات ويُستَأصل الإسلام عن آخره، حتَّى إنَّ بعضهم قال: أيَعِدُنا صاحبكم أن تُفتَحَ علينا بلاد قيْصَر وكِسْرى، وأحَدُنا لا يأمَنُ أن

يَقْضِيَ حاجَتَهُ!! إلا أنَّ الشيء العجيب، وقد ذَكَرْتُ هذا في خُطْبَةٍ سابقة، وكان دمُه مَهْدوراً، ومُلاحقاً، ومئة ناقةٍ لِمَن يأتي به حيًّا أو ميِّتاً؛ ويقول لِسُراقة: "كيف بك يا سُراقة إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرى ؟!"

كلام خطير جداً؛ معنى ذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام كان واثِقاً من النَّصْر، وأنَّهُ سيَصِلُ إلى المدينة سالِماً، وسَيُنشئ فيها مُجْتَمَعاً إسلاميًّا، وكان له فيها جَيْش وكيان، وسَيُحارِبُ أصْحابُهُ مِن بعْدِه أكبر دَوْلَتَيْن في العالَم؛ وسَيَنْتَصِرون عليهما، ويأتون بتاج كسرى وسِواريْه إلى المدينة مع الغنائم، كذلك الأنبياء واثِقون مِن نَصْر الله، والمؤمن الصادِق لا تَضْعُفُ هِمَّتُهُ أبَداً، وأنَّ هذا الدِّين دينُ الله، وأنَّ الله تعالى ناصِرُه ولو اجْتَمَعَت قِوى الأرض كلها على إطْفائِهِ، فالهَجْمات المتواصلة على الإسلام جعلت الحِيادي ينظر إلى الدِّين ومستقبله، والآن عشرات الناس يدخلون إلى الإسلام.

ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء، وأوليائِهم، وأعدائِهم، علِمْنَا يقينًا أنَّهم كانوا صادِقين على الحق من وُجوهٍ مُتَعَدِّدَة؛ منها أنَّهم أخْبَروا الأمَم بما سيكون من انْتِصارِهم، وخِذْلان أعدائهم، وبقاء العاقبة للمتقين.

فإذا أمكنَنَا أنْ نضَعَ خطًّا بيانِياً للدَّعْوَة، لوَجَدْنا أنَّهُ في الطائف وصل هذا الخط إلى الحضيض؛ تَكْذيب، واسْتِهزاء، وإيذاء، فَمَكَّةُ خذَلَتْهُ، وأخْرَجَتْهُ، وبَقِيَ الأمل في الطائف، فبالَغ أولئك بالإساءة إليه، فحينما عاد إلى مكَّة سألهُ سيِّدُنا زَيْد بن حارِثَة: كيف تعود إلى مكَّة وقد أخْرَجوك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ الله ناصِرُ نَبِيِّه ! يعلمُ أنَّه رسول الله ونبيُّه، وأنَّ الله تعالى لا يتخلَّى عنه، ولذا المؤمن ثقتهُ بالله تعالى كبيرة، وكُلَّما ضَعُفَت هذه الثِّقَة كانت مُؤَشِّراً على ضَعْف إيمانه بالله.

النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى :

والاعتقاد أنَّ ما جاؤوا به مِن المصلحة، والرَّحمة، والهُدى، والخير، ودلالة الخلق على ما ينفعهم، ومَنْع ما يَضُرُّهم، ما يُبَيِّنُ أنَّهُ لا يصدْر إلا عن راحِمٍ، برٍّ، يقْصِدُ غاية الخير، والمنْفَعَةِ للخلق.

فالجاهل لا يمكن أن يقول كلاماً يمْضي عليه ألف وخمسمئة عام دون أن يُظْهِرَ العِلْم فسادَهُ، والنبي عليه الصلاة والسلام قبل ألف وخمسمئة عام نهى مَن كان في بلدٍ موْبوء أن يخرج منها، نهى عن الدخول إليها؛ هذا واضِح ! أما عن الدخول فليس لها تَفْسير إطلاقًا، فهي واضحة النتائج، فهناك مَن يحْمل المرض، وهو ليس مريضاً، فإذا انتَقَل إلى إنسان آخر أمْرَضَهُ، وهو سليم ! لذلك نهى النبي أن ندْخُل بلْدَةً فيها طاعون وأن نخرج منها، وهذا من دلالة نُبوَّتِه.

والآن بعدما حفروا أرضَ حَضْرَموت وجدوا رِمَالاً تُغَطِّي حضارَةً بأكْملِهَا؛ فهناك مُدن، وبساتين، وقنوات ريّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا))

[مسلم عن أبي هريرة]

فمن الذي أنبأهُ أنَّها كانت مُروجاً، وأنهاراً، وأنَّها ستَعُود، معنى ذلك أنَّ الذي يُنَقِّلُ خُطوط المطر في السماء وهو الله تعالى هو الذي أخْبرَهُ، مدينة الشام كانت كلُّها بساتين، وتدْمُر كانت عاصِمَةً خضْراء، وخُطوط المطر تنتقل، كما أنَّ نَجْم القطب كان قبل آلاف السِّنين نَجْماً آخر؛ هو النَّسْر الواقع ! لأنَّ مِحْوَر الأرض المائل يدور حول نفْسِهِ، ويرْسُم مَخْروطًا، أما الآن فهو نَجْمُ القطب، وبعد حين سَيَعُود النَّسر الواقع نَجْم الشمال، ومع هذا التَّبدل تتبدَّل خطوط المطر، ولذلك بلادٌ كانت مُخْصِبَةً خضْراء أصْبَحَت قاحِلَة، وبلادٌ كانت قاحِلَة أصْبَحَت مُخْصِبَة ! وهذا ما يُفَسِّر بِمِئات السِّنين ومواقع المطر والخُصوبة في الأرض؛ قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا))

[مسلم عن أبي هريرة]

فمَن الذي أعلم النبي عليه الصلاة والسلام أنَّ الخروف إذا ذَبَحْتَهُ، وقَطَعْتَ رأسَهُ ينقطِعُ التَّنْبيه الاسْتثنائي للقلب في النَّبْض، لأنّ القلب يتلقَّى أمر النَّبْض من ذاته من مركز كهربائي، لكنَّه يتلقى أمراً اسْتِثْنائِيًّاً عن طريق الدِّماغ بالنَّبْض مئة وثمانين نَبْضة، وتكون مُهمَّة القلب بعد الذَّبْح إخراج الدم كلّه؛ هذا شيء مُستحيل.

وقال عن الحبَّة السوداء:

((عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمر]

أمَعْقولٌ هذا ؟! عُقِدَ مؤتمر بِمِصْر لِدِراسة فوائِد الحبَّة السوداء، فوَجدوا أنَّها تُقَوِّي جِهاز المناعة، وإذا قَوِيَ جهاز المناعة كان الشِّفاء من كلّ الأمراض.

يجب أن تعْتَقِدَ كما قال سيِّدُنا سَعْد بن أبي وقَّاص: "ثلاثة أنا فيهنَّ رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحِدٌ من الناس ! ما صَلَّيْتُ صلاةً فَشُغِلَت نفسي بغيرها حتى أقْضِيَها، ولا سِرْتُ في جنازَةٍ فَحَدَّثْتُ نفسي بِغَير ما تقول حتَّى أنْصَرِفَ منها، ولا سَمِعْتُ حديثًا من رسول الله إلا عَلِمْتُ أنَّهُ من الله تعالى حقًّا".

لا يكون العِلْمُ عِلْماً إلا إذا وافق الدِّين :

المؤمن الصادِق ولو رأى الحديث يُخالِفُ قواعِدَ العِلم، فلا بدّ أن يأتي يومٌ يَكْتَشِفُ العِلْمُ أنَّ هذا الحديث هو الصحيح؛ حدَّثني دُكتور في الشَّريعة، له صديق طبيب؛ هذا الطبيب مِن أربعين عاماً في كُليَّة الطبّ يَدْعو طُلابَّهُ إلى أن يشربوا الماء مع الطعام، بينما الغرب يُحَذِّرون من شرْب الماء مع الطَّعام، مُنْطلِقًا مِن أنَّ هذا الماء يُمَدِّدُ العُصارة الهاضِمَة، فإذا تَمَدَّدَت ضَعُفَتْ فاعِلِيَّة الهضْم؛ قبل عامَيْن فقط اِكْتُشِفَ أنَّ الماء مع الطَّعام يُعينُ على الهَضْم، ويَحُثُّ الغُدد على الإفراز، وفي الحديث عَنْ مِقْدَامِ بْن مَعْدِي كَرِبَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول:

((مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ))

[الترمذي عَنْ مِقْدَامِ بْن مَعْدِي كَرِبَ]

فَكُلَّما تَقَدَّمَ العلم اقْترَبَ من حقائق الدِّين؛ لذلك أكبر خطأ يقع فيه الإنسان أنه لا ينتظر من الدِّين أن يُوافق العلم، فهذا ضعيف، بل من العِلْم أن يُوافق الدِّين، فلا يكون العِلْمُ عِلماً إلا إذا وافق الدِّين.

الديمومة للدين الإسلامي العظيم لأن الكذب و الافتراء لابد من أن يكشفه الله عز وجل :

عندنا دليل لطيف جدًّا؛ وهو أنَّهُ إذا كان النبي صلى الله عليه وسلَّم عند هؤلاء ليس بنَبِيٍّ صادِق، بل هو ملِكٌ ظالِم، فقد تهيَّأ له أن يفْتَرِيَ على الله، ويتقوَّلَ عليه، ويسْتَمِرَّ حتَّى يُحَلِّل، ويُحَرِّم، ويَفْرِضَ الفرائض، ويشْرع الشرائِع، وينْسَخَ المِلَل، ويضْرب الرِّقاب، ويقتل أتْباع الرُّسل، وهم أهْل الحق عندهم، ويسْبي نِساءهم، ويَغْنَمُ أموالهم، وذراريهم، ودِيارهم، ويتِمُّ له ذلك حتَّى يفْتَحَ الأرض، وينْسِبُ ذلك إلى أمر الله له، ويدَّعي مَحَبَّتُهُ له، والرب تعالى يُشاهِدُه، وهو يفْعل بأهل الحق، وهو مُسْتَمِرٌّ في الافْتِراء عليه ثلاثة وعشرين عاماً، وهو مع ذلك كُلّهِ يُؤَيِّدُهُ، وينْصرُهُ، ويُعْلي أمْرَهُ، ويُمَكِّنُ له مِن أسباب النَّصْر الخارِجَة عن عادة البشر، وأبْلَغُ من ذلك أنَّهُ يُجيبُ دَعَواتِهِ ويُهْلِكُ أعْداءَهُ، ويرفَعُ له ذِكْره، هذا وهو عندهم في غاية الكذب، والافْتِراء، والظلم، فإنَّهُ لا أظْلَمَ مِمَّن كذب على الله، وأبطل شرائِعَ أنْبيائِهِ وبدَّلها، وقتل أولِياءَهُ، واسْتَمَرَّتْ نُصرتهم دائِماً عليهم، والله تعالى يُقِرُّهُ على ذلك. أي إن لم يَكُن نبِيًّا جاء بهذه الرِّسالة على دَعْواهم ملِكٌ ظالم وعَبْقري، وافتراها من عنده، وحَرَّم وحلَّل، وفرض ودعا، واسْتجاب الله له، وأهْلك أعداءهُ، معنى ذلك أنَّ الله تعالى هو الذي أضَلَّ عبادهُ، أيُعْقَلُ هذا ؟ قال تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ*لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ*فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة: 44-47]

ولا ريب أنَّ الله تعالى رفَعَ له ذِكْرهُ، وأجاب له دَعْوَتَهُ، والشَّهادة بالنُّبُوَّة على رؤوس الأشْهاد في سائر البلاد، ونحن لا نُنْكِرُ أنَّ كثيراً من الكذَّابين قام في الوُجود، وظَهَرَت له شَوْكَةٌ، ولكن لم يتِمَّ أمرهُ، ولم تَطُلْ مُدَّتُه، بل سلَّطَ الله عليه رسله وأتباعهم، فقطَعوا دابِرَهُ، واسْتأصَلوه، فمثلاً أين هو هولاكو؟ وأين تيمور لنك ؟ هؤلاء الطُّغاة الذين ادَّعوا النُّبُوَّة أين هم؟ وأين هي دَعْوَتُهم؟ الباطل له جَوْلَة، لكِنَّهُ يضْمَحِلّ، أين القرامطة؟ بل أين كلّ هؤلاء الذين كادوا للدِّين؟ فَعَلوا ما فعلوا، وارْتَفَع ذِكْرُهم، وتسلَّطوا، إلا أنَّ الدَّيْمومة أخيراً لِهذا الدِّين.

الحق لا يُحْتَكَر لأنَّه حاجة أساسيَّة لكُلِّ البشر :

الآية الكريمة وهي قوله تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ)

[سورة الطور: 30]

والآية الثانية وهي قوله تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة الشورى: 24]

أخْبَرَ سبحانه أنَّهُ من نفى عنه الإرسال والكلام لم يُقَدِّرْهُ حق قدْرِهِ؛ وهذه نقطة مُهمَّة جداً، فأنت إذا نَفَيْتَ عن الله عز وجل إنْزال الكتب، وإرْسال الأنبياء، فأنت نَفَيْتَ عنه الكمال ! ونَفَيْتَ عنه رحْمَتُهُ بِخَلْقِهِ ! وأنّه ترك الخَلْق مُعَطَّلين عن الأمر والنَّهْي، لذلك هناك حقيقة اسْمعوها أيها الأخوة؛ هذا الحق كالهواء للإنسان، ولا يُمْكِنُ لِبَلَدٍ أن يحْتكِرَهُ، ولا لِعَصْرٍ أو أُمَّة أو مِصْرٍ، ولا لِجَماعة أو شَخْص فالحق لا يُحْتَكَر لأنَّه حاجة أساسيَّة لكُلِّ البشر.

أيْنَما ذَهَبْتَ هناك أهل الحقّ، وهناك دُعاة، والله عز وجل وزَّعَهم في العالم تَوْزيعاً حكيماً، فَكُلّ بلدٍ لها دُعاتُها الصادِقون، أمَّا أن تعْتَقِد أنّ الحق في بَلَدٍ واحِد، فهذه سذاجة ما بعْدَها سذاجَة!

إرْسال الرسل من أعظمِ نِعَم الله تعالى على خلْقِهِ :

آخر شيء، ذكَروا فُروقًا بين النبي والرسول؛ أحْسَنُها أنَّ من نبَّأهُ الله تعالى بِخَبَر السَّماء، فإنْ أمرَهُ أن يُبَلِّغَ غيْرَهُ فَهُوَ نبيٌّ رسول، وإن لم يأمره أن يبَلِّغ غيره فَهُوَ نبيٌّ وليس برَسول، فالرسول أخَصُّ من النبي؛ فكُلّ رسول نبيّ، وليس كل نبي رسولاً، ولكنَّ الرِّسالة أعَمُّ من جِهَة نفسِها، فالنُّبُوَّةُ جزءٌ من الرِّسالة، إذِ الرِّسالة تتناول النبوَّة وغيرها، فالرِّسالة أعَمُّ من جِهَة نفسِها، وأخَصُّ من جهة أهلها، فالرِّسالة تشْمل الشُّعوب كلَّها؛ فالرسول بُعِث للناس كافَّة، أما سيِّدُنا يوسف فقد كان نبيًّا أنْبأهُ الله تعالى بِخَبَر السماء.

وإرْسال الرسل من أعظمِ نِعَم الله تعالى على خلْقِهِ، وخُصوصاً محمَّداً صلى الله عليه وسلّم، كما قال تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة آل عمران: 164]

وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قول صاحب العقيدة الطَّحاوِيَّة: "وأنَّهُ خاتَمُ الأنبياء".

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (19-20) : وأنه خاتم الأنبياء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن هو الأصل :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلْنا في العقيدة إلى قول المؤلِّف: "وأنَّهُ خاتم الأنبياء"، قال تعالى:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)

[سورة الأحزاب: 40]

في العنوان: وأنَّهُ خاتِمُ، وفي الآية: وخاتَم، فالقرآن هو الأصل، ومن يحْفظ القرآن الكريم فكأنَّ مُعْجَماً معه، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ))

[متفق عليه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

كأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم جعل دَعْوة الأنبياء جميعاً كالبُنْيان، ودَعْوَتَهُ صلى الله عليه وسلَّم تمَّمَتْ هذا البُنيان، فأصبَحَ تامَّاً مُكَمَّلاً، وهذا هو معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

[سورة المائدة: 3]

الفرق بين الحبّ و الشرك :

ولا يَخْفى عليكم أنَّ الإكْمال عددِيّ ونَوْعي، وأنَّ أحداً مهما علا مقامُهُ فلا يسْتطيع أن يبْتَدِع، وما عليه إلا أن يتَّبع، وحَسْبُنا قول سيِّدنا الصِدِّيق رضي الله عنه في أوَّل خطبة: "إنَّما أنا مُتَّبع ولسْتُ مُبتدعاً"، بالمناسبة فيما أعْتَقِد أنه ليس مِن رجل أحبَّ رجُلاً كَحُبِّ سيِّدنا الصِّدِّيق لِرَسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وهذا الكمّ من الحبّ لم يُضْعِف سيِّدنا الصِّدِّيق:

((أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا))

[متفق عليه عن عائشة]

فقد يتعلَّق الإنسان أحْياناً بمُرْشِدٍ، أو شَيْخ يَعْبُدُه من دون الله، وهو لا يدري، حُبٌّ قليل قد يؤدِّي إلى الشِّرْك، وحبّ عظيم مِن أبي بكر ما نقلهُ إلى الشرك؛ قال:

((فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ))

[متفق عليه عن عائشة]

أرأيْتُم هذا الفرق الرائع بين الحب وبين الشِّرْك، فقد كان مُوَحِّداً، وكان مُحِبًّا، فهناك من تجدُ فيه غِلْظة؛ يقول لك: لا فضْلَ لأحَدٍ عليّ؛ فهذا الكلام فيه قَسْوة لِقَول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

[الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة]

وقال تعالى:

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان: 14]

وهناك حُبّ يؤدِّي إلى الشِّرْك، لكنَّ الصِّدِّيق رضي الله عنه جَمَعَ بين التَّوْحيد في أعلى درجاتِه، وبين الحبّ في أعلى درجاتِه، فقد قال صلى الله عليه وسلمَّ:

((إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ))

[البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِي اللَّه عَنْهما]

فقد ذكر النبي بَعْضاً من أسمائِه.

كلام رسول الله أفصَحُ كلامٍ على الإطلاق بعد كلام الله تعالى :

وفي صحيح مسلم أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم قال:

((... وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ قَالَ ابْنُ عِيسَى ظَاهِرِينَ ثُمَّ اتَّفَقَا لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ))

[أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لذا أفصَحُ كلامٍ على الإطلاق بعد كلام الله تعالى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، ونحن لم نطَّلِع على دِقَّة نظْم النبي في كلامه، وهناك كُتب قليلة جداً تتحدَّث عن بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام،

ودِقَّة نظْمِهِ، ورَوْعة كلامه، فهذا الموضوع دُرِسَ قليلاً، وكُتَّابٌ قِلَّة وقفوا عند البيان لا عند فَحْواه، بل عند سرّ نظْمه وصياغته.

هل من أحَدٍ يُعْطيني شاهداً نبوياً فيه بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام مِمَّا تَحْفظون؟ التوازن اللّفظي يُعْطي طابعاً موسيقيًّا ؛ قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية: 17]

فهذه الظاهرة موجود في بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام.

كُنَّا في الجامعة، فسأل عميد الكليَّة إحْدى الطالبات، فلم تُجِب فقسَا عليها؛ فقالتْ له: ألم يقل النبي الكريم:

((يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ ارْفُقْ بِالْقَوَارِيرِ))

[رواه الشيخان عن أنس وأحمد واللفظ له]

لكنَّهُ أجابها إجابَةً أقْسى فقال هذا العميد: قال: "ارْفُقْ بِالْقَوَارِيرِ"، ولم يقل ارفق بالبراميل! فسَحَقَها، إلا أنَّه لابد أن يكون الرِّفْق في التعليم، وأن يكون رفيقًا بالطلبة، وبالمناسبة فالقوارير تُسْتَعْمل للعِطْر فقط.

بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام :

ظاهرة أخرى في بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي الطباق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وكالخير والشر والصالح والطالح.

وكذا السجع في قوله صلى الله عليه وسلم:

((أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ))

[متفق عليه من حديث طويل عن البراء]

كقوله تعالى:

(والعصر *إن الإنسان لفي خسر)

[سورة العصر: 1-2]

عصْر وخسر.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

((أنا أفصح العرب بيْد أنِّي من قريش))

[الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

فهذا أُسلوب تأكيد المدْح بما يُشْبِهُ الذمّ.

وقوله صلى الله عليه وسلم:

((فإذا امرأة تُنازعني تريد أن تدخل الجنَّة قبلي))

[من تخريج أحاديث الإحياء عن السيدة عائشة]

[الأدب المفرد للبخاري]

هذه صورة وَصْفِيَّة، أتمَنَّى عليكم أن تقرؤوا بعْضاً من أبْحاث البلاغة، عندئذٍ كلّ شيءٍ تقرؤُونه في كتاب الله وسنَّة رسول الله سترون له بُعْداً بلاغِيًّا كبيراً، وهو يُعَلِّمُكم الأسلوب البلاغي.

الحِوار والمثل والقصَّة والتَّقْرير والتَّعَجّب مِن أساليب النبي الكريم :

مِن أساليب النبي عليه الصلاة والسلام: الحِوارُ، والمثَل، والقصَّة، والتَّقْرير، والتَّعَجّب، فالواحد إذا قرأ الحديث الشريف؛ مِن رَوْعَة القِراءَة أن تضَع يدك عند الموطِن الجماليّ فيه، ثمَّ هذا يُعَلِّمُك أنواع الأساليب وتعددها، لأنَّكَ بحاجة إلى أُسلوب في الكلام، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام موجَز وواضِح، وكلامُهُ يَعُدُّه العادّ، فالذي يُلْقي الكلام سريعاً فقد خالفَ بلاغَة النبي، وهو يقول عليه الصلاة والسلام:

((نضَّر الله وَجْه مَن أوْجَزَ في كلامه واقْتَصر في حاجتِه))

[من تخريج أحاديث الإحياء عن ابن عباس]

وقوله صلى الله عليه وسلم:

((بعثْتُ بِمُداراة الناس))

[البيهقي عن جابر،والمشهور على الألسنة أمرت بالمداراة]

رَوْعة الحديث بالباء! باء الاسْتعانة، أي أنَّني أستَعين على هِدايتِهم بِمُداراتِهم، أما لو قال: بعثْتُ لِمُدارات الناس أصْبَحت المُداراة هدفًا، وشتَّان بين أن تكون المُداراة هدَفًا، وبين أن تكون وسيلةً؛ وهذا فرق كبير كبير، فعند أهل الدنيا المُداراة هدف ووسيلة ومُجاملة، لكنَّ النبي يقول:

((بعثْتُ بِمُداراة الناس))

[البيهقي عن جابر،والمشهور على الألسنة أمرت بالمداراة]

وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام نُصِرَ بالرُّعْب، لكنَّه حينما ترَكَت أُمَّتَهُ سُنَّتَهُ هُزِمَت بالرُّعْب.

أصلُ المساجد لِتَعْليم العلْم ونَشْر الهُدى أما الصلاة فأيُّ مكان لك أن تُصَلِيَ فيه :

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

[متفق عليه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

ذكَرْتُ في الخطبة نقطة دقيقة جداً ؛ وهي: إذا ظَنَنْنَا أنَّ المساجد من أجل الصلاة! فأيُّ مكانٍ في الأرض يصْلح أن يكون مسْجِداً، لكنَّ المساجد من أن أجل أن يجتمع الناس فيها يتْلون كتاب الله، ويتدارَسونه، عندئذٍ تتنزَّل عليهم السكينة، وتتغشَّاهم الرَحْمة، وتَحُفُّهم الملائكة، ويذكرهم الله فيمَن عنده، فأصلُ المساجد لِتَعْليم العلْم، ونَشْر الهُدى، أما الصلاة فأيُّ مكان لك أن تُصَلِيَ فيه.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

[متفق عليه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

ولو قال: بُعِثْتُ إلى كافَّة الخلق، أيُّهما أقرب إلى الصِحَّة؟ كافَّة لا تأتي إلاّ حالاً، فلا نستطيع أن نقول: بلاغٌ إلى كافَّة المواطنين !! بل نقول: بلاغ إلى المواطنين كافَّة، وهذا خطأٌ شائعٌ جدَّاً.

حَجْمُ مهمَّة النبي كَقُدْوَة أكبر بكَثير مِن حَجْمِه كَمبلِّغ :

وقال عليه الصلاة والسلام:

((وخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّون))

[مسلم عَنْ أبي هريرة]

وقوله: وإمام الأتْقِياء؛ الإمام الذي يُؤْتَمُّ به؛ أي يَقْتَدون به، وهناك فرق بين إمام وأمام؛ وهل هناك علاقة بين الإمام والأمام؟ فالإمام يجب أن يكون أمام المُؤْتَمِّين وليس في الصلاة فقط، الإمامة مقامٌ كبير، قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

[سورة البقرة: 124]

أي لن تكون إماماً لهم إلا إذا كنت أمامَهُم في كل شيء؛ مُتَفَوِّقٌ عليهم، وتَسْبِقُهم إلى كلّ فضيلة، وتُطَبِّقُ كلّ ما تقوله، فأنت ينبغي أن تكون أمامهم حتَّى تكون إمامهم، فما بين الكلمَتَين مِن علاقة؟ بين الكلمتين جِناسٌ ناقِص، هل يوجد بِكِتاب الله تعالى جِناس؟ قال تعالى:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

[سورة الروم: 55]

المرء تحت طيِّ لِسانِه لا تحت طيْلَسانِه!

إذا مَلِكٌ لم يكن ذاهِبَة فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذاهِبَة

***

وكم من مِلِكٍ رُفِعَت له علامات، فلما علاَ ماتَ.

كل هذا مِن الجناس.

الإمام الذي يُؤْتَمُّ به أي يَقْتَدون به، والنبي صلى الله عليه وسلَّم إنَّما بُعِثَ للاقْتِداء به، لِقَول الله تعالى:

(إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران]

لذلك كما تعلمون، وكما ذكَرْتُ هذا مِراراً: حَجْمُ مُهِمَّةِ النبي كَقُدْوَةٍ أكبر بكَثير مِن حَجْمِهِ كَمُبَلِّغ، إذْ التَّبْليغ سَهْل، لكنَّهم يتمايَزون فيما إذا كانوا قُدْوَةً أم لا!

النبي الكريم صَفْوَةُ الله مِن خَلْقِهِ :

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

فالنبي في هذا الحديث الصحيح يُبَيِّن لنا أنَّهُ سيِّدُ الخلق وحبيب الحقّ، فهو عليه الصلاة والسلام لا يفْتَخِرُ ولكن يُبَيِّنُ.

وفي أوَّل حديث الشَّفاعة:

((أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[البخاري عَنْ أبي هريرة]

وروى مسلم والترمذي عَنْ أَبِي عَمَّارٍ شَدَّادٍ أَنَّهُ سَمِعَ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ))

[مسلم عَنْ أبي عَمَّارٍ شَدَّادٍ]

فهو صَفْوَةُ الله مِن خلْقِهِ.

فإن قيل: يُشْكِلُ على هذا قوله صلى الله عليه وسلَّم: لا تُفضِّلوني على موسى، فالسؤال: كيف نَجْمع بين نهْي النبي على أن نُفضّل وبين أنَّهُ فضَّل نفسَهُ؟ والجواب أنَّ هذا كان له سبب، فإنَّ هذا كان مِن جرَّاء شكوى يهوديّ على مسْلِمٍ إذْ لطمَه، فقال النبي هذا الحديث؛ لأنَّ التَّفْضيل هنا إذا كان على وَجْه الحَمِيَّة، والعَصَبِيَّة، وهوى النَّفْس، كان مَذْموماً، أما إن كان على وَجْه التَّوْضيح والتَّبْيين ولا فَخْر كان مَحْموداً فالافْتِخار شيء، والبيان شيء آخر.

وكذلك الجهاد، فإذا قاتل الإنسان حَمِيَّةً وعَصَبِيَّةً كان مذْموماً، فإنَّ الله تعالى حرَّم الفَخْر وقال:

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)

[سورة الإسراء: 55]

وقال تعالى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ)

[سورة البقرة: 253]

فَعُلِمَ أنّ المذموم إنَّما هو التَّفْضيل على وجْه الفَخْر.

الإنسان حينما يمْدح نفْسه يصْغُر وينكمِش فالأولى أن يدع الناس يتحدثون عنه :

بالمناسبة؛ النبي عليه الصلاة والسلام مَعْصوم، ويوحَى إليه، ومعه مُعْجِزات، ولعلَّ الله أمَرَهُ أن يُبَيِّن أنَّهُ أفْضَلُ الناس، أما غير النبي فالأولى ألاّ يُبَيِّن، والأولى أن يدَعَ الناس يتكلَّمون عنه، ولا أن يقول هو عن نفْسِهِ، فهذا مِمَّا يُضَعِّفُ مكانته، والناس لهم أعْيُن ويعْرِفون، ومن ظنَّ الغباء في الناس فَهُوَ أغْباهم، لذلك لي كلمة مَشْهورة وهي: امْسِك كأساً من ماء، وصُبَّهُ في منْحَدَر، ثمّ قل له: اصْعَد! أو قل له: انْزِل، فهذا كلام لا معنى له، فليس هناك فائِدَة في أن تقول له: اِصْعد أو اِنْزل !! فمعنى كلامي: أنت عليك أن تتجه نحو الأكمل، ثمَّ اسْكُت، فكمالك سَيُنْبِئُ عن مكانتِكَ، لأنَّك لو أرَدْتَ أن تلفت نظر الناس إلى مكانتك ضعُفْت!

قالوا: رقصت الفضيلة تيهاً بِفَضْلِها فانْكَشَفَت عَوْرَتُها! فالإنسان حينما يمْدح نفْسه يصْغُر وينكمِش، فالأوْلى أن تُغْفِلَ نَفْسَك، وأن تَدَعهم يتحدَّثون عنك؛ وهذا اسْمُه في عِلْم النَّفْس اسْتِجْلاء المديح؛ وهو مَوْقف ضعيف، وقلتُ اليوم في درْس: إنَّ النَّفْس بها أمراض كثيرة، وهي في الحقيقة أعراض لِمَرَضٍ

واحِد؛ فهذه الأمراض مِن نِفاق، وخَوف، وقلق، وضَعْف، ووَجَل، هي أعراض لِمَرض واحِد، هو ضَعْفُ التَّوْحيد، لذلك أنت شُجاع بِقَدَر تَوْحيدك، ومخلص بِقَدَر تَوْحيدك، ومطمئِنّ بِقَدَر تَوْحيدك، ومِقْدام بِقَدَر تَوْحيدك، وجريء بِقَدَر تَوْحيدك، وقد أجاب بعضهم بِجَوابٍ آخر، وهو أنّ قَوْلَهُ صلى الله عليه وسلّم: لا تُفضِّلوني على موسى، وقوله لا تُفَضِّلوا بين الأنبياء؛ نَهْيٌ عن التَّفْضيل الخاص، أي لا تُفَضَّلُ بعض الرُّسل على بعْض بِعَيْنِهِ بِخِلاف قوله: أنا سيّد ولد آدم، فأنت لك أن تقول: هذا الطالب أفضل الطلاب عندي؛ هذا تَفْضيل عامّ، أما أن تقول: هذا الطالب أفضل من هذا أصبَحَ هناك حزازات بينهم، فالتَّفضيل العام مَقْبول، أما الخاص فهو غير ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: أنا سيِّدُ ولَدِ آدَم، ولا فخْر فهذا تفْضيلٌ عام، ولا يمْتَنِعُ منه، كما لو قيل: فلان أفضل أهل البلد بِخلاف لو قيل: فلان أفضل منك!

عدم التَّفْضيل بين الأنبياء :

وأما ما يُرْوى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: لا تُفَضِّلوني على يونس، وأنَّ بعض الشيوخ قال: لا يُفسِّر هذا الحديث حتى يُعْطَى مالاً جزيلاً، فلمَّا أعْطَوْهُ فسَّرَهُ أنّ قُرْبَ يونس من الله، وهو في بطْن الحوت كَقُرْبي من الله ليلة المِعْراج، ويُعَدُّ هذا تفْسيراً عظيماً! وهذا يدلّ على جهْلِهم بِكَلام الله، ورسوله لفْظًا ومعْنى، فإنَّ هذا الحديث بهذا اللّفْظ لم يَرْوِهِ أحدٌ من أهل الكتب، وإنَّما اللّفظ في الصحيح عَن ابْن عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى))

[متفق عليه عَن ابْن عَبَّاس]

فسيِّدُنا يونس أبَقَ إلى الفلك المشحون، وخرج مُغاضِباً فظنَّ أن لن نقْدر عليه، ودخل في بطن الحوت، ونادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك، فنجّاه الله، فإذا بِمُؤمِنٍ ساذج يأتي، ويقول: أنا لسْتُ كَيُونس!! هذا الحال كَحال أستاذ جامِعيّ نَسِيَ الهمزة، والطالب لم ينْسَها، فإذا بالطالب يقول: أنا أفضل من الأستاذ!! بينك وبينه كما بين الأرض والسماء، وإذا كان الله تعالى ذكر بعض الأنبياء بخلاف الأولى فلا ينبغي لأحَدِ المؤمنين أن يتوهَّم أنَّهُ أفضل من هذا النبي في هذا الموضوع، كما أنَّهُ لا ينبغي لِمَن هو في الحضانة أن يقول: أنا أفضل مِن هذا الدكتور! لذلك:

((لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى))

[متفق عليه عَن ابْن عَبَّاس]

أي لا ينبغي لأحَدٍ أن يُفَضِّل نفْسه على يونس بن متَّى، ليس فيه نهي المسلمين أن يُفَضِّلوا مُحَمَّداً على يونس، وذلك لأنَّ الله تعالى قد أخْبر عنه أنَّهُ الْتَقَمَهُ الحوت، وهو مُليم، أي فاعِلٌ ما يُلام عليه، وقال تعالى:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[سورة الأنبياء: 87]

فقد وقع في نفس بعض الناس أنه أكْمل من يونس، ومن ظنَّ هذا فقد كذَبَ، بل كلّ عَبْدٍ من عباد الله يقول ما قال يونس: أن لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، كما قال أوّل الأنبياء وآخرهم، فقد قال آدم:

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[سورة الأعراف: 23]

وأفضلهم وآخرهم قال في حديث الاسْتِفْتاح: اللهم أنت الملِك لا إله إلا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعْتَرَفْتُ بذنبي، فاغفر لي فإنَّه لا يغفر لي إلا أنت، وكذا قال موسى عليه السلام.

من يتوهم أن النبي يفعل خِلاف الأوْلى فَلِحِكْمةٍ بالغةٍ أرادها الله :

أتمنَّى عليكم مرَّةً ثانية أنَّ الله تعالى إذا ذكر على الأنبياء وقائِع، أو صِفات، فاعلموا أنَّها خِلاف الأولى، يجب أن تَعُدَّ هذا الكلام بعيداً عن أن يكون مذمَّةً للنبي أو نَقْصٌ فيه، لأنّ الله عصَمَهم، فهذه قال عنها العلماء: خِلاف الأولى، وقالوا كلاماً طويلاً مُلَخَّصُه: أنَّ ما يفْعَلُهُ الأنبياء لِحِكْمةٍ بالغة بالغة، فمثلاً: لما صلَّى النبي عليه الصلاة والسلام ركْعَتَين فرْضَ الظهر قالوا له: أنَسيتَ أم قَصُرَت الصَّلاة؟ فقال: كل هذا لم يكن، فقال ذو اليدَين: بعضه قد كان، فلمَّا سأل النبي أصْحابه عرف أنَّهُ صلَّى ركْعَتَين، فقال: إنَّما نُسِّيتُ كي أسُنَّ! فهو صلى الله عليه وسلَّم نَسِيَ لِحِكْمَةٍ أرادها الله، ولما اخْتار مكانًا غير مناسب في بدْر، ألَيْس من الممكن أن يأتِيَهُ الوحي أو يجْتهدَ اجْتِهاداً غير صحيح؟ فهو صلى الله عليه وسلَّم وقفَ المَوْقِفَ الكامل في إصْغائِهِ للنَّصيحة، ولأمَّتِهِ مِن بعدِه، ولا سيَّما العلماء والأمراء، فإذا توَهَّمْنا أنّ النبي فعل خِلاف الأوْلى فَلِحِكْمةٍ بالغَةٍ بالِغَة أرادها الله، ثمَّ يجب أن نعلم أنَّ مقام الألوهِيَّة شيء ومقام النُبوَّة شيء آخر، فالنبي بشر والإله إله، فهذه التي ذكَرها الله عز وجل بِخِلاف الأولى هي عَيْنُ الكمال. موضوع عدم التَّفْضيل بين الأنبياء أصْبَحَ واضِحاً وينْسَحِبُ عليه عدمُ الخَوْض فيما كان بين الصَّحابة، فإيَّاكم كَدُعاة أن تخوضوا فيما كان بين الصَّحابة لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلَّم يقول:

((إذا ذُكِرَ أصْحابي فأمْسِكوا))

[الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

فَكُلّ نقاط الضَّعْف بين الصّحابة ينبغي أن نجْتَنِبَها، وأن نشْتغل بما ينفعُنا، ونترك الخِلاف بينهم إلى الله عز وجل، لأنَّنا جميعاً أقلّ مِن أن نَحْكُم عليهم، فهم عُلماء حُكماء كادوا من فِقْههم أن يكونوا أنبياء، كما وصَفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (20-20) : حبيب رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-07-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلى مراتب المحَبَّة أن يحب الإنسان الله و يحبه الله :

أيها الأخوة المؤمنون، في هذا الدرس بالذات يُرْجى أن تُغلق الكتب، وتُطوى، لِحِكْمَةٍ سَتَرَوْنها بعد قليل.

يقول مؤلِّف الكتاب عن النبي صلى الله عليه وسلَّم: "وحبيب رب العالمين"، ثبت له صلى الله عليه وسلَّم أعلى درجات المحبَّة وهي الخُلَّة، كما صحَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارثِ النَّجْرَانِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ:

((إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا...))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارثِ النَّجْرَانِيِّ]

فالإنسان مُرَكَّب في فِطْرَتِهِ أن يُحِب، وأن يُحَبّ، فإذا أحَبَّك الله أو أحْبَبْتَ الله والأصحّ أن تُحِبَّهُ ويُحِبَّك؛ هذه أعلى مراتب المحَبَّة.

وقال عليه الصلاة والسلام:

((وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارثِ النَّجْرَانِيِّ]

فالنبي عليه الصلاة والسلام خليله الرحمن، ولو اتَّخَذَ أحداً من أهل الأرض لاتَّخذ عليه الصلاة والسلام أبا بكر.

الحبّ في الله و الحبّ مع الله :

هذا ينقلنا إلى مقولة دقيقة لأحد العلماء؛ هناك حبّ في الله وهو من كمال الإيمان، وهناك حبّ مع الله وهو عَيْنُ الشِّرْك، فاحْذَروا من المحبَّة مع الله، وعليكم بالمحبَّة في الله لأنَّه من كمال الإيمان؛ فَهَل هناك ضوابط؟ نعم فلو أنَّ هذا الذي أحْبَبْتَهُ في الله أساء إليك فَمَحَبَّتَك له لا تحيد عن هَدَفِها، فقد تَعْتَبُ عليه، أما أن تنقلب المحبَّة عداوَةً وبغْضاء فهذا لا يقع، فهذا الذي أحْبَبْتَهُ مع الله، إذا أحْسَنَ إليك صار مَحْبوباً، فهو قد يكون مُنْحِرِفًا، ويسيء إليك، فتنقلب المحبة عداوةً، فالحب في الله من كمال الإيمان، والحب مع الله عَيْنُ الشرْك، وأدَقُّ آيةٍ في هذا المعنى قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: 24]

فالآية مِحْوَرُها؛ أنَّهُ إن حَمَلَكَ حُبُّك لِزَوْجَتِكَ أن تعْصِيَ الله، وأن تُرْضِيَها، فهذا هو الحب مع الله! وإن أحبَبْتَ تِجارَتَك حيث أكلْتَ مالاً حراماً من أجلها، فهذا هو الحب مع الله، وإن أحْبَبْتَ مسْكَنًا مُغْتَصباً، وآثَرْتَهُ على إعْطائه لأصْحابه، فهذا هو الحب مع الله، فالحب في الله من كمال الإيمان، والحب مع الله عَيْنُ الشرْك.

والحديثان في الصحيح يُبْطِلان قوْل من قال: الخُلَّةُ لإبراهيم، والمحبَّة لمحمد صلى الله عليه وسلم، فإبراهيم خليل الله، ومحمد حبيبه؛ وهذا القول مجرد مقولة، فهذان الحديثان يُبْطِلان هذه المَقولة.

الآية التالية من الآيات الدالة على محبَّة الله لِخَلْقه :

وفي الصحيح أيضاً عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ:

((إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا...))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ]

والمحبَّة قد ثبَتَتْ لغيره صلى الله عليه وسلم، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم حبيب الله؛ فهل معنى ذلك أنَّ الله تعالى لا يُحِبُّ غيره؟ لا، قال تعالى:

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران: 76]

وغيرها من الآيات الدالة على محبَّة الله لِخَلْقه، فَمَن خصَّ الخُلَّة بإبراهيم والمحبَّة لمحمَّد صلى الله عليه وسلم فقد أخطأ، والعلماء قالوا: الخُلَّة خاصَّة والمحبَّة عامَّة ! لكنّ حديث عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ أَدْرَكَ بِيَ الْأَجَلَ الْمَرْحُومَ وَاخْتَصَرَ لِيَ اخْتِصَارًا فَنَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنِّي قَائِلٌ قَوْلًا غَيْرَ فَخْرٍ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُوسَى صَفِيُّ اللَّهِ وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَمَعِي لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...))

[الدارمي عن عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ]

هذا الحديث ينقض كلّ الذي ذكَرْناه !! لكنَّ هذا الحديث لا يثبت.

مراتب المحبة :

المحبَّة مراتب؛ أوَّلُها: العلاقة، وهي تَعَلُّق القلوب بالمَحبوب، وثانيها الإرادة؛ وهي مَيْلُ القلب إلى مَحْبوبه، وطلَبُهُ له، فالإرادة حركة الإنسان نحو المَحْبوب.

والصَّبابة؛ إنْصِباب القلب إليه، حيث لا يمْلِكُهُ صاحبهُ، كانْصِباب الماء في المُنْحَدَر، يقول لك: الأمر خرج من يدي، ولا أستطيع إلا أن أُحِبَّهُ؛ هذه هي الصَّبابة.

الغرام؛ هو الحبّ اللازِمُ للقلب، ومنه الغريم لِمُلازَمتِه غَريمَهُ، ومنه قوله تعالى:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

[سورة الفرقان: 65]

الخامس: المودَّة؛ الوُدّ هو صَفْوَةُ المحبَّة، وخالِصُها، وقالوا: السُّلوك المادي الذي يُجَسِّدُ المحبَّة، وقال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

[سورة مريم : 96]

والسادسة: الشَّغَف؛ وهي وُصول المحبَّةِ إلى شغاف القلب.

والسابعة: العِشْق؛ وهو الحبّ المُفْرِط الذي يُخاف على صاحِبِه منه، و واللهِ كلّما سَمِعْتُ بعض الدُّعاة يقول: عِشْقُ الله عز وجل، فَنَفْسي لا ترْتاح إلى هذا المصْطلح، ولا يوصَفُ به الربّ تعالى، ولا العبْدُ في محبَّةِ ربِّه؛ فلا ينبغي أن تقول: أنا أعْشِقُ ربِّي، ولا أن تقول: إنَّ الله تعالى يَعْشِقُ عِباده، والعِلَّة أنَّ العِشْق محبَّةٌ مع شَهْوَةَ مادِيَّة.

الثامنة: التَّيْمُ؛ تقول: فلانٌ مُتَيَّم مِنَ الوَلَهِ، وهو التَّعَبُّد.

التاسعة: العبادة، فهي من مراتب المحبَّة، أي خالص الحب، والإخلاص، والطاعة؛ كلّ هذه المعاني مَجموعة في التَّعَبُّد، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

العاشرة: الخُلَّة، وهي المحبَّةُ التي تَخَلَّلَتْ روح المُحِبّ وقلبِهِ.

وقيل في ترْتيبها غير ذلك، أي أنَّ هذا الترتيب مُفْتَعَل، وهو تَقْريبٌ حَسَن، ولا يُعْرَفُ حُسْنُهُ إلا في معانيه.

المحبَّة لا تُحَدُّ بحَدٍّ أوْضَحَ منها :

واعْلَم أنَّ وَصْف الله بالمحبَّة والخُلَّة هو ما يليق بالله عز وجل كسائر صِفاتِه تعالى، وإنَّما يوصَفُ الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة الوُدِّ والمحبَّة والخُلَّة حَسْبما ورد في النُّصوص؛ نتقيَّد بالنُّصوص.
قال: وقد اخْتُلِفَ في تَحْديد المحبَّة على أقوال نحو ثلاثين قوْلاً، ولا تُحَدُّ المحبَّة بحَدٍّ أوْضَحَ منها؛ فلو قيل لك: صِفْ لنا التُّفاح! ستَجِدُ في النِّهاية أنَّ لا وَصْف أحسَن مِن وَصْف التُّفاح بأنَّهُ تُفاح!! أمور المشاعر؛ الحُدود تزيدُها غُموضاً، فأوْضَحُ ما فيها صِفَتُها الأساسيَّة.
قال: وخفاء هذه الأشياء الواضِحَة لا تَحْتاج إلى تَحْديد كالماء، والهواء، والتراب، والجوع، والشِّبَع؛ ونحو ذلك، فلو قلتَ: ما هو الشِّبَع؟! كَلَّ، وحينها تعرفُ الشِّبَع؛ فالتفاصيل لا تزيد هذا إلا غُموضاً.

من ادّعى النبوة بعد النبي الكريم فهو كاذب لا محالة :

أنا قلتُ لكم: أغْلقوا الكتُب كي أجْعل هذه الجَلسَة جلسَة أسْئلة، وهذا مِن أجل أن تعرفوا حقيقة العقيدة الصَّحيحة.
ولنطْرحْ سؤالاً؛ قال: لما علِمْنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم خاتَم النَّبيِّين، عُلِمَ أنَّ الذي ادَّعى النُبُوَّة بعدَهُ كاذِب، فلو جاء مُدَّعي النُبُوَّة بِالمُعْجِزات الخارقة والبراهين الصارخَة، فما نقول فيه؟! مادام الله تعالى قرَّر في القرآن الكريم أنَّ محمَّداً خاتَم النَّبيِّين، فأيّ إنسان يدَّعيها ليس معه بُرْهان، بل معه ضلالات وأشياء مُخْزيَة لأنَّنا نقول: هذه لا يُتَصَوَّر وجودها، وهو من فرْطِ المُحال، لأنّ الله تعالى لما أخْبَر عن محمَّدٍ أنَّهُ خاتمُ النبيِّين، فَمِن باب المُحال أن يأتي مُدَّعٍ يدَّعي النُبُوَّة، ولا يظْهر أمارة كذبِهِ في دَعْواه، فيَجِبُ إذًا أن يكون كذب مُدَّعي النبُوَّة صارخًا؛ لأنّ الله عز وجل ختمها بالنبي محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، فكُلّ دَعْوى بعده فهيَ غيّ وهوى، فالغَيّ ضِدّ الرَّشاد، والهَوى عبارة عن شَهْوة في النَّفْس، إذًا تِلك الدَّعْوة عبارة عن هَوى النَّفْس لا عن دليل فهي باطلة.
والنبي عليه الصلاة والسلام وهو المَبْعوث لِعَامَّةِ الجنّ، وكافَّة الوَرَى بالحقّ والهُدى، وبالنور والضِّيَاء.
فهل عندكم دليل أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام مَبْعوث إلى الجنّ والإنس كافَّة ؟! قال تعالى:

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الأحقاف : 31]

وداعِي الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالعقيدة لا تَحْتَمِل الآراء الشَّخْصيَة، ولا تستطيع ولا في أدَقّ تفاصيلِها ولا في جُزْئِيَّاتِها أن تعْتَمِدَها إلا بدَليل قَطْعِيّ الدلالة والثبوت.

النبي عليه الصلاة والسلام مَبْعوث للوَرى كافَّةَ :

يا ترى ! هل أرسل الله إلى الجنّ رسولاً قبل النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال تعالى:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

[سورة الأنعام: 130]

معنى ذلك أنَّه لم يكن محمد عليه الصلاة والسلام النبيَّ الوحيد الذي أرسِلَ إلى الجنّ، بل أرسَلَ الأنبياء من قبله.

وهل الرسُل من الإنس فقط أم من الإنس والجنّ؟! لولا الدليل لقال من شاء ما شاء! الدليل ليس من القرآن الكريم، ولكنه من قول ابن عبَّاس رضي الله عنه: الرُّسل من بني آدم، ومن الجنّ نُذر، وظاهر قوله تعالى حِكايَة عن الجنّ:

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الأحقاف: 30]

يدلّ أيْضاً على أنَّ كتاب موسى مُنْزَلٌ إليهم.

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام هل هو مَبْعوث للوَرى كافَّة؟ الدليل قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة سبأ : 28]

وقال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[سورة الأعراف: 158]

الحكمة من أن النبي الكريم أرسل لكافة الناس :

وهنا سؤال: ما حِكْمَة أنَّ كلّ نبيّ أتى إلى قَوْمٍ بِعَيْنِهم أما النبي محمدٌ عليه الصلاة والسلام فقد أرْسَلَهُ إلى الناس كافَّةً؟! الأمَمُ التي تأتي بعد النبي عليه الصلاة والسلام مُنْتَشِرَة في كلّ القارات؛ أمريكا، وكندا، والبرازيل، والمِكْسيك، والقطْبين، لما خُصَّت الأقوام السابقة بِكُلّ نبيّ، بينما النبي عليه الصلاة والسلام عربيّ، وهناك لُغات، وشُعوب، مُوَزَّعَة في بقاع الأرض، فلِمَ لمْ يَكُن لِكُلّ قَوْمٍ من هؤلاء نَبِيّ

خاص؟! هذا مِن عِلِم الله، وقد صار العالَم كلُّه قرْيَة، بمَعْنى أنّ الإنسان أحْيانًا وهو مُضْطجع على فِراشِه يتابع أخبار العالم خبراً بِخَبر، وسائل الاتِّصال لم تكن متوفرة من قبل! بينما الآن يُمْكِن لشريط كاسيت أنْ يتوزَّع في العالم كلِّهِ، ومُمْكن مُحاضرة تُنْقل عَبْر الأقمار الصِّناعِيَّة، ومُمْكِن كُتب تُتَرْجم للُغات كُلِّها، الأدوات المسْموعة والمَقْروءة تفوق حدَّ الخيال! فيَكْفي أن يأتي النبي بشَريعة خاتِمة للشرائع كلِّها، وأن تنْتشر هذه الشريعة بِكُلّ الآفاق؛ وهذا شيء مَلْموس، فالجامعات الموجودة بالعالم كلّه؛ أمريكا، وكندا، معها أشرطة مُتَرْجمة وكأنَّها في الشرق الأوْسَط، لذا واضح في عِلِم الله تعالى أنَّ هناك اتِّصالات ستَغْدو منتشرة، تَجْعل العالم قرْيَة صغيرة، فهذه الاتِّصالات هي التي سَهَّلتْ الدَّعْوَة المُحَمَّدِيَّة أما لو فرضنا عدم توفُّر الاتِّصالات، وجاء النبي إلى جزيرة، وبَقِيَت هذه الدَّعْوة فيها، فرَحْمَةُ الله تَقْتضي أنَّ لِكُلّ أمَّة وقوْمٍ نَبِيًّا خاصًّا بهم، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

[سورة الأعراف: 158]

أي وأنْذِر من بلَغَهُ، وقال تعالى:

(وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

[سورة النساء: 79]

قال تعالى:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

[سورة يونس : 2]

فهذه الآيات تُؤَكِّد أنَّ دَعْوة النبي عليه الصلاة والسلام عامَّة، وللناس كافة، وقال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

[سورة الفرقان : 1]

وقال تعالى:

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

[سورة آل عمران : 20]

أصلُ المساجد لِتَعْليم العلْم ونَشْر الهُدى أما الصلاة فأيٍّ مكان لك أن تُصَلِّيَ فيه :

الحديث الشريف الصحيح الذي رواه الإمام البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً))

[متفق عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ]

فالمَسْجِد له دَوْر أخْطر من أن يُصَلَّى فيه فقط! وهو دورُ الدَّعْوَة، وتعليم العِلم، أما الصلاة فأيُّ مكانٍ في الأرض هو مَسْجِد.

فهذا الحديث بِشَكل واضِح، وقَطْعي، وجَلِيّ، يبَيِّن فيه النبي أنَّ الأنبياء من قبله بُعِثوا إلى أُمَمِهِم خاصَّة، وبُعِثَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أُمَمِ الأرض عامَّة.

الإسلام لا يُجَزَّأ إنَّما يؤْخَذُ بالكُلِّيَّة :

حديث آخر:

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قال تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[سورة آل عمران: 85]

وكان صلى الله عليه وسلَّم مَبْعوثًا للناس كافَّة، وهذا مَعْلوم من الدِّين بالضَّرورة، فَمِنَ البديهيَّات التي لا بدَّ ألاّ يكون أحدٌ جاهِلاً بها أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام مَبْعوث إلى الناس كافَّة، أما قولُ بعض النَّصارى مِن أنَّهُ مَبْعوث إلى العرب خاصَّة فهُوَ ظاهِرُ البُطْلان، لمَّا صدَّقوا بالرِّسالة لَزِمَهم تَصْديقُهُ في كُلّ ما يُخْبِرُ عنه، فالإسلام لا يُجَزَّأ إنَّما يؤْخَذُ بالكُلِّيَّة.

عدم استعمال كافَّة في كلام العرب إلا حالاً :

وقوله: وهو مَبْعوث إلى عامَّة الجنّ وكافَّةِ الورَى، جرّ كلمة كافَّة فيها نَظر! إذا قلنا في مسألة فيها نظر أيْ أنَّها قضيَّة خِلافِيَّة! لذلك قوْل المؤلّف: وهو مَبْعوث إلى عامَّة الجنّ وكافَّةِ الورَى؛ هذه عِبارة فيها نَظَر، فإنّهم قالوا: لا تُسْتَعْمَل كافّة في كلام العرب إلا حالاً، فكان ينبغي أن يقول: وهو المَبْعوث إلى عامَّة الجنّ والوَرَى كافَّةً.

قال: واخْتَلَفوا في إعْرابها في قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة سبأ : 28]

إعْراب كافَّةً! بالمناسبة إذا شكّ الإنسان في إعْراب بعض الآيات عليه أن يكون له مرْجِع، ولطيفٌ جداً من أخواننا الدُّعاة المُتَفَوّقين أن يكون في مَكْتَبَتِهِم إعراب القرآن!.

قال: هناك ثلاثة إعرابات لِكَافَّة؛ أحَدُ هذه الإعْرابات أنَّها حال، والحال يَحْتاج إلى صاحب، تقول: دخل الطالب ضاحِكًا؛ مَن صاحب الحال؟ الطالب، ورأيْتُ الطالب ضاحِكًا! مَن صاحب الحال؟ المفعول به، فنحن إذا قلنا: إنّ كافَّة حالاً، فمَن هو صاحِبُها؟ الكاف في قوله تعالى: أرْسلناكَ، إذًا هي حال من الكاف في أرْسَلناك، وهي اسم فاعِل والتاء فيها للمُبالغة؛ أيْ كافًّا للناس عن الباطل، وقيل: هي مَصْدَر كفَّ؛ بمَعنى أن تَكُفَّ الناس كفًّا.

الثاني: أنَّها حالٌ من الناس، واعْتُرِضَ أنَّ حال المَجْرور لا يُتَقَدَّمُ عليه، فإذا كانت (الناس) حالاً، فصَاحب الحال الذي هو شبْه جملة لا يتأخَّر عن الحال، إذًا هذا وَجْهٌ ضعيف.

الثالث: أنَّها صِفَةٌ لِمَصْدَر مَحْذوف، أيْ رسالةً كافَّةً! وإرْسالاً كافًّا، وأصْبَحَت بهذا نائب مَفْعول مطْلق.

الحق والضياء والنور والهدى أوْصاف الدين الذي جاء به الرسول الكريم :

وقيل: بالحق والضياء والنور والهدى؛ هذه أوْصاف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من الدِّين، والشَّرْع المُؤَيَّد بالبراهين الباهرة مِن القرآن وسائر الأدِلَّة، والضِّياء أكْمَل من النور؛ قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)

[سورة يونس: 5]

فالضِّياء أكْمل من النور.

وفي الدرس القادم إن شاء الله نبْدأ بالقرآن الكريم، وهو قوله: "وإنَّ القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كَيْفِيَّةٍ قوْلاً، وأنْزلهُ على رسولِهِ وَحْياً، وصدَّقهُ المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيْقَنوا أنَّهُ كلام الله تعالى بالحقيقة،

ليس بِمَخلوقٍ ككلام البرِيَّة، فَمَن سمِعَهُ، وزعم أنَّهُ كلام البشر فقد كفَر، وقد ذمَّهُ الله تعالى، وعابَهُ، وأوْعَدهُ بِسَقَر"، حيث قال تعالى:

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[سورة المدثر : 26]

فعلمنا مِن هذا أنَّ هذا لا يُشبه قول البشر**!**.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس